
مكتبة مصر
بين القصرين
نجيب محفوظ
إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

عند منتصف الليل استيقظت ، كما اعتادت أن تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على ايقاظها في دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس ، حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت راسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التى تترامى اليها اول الليل من سمار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى هى التى تترامى عند منتصفه والى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن اليه الا احساسها الباطن - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هى العادة التى توقظها في هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولاتزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست في الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافيء وبسملت ثم انزلقت من تحت الغطاء الى ارض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث

من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلفت منه وحملته
وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجية
دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ،
ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنبة . وأضاء المصباح الحجرة
فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده
الأفقية المتوازية ، الا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى
وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة والصوان الضخم
والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش
والألوان . واتجهت المرأة الى المرآة وألقت على صورتها نظرة
فرأت منديلها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات
من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته
فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه في أناة وعناية ،
ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به
من آثار النوم . كانت في الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو
كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء في حدوده الضيقة لطيف
التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين
دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة
عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم
رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب ، وبشرة قمحية صافية
تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى . وقد
بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب
المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت في قفصها المغلق تردد وجهها
يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ
أضلافها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها
شارعا النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى
يصعد الى الشمال ، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا

بظلمة تكثف في أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف
في أسافله بما يلقى اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات
المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ،
والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث
توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به
الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت
ضوء النجوم الزاهرة . منظر ألفته منها العينان ربع قرن من
الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها
على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا
لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك
قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت
الكبير — بفنائه الترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة
العالية الأسقف — سواها ، أكثر النهار والليل . وكانت حين
زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما
وجدت نفسها . عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت
الكبير ، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل
لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة اياها وحيدة في دنيا الليل
الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود
الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة
خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى في أركانها نظرات متفحصة
خائفة ثم تغلقها باحكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول
مثنية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا
للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس في الفراش
ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت
تخاف الليل في عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها — هى
التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الانس — أنها

لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هي الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى أذنيها همساتهم وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم ، وما من مغيث الا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهي وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافتة من اشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء . فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا ، وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة . وعند ما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التي لم تجر عليها سوءا قط . فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو من دالة : « الا تحترم عباد الرحمن !. الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيا أو نائما ـ كفيلا ببث السلام في نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، في العام الأول من معاشرته ، أن تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه

الا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوري في لهجة حازمة : « أنا رجل ، الآمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذري أن تدفعيني الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شيء ـ حتى معاشرة العفاريت ـ الا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرها ، ووقر في نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وأنها لتستعيد ذكريات حياتها في أي وقت تشاء فلا يطالعها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق الا ابتسامة رثاء ، ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناء هم قرة عينيها وبيتا مترعا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة .. بلى ، اما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليها أو الى أحد من أبنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذي بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهي بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، ففضلا عن أنها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحي لحدبها على بعلها وتفانيها في اسعاده ، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهي واقفة

في المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى المآذن . أو تسرحه بين البيوت المتكأكئة على جانبى الطريق في غير انتظام أو تناسق كأنها طابور من الجند في وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذى تحبه ، هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدد مخاوفها لا يغير الليل منه الا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لأصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور : « لله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدى الآن ؟ .. وماذا يفعل .. فلتصحبه السلامة في الحل والترحال » . أجل قيل لها مرة ان رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد في يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء ، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا : فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا أنها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من صفات الرجولة

كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهما أو كذبا . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة في مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد في مغالبة ما تكره ، فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت « حنطورا » يقترب وئيدا ومصباحاه يسطعان في الظلام ، فتنهدت في ارتياح وغمغمت « أخيرا .. » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » أمام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة :

ـ أستودعكم الله ..

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا أنها تسمعه كل ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته ، فما عهدت منه ـ هى وأبناؤها ـ الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقة !. وكأن صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فقال له :

ـ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة ؟. قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لا يستحق أن يركب الا حمارا ..

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا الى السكون ثم قال يجيبه :

ـ أما سمعت بماذا اجابته نفسه ؟.. قالت اذا لم توصله انت فسيركب البك صاحبنا ..

وضج الرجال ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال صاحب العربة:

ـ فلنؤجل الباقي الى سهرة الغد ..

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت في رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق ، وانزلاق المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ، خالعا مزاحه الذى لولا استراق السمع لظنته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

ـ ٢ ـ

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـ مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـ مساء الخير يا سيدى .

وفي ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت أمينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، في حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم

اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه . وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان في أناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه في عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه المتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه واطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ، ولما كشف قدمه اليمنى بدا أول عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره التى تآكلت من توالى الكشط بالموسى في موضع كاللو مزمن . وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق ، فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والأبريق في يدها على أهبة الاستعداد ، فاستوى السيد في جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات في البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل في سرور وانشراح ، وبنفس

الحماس الذى يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدأبها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق في أن تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبة ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى في أطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط في الشرب حتى السكر ، الا أنه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب أن يبدو به في بيته . وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه في أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مريبا ، الا ما كان يبدو منه أول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه الساعة اقبالا منه في الحديث وتبسطا في فنونه قل أن تظفر بمثله في أوقات افاقته الكاملة . وانها لتذكر كم ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملا ، واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع ، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد آلاما لا قبل لها بها . وبمضى الأيام والليالى ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه في جميع الأوقات ، فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل في الحديث ، فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس أن تضرع الى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه ، وكم

عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه ، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت أفكارها في أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه .

أما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر ، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة ـ في جلسته هذه ـ لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفتيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته . والحق أن سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها في ذكرياته ، وفي قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع في سماء حياته حينا من بعد حين ، وما برحت تطن في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها في عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه في سهرته من الخطورة كأنه أمل الحياة المنشود ، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها الى أطراف

القاهرة ليسمع الحامولي أو عثمان أو المنيلاوي حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت انغامهم الى نفسه السخية كما تأوي البلابل الى شجرة مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة في السمع والطرب ، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية ، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص اطرافه خاصة الرأس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل: « وليه بقى تلاويعك وهجرك » أو : « يا ما بكره نعرف .. وبعده تشوف » أو « اسمح بقى وتعالى اما اقول لك » وكان حسبه أن تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربا وترف على شفتيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة في طاقة يحلو بها وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب المعتق والملحة العذبة ، أما أن يصفو له وحده — كما يتلقى في البيوت عن الفونوغراف — فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته وملابساته ، وهيهات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى ان يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وان يسابق الترديد بالنهل من كأس مترعة ، ويرى اثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد أن السهرة لم يقتصر اثرها على بعث الذكريات ، فمن مزاياها أيضا انها تهيئه في اعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذي تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسط معها في الحديث ويفضي اليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بانها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن

شؤون البيت فأنبأها بانه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن ، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد . والحق أنه كان يحنق على الأستراليين لسبب خاص به وهو انهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزبكية فارتد عنها مغلوبا على أمره — الا في القليل النادر من مختلس الفرص — لانه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس مناعهم جهارا ويتسلون بصب الوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل اغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

— وكمال ؟! اياك وأن تتستري على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تتستر عليه حقا فيما لاخطر له من اللعب البريء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أي لون من ألوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

— انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من احداث يومه فذكر فجأة انه كان يوما حافلا ، ولما كان في حال لا يستحب معها كتمان شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

— يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! اما علمت بما فعل ؟.. ابى أن يعتلي عرش أبيه المتوفي في ظل الانجليز .

ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس الا انها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها

— مدفوعة بعواطف الاجلال للمتكلم — كانت تخاف ألا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

— رحم الله السلطان وأكرم ابنه .

فاستطرد السيد قائلا :

— وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان الى سراى عابدين .. وسبحان من له الدوام .

واصغت أمينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره في نفسها اى نبأ يجيء من العالم الخارجي الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلها معها عن هـذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها ، الى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلا تاما . ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هي من أعماقها فقالت :

— ربنا قادر على أن يعيد الينا أفندينا عباس .

فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا :

— متى ؟ .. متى ؟ .. علم هذا عند ربى .. ما نقرأ في الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا أو ينتصر الألمان والترك في النهاية ؟ اللهم استجب .

وأغمض الرجل عينيه اعياء ، وتثاءب ، ثم تمطى وهو يقول :

— اخرجي المصباح الى الصالة .

ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب ، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

— صحة وعافية .

— ٣ —

وفي هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدوى الطبل . وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفى — امرأة في الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق — وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على اعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، في أقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذ دبت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفي أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في احداهما واستعملت بالتالى مطبخا ، واعدت الأخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عنـد حلولها حين تتطلع اليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة ، وتتحلب الافواه لألوان الطعام الشهية التى تقدمها موسما بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره ، وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة ، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح في أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة في السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره . واذا كانت أمينة تشعر بأنها في أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه

شيئا ، فهى في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها ، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها ، والكانون الذي يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بألسنة اللهب باشارة منها . هى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ماتقدم يداها ، وآية ذلك أنها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه . وأم حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للادارة والعمل أم تخلت عن مكانها لاحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت اشرافها ، وهى امرأة بدينة في غير تنسيق ولاتفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى في نموه السمنة فحسب وأهمل اعتبارات الجمال ، بيد أنها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة في ذاتها الجمال كل الجمال . ولا عجب فقد كان كل عمل لها في البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة ــ أو بالأحرى اناثها ــ بما تعد لهن من « بلابيع » سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون ، ومع ان أثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا انه برهن على جدارته في أكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال واحلام . فليس عجيبا بعد هذا ان تسمن أم حنفي ، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما ان أيقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى «ماجور» العجين . وتعالى صوت العجين الذي يؤدى وظيفة جرس المنبه في هذا البيت ، فترامى الى الأبناء في الدور الأول ، ثم تصاعد الى الأب في الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد ازف . وتقلب السيد احمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه ، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذي ازعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لانه كان يعلم انه يجب ان يستيقظ ، وتلقى أول

احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة ارادته وجلس في فراشه وان كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعا ، يغادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا في الدماغ والجفون .

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمي ، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا على كتب القانون ، فاذا استيقظ فأول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا : « مريم » . ولو اذعن لسلطان الاغراء للبث تحت الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح به بأسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى في غير هذا الرقاد الدافيء في مطلع الصباح . ولكنه كعادته أجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس في فراشه ، ثم مد بصره الى اخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف :

ــ ياسين .. ياسين .. اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من انفه :

ــ صاح .. استيقظت قبلك .

فانتظر فهمي مبتسما حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :

ــ اصح ..

فتقلب ياسين في فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطيبة تنطق بالتذمر « أف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة !.. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظام .. دائما النظام .. كأننا عساكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال في نومه الذى لن ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « يا له من غلام سعيد ! » . ولما أفاق قليلا تربع على الفراش وأسند رأسه الى يديه ، ورغب في معابثة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها أحلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ ــ كأبيه ــ على حال من ثقل الراس تتعطل معها الاحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك في حساسيته اثرا مما تترك في صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجين ، كانت أشبه الأسرة بأمها في نشاطها ويقظتها أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى تنبعث في السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى أرض الحجرة في عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من احلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها .

ثم دبت الحياة فشملت الدور الأول كله ، فتحت النوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى اثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمى بطوله الفارع وقده النحيف وكان ــ

فيما عدا نحافته ــ صورة من ابيه . وهبطت الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأمهما في حجرة الفرن ، وكان في صورتيهما اختلاف قل ان يوجد مثله في الأسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفي قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء .

ومع أن السيد كان في الدور الأعلى بمفرده الا أن أمينة لم تدعه في حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى انفه عرف البخور الطيب ، والفى على الكرسى ثيابا نظيفة مرتبة في عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح ــ عادة لاينقطع عنها صيفا أو شتاء ــ ثم عاد الى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة ــ وكانت مطوية على مسند الكنبة ــ فبسطها وادى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه ، وغير الوجه الجازم الصارم الذى يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى الانها التزلف والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على ألوان الحياة التى يتقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى في عمله ، ويصادق فيفرط في مودته ، ويعشق فيذوب في عشقه ، ويسكر فيغرق في سكره ، مخلصا صادقا في كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك في ذريته وتجارته .

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا ما زال يغط في

نومه ، فأقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى فارق الفراش . ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق في عينيها :

ــ صباح النور يا نور العين ..

وبنفس الرقة صبحت على ياسين « ابن » زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمراة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين ــ وياسين خاصة ــ بما يغمرانها به عادة من دعابة . وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة او بلسانها الحاد رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر ان تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الاسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبادرها ياسين قائلا :

ــ كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقــول انه لو كان النساء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب . .

فقالت على البداهة :

ــ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس . .

عند ذلك هتفت الأم قائلة :

ــ اعد الفطور يا سادة . . .

- ٤ -

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس واربع خالية الا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال في أوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الأخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين أبيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالته . جلس الاخوة في أدب وخشوع ، خافضى الروءس كأنهم في صـــلاة جامعة ، يستوى في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل اغا ، فلم يكن احد منهم ليجترىء على التحديق في وجه أبيه . وأكثر من هذا كانوا يتجنبون في محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب او لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها. ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لانهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميها ، فضلا عن ان الفطور نفسه يتم في جو يفســد عليهم تذوقه واستلذاذه . ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل واو تافه في هيئة أحدهم او بقعة في ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا . وربما سأل كمال بغلظة : «غسلت يديك؟» فاذا

اجابه بالايجاب قال له آمرا : « ارنيهما » فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما » . أو يسأل فهمى قائلا : « أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام — التى استوجب عليها حنق أبيه — لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه، ولكن السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذى لايطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام ، ولهذا يعلق على اجابة فهمى قائلا بامتعاض : « الأدب مفضل عن العلم » . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » . .

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه «قلة» ، ووقفت متأهبة لتلبية أية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض ، وفي أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة ، وفي الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الأسود ، فهاجت بطون الاخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السيد يده الى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم « كلوا » ، فامتدت الأيدى الى الأرغفة في ترتيب يتبع السن ثم ياسين ففهمى ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقف ، ومع أنه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة — الفول والبيض والجبن

والفلفل والليمون المخللين — ثم يأخذ في طحنهما بقوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية ، الا انهم كانوا يأكلون متمهلين في أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة او نظرة قاسية اذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب . وكان كمال أشدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه ، واذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فاقل ما يتعرض له هو وكلة أو لكمة . فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق ، مسترقا النظر بين آونة وأخرى الى المتبقى من الطعام الذى يتناقص سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه . وعلى رغم سرعة أبيه في الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام — وما يتهدده هو بالتالى — من ناحية أخويه أشد وأنكى ، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع ، أما أخواه فكانا يبدءان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شهى يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ، ويدا للأطباق الصغيرة ، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ الى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد في مثل هذه الحال ، وهى أن يعطس في الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الاخوان ، ونظرا اليه حانقين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان في الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا في الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته

له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها ـ كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة ـ رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الأهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية ـ الى فوائده الأخرى ـ فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وفتور مشبع بالهدوء ميال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء ، فنفر من اعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاح والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمي بائع الكسكسي عند مطلع [illegible] بالصاغة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان ، ولم يكن السيد من مدمني المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرآة وراح يرتدي ملابسه التي قدمتها اليه امينة قطعة قطعة ، والقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس في هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين ليرى جانبه الأيسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانه ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار

يعرفه اهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث في قلبه ـ مع الحب ـ الاجلال والخوف ، الا ان انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان ايذانا بذهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الأسير الى صليل السلاسل وهي تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يختلس النظر اليها من زيق الباب الموارب ، فوقف أمام المرآة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا امينة » ، وكان يعلم انها لا تلبي هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع ان أمه كانت تغالب الضحك الا انه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه في المرآة من جانبه الأيمن الى الأيسر ، ثم مضى يسوي شاربه الوهمي ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرآة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لي صحة وعافية ؟ » فغمغمت المرآة ضاحكة : « صحة وعافية يا سيدي » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة في الطريق ، وبدا السيد وهو يسير في تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولي اللبان وبيومي الشربتلي ، فاتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو . وتلاه فهمي في مشيته

المتعجلة ، ثم ياسين في جسم الثور واناقة الطاووس ، واخيرا ظهر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره الى الشبـاك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مسـتخفيات وراءه ، وابتسم ، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا في الأرض عن زلطة ليركلها ..

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها ..

— ٥ —

وغادرت الأم المشربية ، وتبعتها خديجة ، على حين تلكأت عائشة حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك في اهتمام ولهفة . بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها انها تنتظر . ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا في طريقه الى قسم الجمالية ، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية في عجلة الى حجرة الاستقبال ، واتجهت الى نافذتها الجانبية وأدارت اكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا . ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه في حذر دون أن يرفع رأسه — فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك — فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النافذة وهى تشـد عليها بعصبية — كأنها تخفي آثار جريمة داميـة — وتراجعت عنها مغمضة

العينين من شدة الانفعال ، فأسلمت نفسها الى مقعد واسندت رأسها الى يدها وساحت في جو مشاعرها اللانهائى . لم تكن سعادة خالصة ، ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة موعدة فلا تدرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى في مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد . ولبثت في تهويمها كثيرا أو قليلا ، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ، وذكرت — كما يلذ لها أن تذكر دائما — كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها في دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك في مخيلتها اثرا باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال ، فظل يتخايل لعينيها طويلا . وفي نفس الساعة من اليوم التالى — والأيام التالية — راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها ، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف اخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب — الذى يتمطى مستيقظا لأول مرة — ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويتذوقها في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة — هذه المرة — أن ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجائم فخطت خطوة — جنونية — وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة

والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه
من علو ساحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به .

***

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم
في ظل سلام ، ثم أفاقت من حلمها ، وصممت على أن تتحامى
الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها
استدرارا للطمأنينة : « لم تزلزل الأرض ومر كل شيء بسلام ،
لم يرنى أحد ولن يرانى أحد ، ثم انى لم أقترف اثما ! » ونهضت
قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال ترنمت ــ وهى تغادر
الحجرة ــ بصوت عذب : « يا ابو الشريط الأحمر يااللى أسرتنى
ارحم ذلى » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة
من حجرة الطعام وهى تزعق في تهكم :

ــ يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، أعدت لك خادمتك
السفرة .

وأثابها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجة فهوت
من عالم المثال الى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير
ظاهر ــ ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسها ــ ولكن
إعتراض صوت أختها ــ بالذات ــ لغنائها وخواطرها أرعبها ،
ربما لأن خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد ، بيد أنها
طاردت هذا القلق الطارىء وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت
الى حجرة الطعام فوجدت السماط ممدا حقا وأمها مقبلة
بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

ــ تتلكئين بعيدا حتى أعد كل شيء وحدى .. كفاية لنا
الغناء ..

ومع أنها كانت تتلطف معها في الحديث تفاديا من حدة لسانها

الا أن اصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة
جعلها تتعلق أحيانا باغاظتها فقالت مصطنعة الجد :

ــ ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا في البيت ؟ فعليك هذا
الواجب وعلى الغناء ..

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى :

ــ يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضا :

ــ وماله !.. أنا صوتى كالكروان .

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة
الا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس
عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت في تهجم :

ــ اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لايعيب بناته
أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة
لا فائدة منهن ولا نفع .

ــ لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا !

ــ طبعا !.. كنت تغنين وأرد عليك ، تقولين يابو الشريط
الأحمر يا اللى فأقول لك أسرتنى ارحم ذلى ، ونترك للست
« مشيرة الى أمها » الكنس والمسح والطبخ .

وكانت الأم ــ التى ألفت هذا النقار ــ قد اتخذت مجلسها
فقالت برجاء :

ــ أمسكا بالله وأجلسا لنأكل فطورنا بسلام ..

وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

ــ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد ..

فتمتمت الأم في هدوء :

ــ سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسى نفسك
.. « ثم مدت يدها الى الطبق » .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

كانت خديجة في العشرين من عمرها ، فهى كبرى أخوتها

فيما عدا ياسين ـ اخاها من الأب ـ الذى ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت قوية ممتلئة ـ والفضل لأم حنفى ـ مع ميل الى القصر ، أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيــه الانسجام ، ورثت عن أمهــا عينيها الصغيرتين الجميلتين ، وعن أبيها أنفه العظيم ، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذى يغتفر له ، ومهما يكن من شأن هذا الأنف في وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظا فقد لعب في وجه الفتاة دورا مختلفا .

أما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بديع الحسن ، رشيقة القد والقوام ـ وان عد هذا في محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى ـ ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير ، الى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها . وطبيعى لم تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتهــا الفائقة في التــدبير المنزلى والتطريز ولا نشــاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها في كثير من الأحايين . ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء في النفس ، وكفاها أن تروح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته . وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أما بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الأسرة التى لا تعفى أفرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها الا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد أو البغضاء ، بيد أن دأبها على السخرية ـ الذى اقتصر في الأسرة على الدعابة ـ خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى ، لا تقع عيناها من الناس الا على مناقصهم

كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب أبدا ، واذا توارت المناقص تمحلت في الكشف عنها وتكبيرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها اوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرتها ، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش » لتناثر ريقها اثناء الحديث ، وهذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا أســيادى » لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه ، واللبان «الأعور» لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشيء خصت بها أسرتها ، فأمها « المؤذن » لتبكيرها في الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصــة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبة كشر » لسمنته وأناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق انها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجافى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة في البيت في معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من احد سواها ، بل في معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة باعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسىء الظن بأحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسىء الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها : « من أين تجيئها هذه السمنة المفرطة ؟!.. من الوصفات التى تصنعها ؟! كلنا

نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام » .

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح ابنتها قالت : « فلتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال » ، ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها اكراما لستها الطيبة .

وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ؛ فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحمته .

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال في الأسرة . وكان للطعام بينهن — الى فائدته الغذائية — غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكن يتناولنه في تؤدة واهتمام ، ويبالغن في سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعا لطاقاتهن ، فكانت الأم أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى أطباق مغسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيىء هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا أنت ، تتظاهرين بالصوم ، وتندسين في حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » .

وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يخلين فيها الى

أنفسهن ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة في الأمور التى يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في الأكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل اختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير .

— نينة .. حلمت حلما غريبا ..

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة في اكرام ابنتها المخيفة :

— خير يا بنتى أن شاء الله ..

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

— رأيت كأنى أمشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا أو غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعنى فأهوى صارخة ..

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم :

— اللهم اجعله خيرا ..

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

— لم أكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك .. أليس كذلك!

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

— انه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك « ثم مخاطبة أمها » .. هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ، حملنى وطار ..

وتنهدت أمينة في ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

— من يدرى يا خديجة ؟ .. لعله العريس .. !

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا في هذه الجلسة ، وفي ايجاز بالاشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما

اكربه أمر الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا عميقا ، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها — ولو من نفسها — فقالت :

— أتظنين الجواد عريسا ؟ .. لن يكون عريسى الا حمارا ..

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

— لشد ماتظلمين نفسك يا خديجة ! .. ما فيك من شىء يعاب ..

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول :

— أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك في مهارتك أو نشاطك ؟ .. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدين أكثر من هذا ؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

— الا يسد هذا طريق الأزواج ؟

فقالت الأم مبتسمة :

— كلام فارغ .. ما زلت صغيرة يا بنية ..

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى سن الزواج ، وخاطبت أمها قائلة :

— لقد تزوجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة .

فقالت الأم التى لم تكن في الحق دون ابنتها قلقا :

— لا يتقدم أمر أو يتأخر الا باذن الله ..

وقالت عائشة في صدق :

— ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت احدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتساءلت :

— أتودين حقا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل فتتزوجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة !...

— الاثنين معا ...

— ٦ —

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :

— عليك يا عائشة الغسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف البيت . ثم تلحقان بى في حجرة الفرن ..

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع أنهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة بلا مناقشة ، الا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :

— أنزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسيل ، أما التمحك بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهى العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدما ..

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهى تدندن فقالت خديجة متهكمة :

— يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن في نفير الفونوغراف فغنى وسمعى الجيران ..

وغادرت الأم الحجرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقته الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة في غير الأوقات التى يوجد فيها الأب في

البيت ، أو التى يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة . وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة ، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها ازاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها ، اما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه ، ربما تمنته دون أن تقدرعليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف ، وكأنها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب ، تاركة للأب ــ أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد ــ تقويم المعوج والزام كل حدوده . لهذا لم يضعف النقار السخيف من اعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما ، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه ، فهى تأبى الا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت . واذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فاذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوفة لم تترك صاحبها دون أن تتلطف فى تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذى يناهز العاشرة الى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعى الا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل ما فيها ، الى ما تجده من فرحة اللهو والمرح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل

انضمامها اليه ، خلقته بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها ، وهذه الأكواخ الخشبية يقوقىء الدجاج فى مسارحها من تركيبها ، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق اليها الدجاج وراء ديكها ، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ . وكم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها بأعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة مقوقئة ، فى مودة متبادلة ينز لها قلبها الحنون . أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا ، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها ، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان ، وأحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها بأرضه وسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حى عاقل . ثم لا تقتصر مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها ، واذا دعتها الظروف الى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق . ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر ، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنان واوسع به على عباده .
اما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ، بدات أول ما بدات بعدد قليل من أصص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة

السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة ، فاستدعت نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ، ثم انشبت سيقانهما في السقيفة وحول قوائمها ، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع في أرجائها عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه المعروش ، هو دنياها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته ، وسقت زرعه ، وأطعمت الدجاج والحمام ، ثم تملت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين ، ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود .

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق ، تارة عن قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر ، وثالثة من أفق سحيق فتتراءى أطيافا كمآذن القلعة والرفاعي وتقلب وجهها فيها بولاء وافتتان ، وحب وايمان ، وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، أحبها ــ لحب صاحبها ــ الى نفسها ، فتنفض نظرتها حنانا واشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من مثواه . وتنهدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تتسلى بالنظر الى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق ، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الأحياء المتاخمة التى

تترامى اليها أصواتها . ترى ما هذه الدنيا التى لم تر منها الا المآذن والأسطح القريبة ؟! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت لا تفارقه الا مرات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفش ، وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حانطور لأنه كان لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته ، لم تكن ساخطة ولا متذمرة ، انها أبعد ما تكون عن هذا . بيد أنها ماتكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب الى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام . ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى في هذه اللحظة؟. وأين مدرسة خليل أغا التى يؤكد كما أنها على مسير دقيقة من الحسين ؟.. وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة : « اللهم أسألك الرعاية لسيدى وأبنائى ، وأمى ويس ، والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمى الذى لا يحبهم .. »

— ٧ —

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذى يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهيأه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى في الخمسين من عمره ، أنفق منها ثلاثين عاما في هذا الدكان ، وكيلا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة أبيه ، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كما يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين أهله ، أما بين سائر الناس من أصدقاء

ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء . ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته ، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والأرز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه ، والى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية . وفي منتصف الجدار فوق المكتب علق اطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى . فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات في صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتبه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع راسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يمد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التى تكاد تترنح من كبرها وثقلها ، والباعة المغنون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به ، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم — على حد تعبيرهم — على دعابة من

دعاباته أو نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة ، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها ، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم — مخالطة الند للند — حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتازون من حب واحترام وتكريم ، ولما قال له أحدهم مرة في صدق واخلاص : « لو أتيح لك ياسيد احمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال» نفخ قوله في خيلائه الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا . وتزايدت حركة العمل بالدكان ، ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ، ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع انه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار الا انه أجهده في معاينته بلا طائل ، ثم هتف متسائلا :

— السيد احمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسما :

— أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل ، حلت البركة ..

وعطف الرجل راسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة ، واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه ، وجلس على الكرسى الذى قدمه السيد له ، وبدا الشيخ

في صحة يحسد عليها على سنه التى جاوزت الخامسة والسبعين، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد ما يشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناصلة وان أمكنه ان يستبدل بها خيرا منها بما يجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لأنه — فيما يقول — رأى الحسين في منامه وهو يباركه فبث فيها خيرا لا يبلى ، وكان الى كراماته في قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحجبة معروفا بالصراحة والظرف ، وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع أنه كان من سكان الحى الا انه لم يثقل على أحد من مريديه بالزيارات ، وربما توالت الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد اشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ، ثم قال للشيخ مرحبا :

— اوحشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

— أغيب كما يحلو لى ، وأحضر كما يحلو لى ، ولا أسأل عن السبب ..

فابتسم السيد الذى الف أسلوبه وتمتم قائلا :

— اذا غبت أنت فان بركتك لا تغيب ..

فلم يبد على الشيخ أنه تأثر لاطرائه ، وعلى العكس حرك راسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة :

— ألم انبه عليك أكثر من مرة بألا تفاتحنى بالحديث ، وان تلزم الصمت حتى أتكلم أنا ؟!

فقال السيد وبه رغبة في التحكك به :

— معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذرى أنى انسيته لطول غيابك .

فضرب الشيخ كفا بكف وهتف :

— عذر أقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت في مخالفتى امتنعت عن قبول هديتك !

فاطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة ، فتريث الشيخ متولى ليتأكد من دخوله طاعته ، وتنحنح ثم قال :

— أبدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

— عليه الصلاة والسلام .

— وأثنى على ابيك بما هو اهله ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ، كأنى به متخذا مجلسك هذا ، لا فارق بين الأب وابنه الا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

— فليغفر الله لنا ..

فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :

— وادعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمى وعائشة وكمال وامهم آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من أذنى السيد موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى اليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين ، وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات — ولو على لسان الشيخ متولى — حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين . بيد أنه غمغم قائلا :

— آمين يا رب العالمين ..

فتنهد الشيخ قائلا :

— ثم أسأل الله المنان أن يعيد الينا أفندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر ..

— نسأله وليس شيء عليه بكثير ..

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

— وأن يمنى الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .

— ربنا يأخذهم جميعا ..

فحرك الشيخ رأسه في أسى وقال بحسرة :

— كنت بالأمس سائرا في الموسكى فاعترض سبيلى جنديان أستراليان وطالبانى بما معى فما كان منى الا أن نفضت لهما جيوبى واخرجت الشيء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة ، وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به في وجهى .

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة في اظهار استيائه صائحا في استنكار :

— قاتلهم الله وأهلكهم ..

فأتم الرجل حديثه قائلا :

— رفعت يدى الى السماء وصحت : يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتى ..

— دعوة مستجابة باذن الله ..

ومال الشيخ الى الوراء وأغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس في وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد بصوت هادىء ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد ، قائلا :

— يالك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا ابن عبد الجواد ..

فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض :

— أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..

فبادره الشيخ قائلا :

— لا تتعجل ، ان مثلى لا يلقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد ..

فلاح الاهتمام والحذر في عينى السيد وتمتم قائلا :

— ربنا يلطف بنا ..

فأشار اليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :

— ماذا تقول ، وأنت المؤمن الورع ، في ولعك بالنساء ؟!

كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

— ما على من ذلك ، الا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟

فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :

— الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات ...

فمد السيد بصره للاشىء وقال بلهجة جدية :

— ما ارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أو كرامة قط ، والحمد لله على ذلك ..

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :

— عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟!

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

— أانت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟! كان أبى شبه مقيم فاكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينجب سواى الا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على

النفقات الشرعية في حياته ، اما انا فأب لثلاثة ذكور واثنيين ، وما يجوز لي أن أنزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنس يا شيخ متولى أن غواني اليوم هن جوارى الأمس واللاتي احلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم .

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة :

ـ ما أبرعكم يا بنى آدم في تحســين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثني وانت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما :

ـ اللهم استجب ..

فتفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :

ـ لولا مزاحك لكنت أكمل الناس ..

ـ الكمال لله وحده ..

فالتفت اليه وهو يشير بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم ساءله بلهجة المحقق الذى ضيق عليه الخناق :

ـ والخمر ؟.. ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

ـ اليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته؟!

فبادره السيد قائلا في حماس من يدفع بلاء محققا :

ـ لشد ما احرص على طاعة الله ومحبته !

ـ باللسان أم بالعمل ؟!

ومع أن الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتى أو التأمل الباطنى . شأنه في ذلك شأن الذين لايكادون يخلون الى أنفسهم، ففكره لايعمل حتى يبعثه الى العمل شيء خارجى ، رجل أو امرأة

أو سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صـــورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لايتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية او تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء ، ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية واخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان ايمانه عميقا ، أجل كان ايمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه واخلاصه اضفت عليه احساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى، او طقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز مايتميز به ايمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الايمان الخصب النقى اقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم الى الرى من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها ، يهش للمأكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير باحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته اياه الحياة ، وكأنما لاتعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه في السلام . أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟!.. أم كان اعتقاده في السماحة الالهية بحيث لايصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ،

وحتى في حال تحريمها فهي حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا احدا ؟! الأرجح انه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير او تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون ان يشق على نفسه بالتوفيق بينها . لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد ، وفي هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما أمام الله ولكن ، لانه لا يصدق ابدا انه متهم ، أو ان الله يغضبه حقا أن يلهو لهوا لا يصيب احدا بأذى ، اما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية اخرى . لذلك تجهم للسؤال الذى القاه الرجل عليه متحديا وهو «باللسان أم بالعمل» واجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

ـ باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة . بذكر الله قائما وقاعدا ، وما على بعد ذلك اذا روحت عن نفسى بشيء من اللهو الذى لا يؤذى احدا او يغفل فريضة ، وهل حرم محرم الا لهذا أو ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم :

ـ يا له من دفاع في سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال بأريحية :

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا أتصوره عز وجل غاضبا او متجهما ابدا ، حتى انتقامه رحمة خافية ، وانى اقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر أمثالها ..

ـ اما في حساب الحسنات فأنت رابح ..

فأشار السيد الى جميل الحمزاوى ليأتى بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فأخذها السيد وقدمها الى الشيخ وهو يقول ضاحكا :

ـ في صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ـ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سأله باسما :

ـ ألم تكن يوما من اهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

ـ سامحك الله ، انت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة احذرك من التمادى في الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد ..

فتساءل السيد دهشا :

ـ اتغرينى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ـ هديتى لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا ابن عبد الجواد والسلام عليكم ورحمة الله ..

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار . ولبث السيد مفكرا ، ومضى يدير في نفسه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى ما تقدم وماتأخر من ذنب ، اللهم انك أنت الغفور الرحيم » ..

- ٨ -

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل اغا يضطرب في تيار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السوداني والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم في أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التى سبق فيها الى الاشتباك في معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المرتين طوال العامين اللذين قضاهما في المدرسة ، لا لندرة خلافاته التى لم تكن نادرة في الواقع ، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره الى تجنبه أسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء في المدرسة ، يتعثرون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا كالكرة ، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها في فمه بغير استئذان مواصلا ماكان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة في العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لباها حتى دعاه اليها أحد أقرانه الصغار ، فوجد في الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة

المكبوتة واستردادا لثقته بقوته ونفسه . وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لمعناه فحذره ، ومنه ما جهله فردده في البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذى كان صديقا لأبيه . ولكن سوء الحظ وحده هو الذى قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالى للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين بالعصى في هالة من شر مستطير ، ولما اشار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وادرك ما يتربص به من خطر فتراجع هاربا الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط ، وعبثا حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها ، وأغلظوا له القول حتى اضطر الى استدعاء شرطى ليوصل الغلام الى داره ، وزار الضابط السيد في دكانه وأنبأه بما يتهدد ابنه من شر ناصحا اياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا الى بيت الفتوات مستشفعين له ، وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى الان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحد أبنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم نفحة من هداياه ، ونجا كمال من عصى الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصى .

غادر الغلام المدرسة ، ومع انه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسى فرحة في نفسه لا تعادلها فرحة في تلك الأيام الا أن نسائم الحرية التى نشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصداء الدرس الأخير الحبيب ــ درس الديانة ــ من قلبه . وقد

قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه اكثر من مرة سائلا عما اغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها احد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية أسوة باخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التى يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وان عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمه ـ كما اعتاد ان يفعل مذ كان في الكتاب ـ فيلقى اليها بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذى كان شيخا أزهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التى لم يسبق لها حفظها . وانتهى الى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملاليم التى احتفظ بها منذ الصباح، ثم تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به الا في مثل هذا الموقف اللذيذ ، مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها لا ليبيعها ، ثم واصل سيره في شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسى وقتذاك أنه كان سجينا النهار كله ، وانه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح ، وانه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرءوس ، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع ـ بسبب تفوقه الذى يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمي ـ لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه . ومر في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين

الى الاعلان الملون الذى يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « آبلة عائشة » لما بين الاثنتين من شبه يتمثل في الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين ، ومع أنه كان يناهز العاشرة الا أن اعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة في ابهج مظاهرها ، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر ريق متاح لها ـ لهما ـ أرضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح في الوادى الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف الى عينيها الحالمتين على أنه لم يكن جميلا كأخويه، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة ، فمثلها قد جمع في وجهه بين عينى امه الصغيرتين وانف ابيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثته خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما في الواقع ، وكان من سوء الحظ أن نبه الى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه احد الرفاق بأبى « رأسين » فاهاج غضبه واورطه في احدى المعركتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه الى أمه التى تكدرت لكدره وراحت تعزيه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وأن النبى عليه السلام كان كبير الرأس ، وانه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رائيا هذه المرة الى جامع الحسين الذى قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب . ومع أن المكانة التى نزلها الحسين من نفسه ـ تبعا لمنزلته من نفس أمه خاصة والأسرة

عامة كانت وليدة قرابته من النبى الا أن معرفته للنبى وسيرته
لم تكن شفيعا الى معرفته بالحسين وسيرته ، وما تهفو نفسه
دائما اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص
وأعمق الايمان . حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا
مشغوفا ومحبا مؤمنا وأسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل
من أن رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من
الأرض مسكنا الا في مصر فجاءها طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث
يقوم ضريحه . وكم وقف حيال الضريح حالما مفكرا ، يود لو ينفذ
ببصره الى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى أكدت له أمه
أنه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث
يضيء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سبيلا
قنع بمناجاته في وقفات طويلة ، مفصحا عن حبه ، شاكيا اليه
متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه
مستنجدا به على الامتحانات التى تلاحقه كل ثلاثة أشهر ، ثم
خاتما مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة في منامه . ومع
أن عادة مروره بالجامع صباحا ومساء خففت بعض الشيء من شدة
تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر
ذلك منه مرات في اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع
من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها
مع قلبه ، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه .
قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ،
ومنها اتجه الى بيت القاضى ، ولكنه بدلا من أن يمضى الى البيت
مخترقا النحاسين عبر الميدان الى درب قرمز على وحشته واثارته
لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه . كان يرتعد فرقا من أبيه
ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به
غاضبا . وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التى
يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ماتصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ،

فلو أنه أذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف
اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس
اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، في البيت أو في الطريق ، وظل
الرجل على جهل بأمره الا أن يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت
اذا ضاقوا بغلوه وافراطه . من ذلك أنه جاء يوما بسلم وارتقاه الى
عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك
الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ،
ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من
شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه ، وسرعان ما دعا به وأمره
أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذى ملأ
البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد اخوته في الصالة وهم
يغالبون ضحكهم الا خديجة التى حملته بين يديها هامسة في أذنه
« تستاهل .. كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك
زبلن ؟! » على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه
وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء . ولشد ما يعجب كلما ذكر
كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ،
وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بألوان
شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان ــ على فظاعته ــ
فملأ حجره بالشيكولاتة والملبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما
أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا ،
ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذه أداة لارهابه حتى
اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقا أن يلحقوا
ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذى شعر به نحو أبيه
فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم
القوى ، ومهابته التى تعنو لها الهام ، وأناقة ملبسه ، ومايعتقده
فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذى
هوله عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته

او اجلاله او ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب
الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بايحاء البيئة ،
بيد انه ظل جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب .
مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذى تتخذه العفاريت مسرحا
لألعابها الليلية ، والذى آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه ،
وعندما دخل في جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع
رن في الظلمة تحت السقف المنحنى ، وسبقته عيناه الى فوهة
القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد
السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت ، فالعفاريت
لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله ، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه
إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشطر الآخر
من الدرب ، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام
السلطان ، ثم لاحت لعينيه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم ،
والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما
يدخره له هذا المكان من أفانين المرح ، فعما قليل يهرع الغلمان
اليه من جميع البيوت المجاورة الى فناء الدار الواسع الذى يحوى
عدة حجرات تتوسطها الفرن فيكون لعب ولهو وبطاطة . وفي
تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة
الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبث
أن دس حقيبة كتبه تحت ابطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها
ثم وثب الى سلمها الخلفي ، ولكن الكمساري لم يتركه في سروره
طويلا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة
وتحد فقال له متوددا انه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه
النزول وهي سائرة ، فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به
أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغلام فرصة تحوله
عنه وشب على امشاط قدميه وصفعه ثم وثب الى الأرض وانطلق
هاربا وشتائم الكمساري تلاحقه أشد من الأحجار المطينة !! .

لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولكنه رأى
غلاما يفعلها في الصباح فراقت له ، ثم وجدها سانحة لاعادتها
بنفسه ففعل .

- ٩ -

واجتمعت الأسرة ـ ما عدا الأب ـ قبيل المغيب فيما يعرف
بينها بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار
حيث تحيط بها حجرات نوم الأخوة والاستقبال ورابعة صغيرة
أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى
أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد . وتدلى من سقفها
فانوس كبير يشعله مصباح غازى في مثل حجمه . وكانت الأم
تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة
القهوة حتى النصف في جمراتها التى يعلوها الرماد ، والى يمينها
خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ،
يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها
كياسين وفهمى او من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع
بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محببة الى النفوس
يستأنسون فيها الى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر .
وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة فى حب صاف ومودة
شاملة . وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع
ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين
على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين
يتحدث حينا ويقرأ في قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات
الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه
لمطالعة القصص والأشعار ـ لا لاحساسه بنقص تعلمه فالابتدائية

وقتذاك لم تكن مطلبا صغيرا — ولكن غراما بالتسلية وولعا بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا أن مظهره لم يتعارض — بحكم الزمن — مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلىء بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته — رغم حداثة سنه الذى لا يجاوز الواحدة والعشرين — على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى اليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقا تشتعل بخياله في مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر — كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة أن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أحرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التى تبيح له مفتاح العالم السحرى بعين الحسد والحزن، فكم حز في نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون أن يسعه حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مثارا لخياله هيأ له من ألوان المسرة ما هيأ ، وهيج من أسباب الظمأ وعذابه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينيه الى أخيه ويسأله في لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب قائلا : « لا تضيق على بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم أقص عليك اليوم فغدا » ، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا أن يتحول الى أمه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذلك » ولكن المرأة كانت تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين الا أنها يعز عليها أن ترده خائبا فتروى له ما تحفظ

من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت اليه أحد ، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرا خطيرا بغتة :

— ياله من منظر لا ينسى الذى رأيته اليوم وأنا عائد !.. رأيت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله في بطنه بكل قوته .

وقلب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالاصغاء اليه ، ولمح الى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتى ياسين الذى لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

— وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة ..

وأبعدت الأم الفنجان عن فمها وهتفت :

— يا ولداه !.. أتقول أنه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

— أجل مات ، ورأيت بعينى دمه وهو يسيل بغزارة ..

وحدجه فهمى بنظرة ساخرة كأنها تقول له « أنى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا في تهكم :

— قلت ان الكمسارى ركله في بطنه ؟.. فمن أين سال الدم ؟!

وانطفأت شعلة الظفر التى تلألأت في عينيه مذ جذب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :

ــ لما ركله في بطنه سقط على وجهه فشج رأسه !

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :

ــ أو ان الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى جرح ظاهرى ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب ــ كالعادة ــ فلا تخف ..

واحتج كمال على تكذيب اخيه وراح يحلف بأغلظ الأيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع في صيحة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

ــ ما اكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حيا ..!

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على اخبارك هذه ؟!

ووجد في خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :

ــ اقول له ان الحق على منخور اختى ..!

فقالت الفتاة وهي تضحك :

ــ من بعض ما عندكم ، ألسنا في البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

ــ صدقت يا أختاه ..

وتحولت اليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :

ــ هل اغضبتك !.. لماذا !.. ليس الا أننى جاهرت بالموافقة على رأيك ..

فقالت له حانقة :

ــ اذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه متظاهرا بالحيرة ثم تمتم :

ــ والله ان اكبر عيب ليهون الى جانب هذا الأنف ..

وتظاهر فهمى بالاستنكار ثم تساءل في نبرات وشت بانضمامه الى المهاجمين :

ــ ماذا قلت يا اخي ، أهو أنف ام جريمة ؟

ولما كان فهمى لا يشترك في مثل هذا النضال الا نادرا فقد رحب ياسين بقوله في حماس وقال :

ــ هي الاثنان معا ، فكر في المسئولية الجنائية التى سيتحملها من يقدم هذه العروس الى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الأم الى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت أن ترجع الحديث الى أصله وقالت بهدوء :

ــ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثنا عن السيد كمال أصدق في أخباره أم لم يصدق ، ولكن اظن أنه لا داعي الى الشك في صدقه بعد أن حلف .. أجل كمال لا يحلف كذبا أبدا ..

وباخ سرور الغلام الانتقامي لتوه ، ومع أن اخوته واصلوا المزاح حينا آخر الا انه انقطع عنهم بروحه ، متبادلا مع أمه نظرة ذات معنى ، ثم خاليا بنفسه متفكرا في قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولهه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه في مأزق حرج ــ كما وجد اليوم ــ لا مخرج منه في نظره الا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدرى الى التورط فيه . بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، من الهم والقلق ، ويود لو يقتلع الماضي السيء من جذوره ، وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله في ضراعة أن

يعفو عن زلته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على حبيب بإساءة لا تغتفر . وغرق في توسلاته مليا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح أذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعي انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضي الأسرة البعيد أو القريب ، وأنباء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين امام أبيهما الجبار ، تنبرى خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه السمحة العفوة . وانتبه أخيرا الى فهمي وهو يقول مخاطبا ياسين :

ـ ان هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمني مثله أن ينتصر الألمان وبالتالي الترك وأن تسترد الخلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن امنية من هذه الأماني لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

ـ مضى اربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..

فقال فهمي برجاء واشفاق :

ـ لكل حرب نهاية ، ولا بد أن تنتهي هذه الحرب ، ولا أظن الألمان ينهزمون !..

ـ هـذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولـكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الانجليز ؟!

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

ـ المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعود الخلافة الى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهدا .!

وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة :

ـ ولماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي قنابله علينا ..!

وراح فهمي يؤكد ـ كعادته ـ أن الألمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين في جلسته ونهض الى حجرته ليرتدي ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ وأخذ زينته ، فتراءى انيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته في انطلاق ساحر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد يحاسب ـ منذ تعيينه كاتبا بمدرسة النحاسين ـ على ذهابه أو ايابه ، وأنه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكم يكون الانسان سعيدا لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة ـ حين تتم له أداتها ـ على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :

ـ أيمكنني اذا وظفت أن أسهر في الخارج كياسين ؟

وابتسمت الأم قائلة :

ـ ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصح أن تحلم بها من الآن !

فصاح محتجا :

ـ ولكن أبي يسهر ، وياسين يسهر كذلك .

فرفعت الأم حاجبيها ارتباكا وتمتمت :

ـ شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا ، ووقتها يفرجها ربنا !

ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :

ـ ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟

وصاحت خديجة في سخرية :

ـ تتوظف دون الرابعة عشرة !.. وماذا تصنع اذا بلت على نفسك في الوظيفة ؟!

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدراء :

ـ يا لك من حمار .. لماذا لا تفكر في دخول الحقوق مثلي ؟.. ان ظروف ياسين القاهرة هي التي جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره ، ولولاها لأتم تعليمه .. الا تدرى حتى كيف تتمنى يا كسول !

ـ ١٠ ـ

عندما صعد فهمى وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء ، فلاحت قرصا أبيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين في ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور ، سطح الجيران. وكان فهمى يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء الطلق على الرغم من أن جو نوفمبر أخذ يميل الى البرودة خاصة في هذه الساعة من اليوم ، ولوقف الغلام بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ـ شابة في العشرين أو نحو ذلك ـ وقد انهمكت في جميع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة ، ومع

أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا أنها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه الى مجيء الطارئين . أمل كان يجيء به دواما في مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها ، ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة مفاجئة ، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر ، وهى تتراءى تارة وتحتجب أخرى ، أو يبدو بعضها ويغيب بعضها ، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة .. كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء العينين ، تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا أن جمالها وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه ـ وانيا حين حضورها ثم قويا اذا خلا الى نفسه ـ لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذي ينبغى أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه ، أو كأنها فتاة لا تبالى التعرض للرجال ، وطالما ساءل نفسه ما بالها لا تفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت احداهما نفسها في مثل موقفها ! أى روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعيه والآداب المقدسة ؟ ، والا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذلك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها ؟!.. بيد أنه دأب على انتحال الأعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد أيضا .. ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى . ولما لم يكن جريئا كجرأتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه أن يجرح شاب في الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم في طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائما شعوره بخطورة فعلته ؟ وخوفه من أن يترامى نبأها الى أبيه فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر

شيء منها على افساد نشوته أو انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهي تبدو أو تختفي حتى خلا مابينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كأنها تتعمد اطالة عملها وحدس قلبه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمني ولكنه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته الى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصا وانغاما ، ومع أنها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتوردوجنتيها وتحاميها النظر اليه نمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على احساسها . وبدت في هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هي هي التي تشيع الفرح والبهجة في بيته اذا زارت شقيقتيه ، أو ليست هي هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقه طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز انغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملابسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيس يجذب اليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى ، وربما لحظ بعضا منها وهو يعبر الصالة ، وربما التقت عيناهما في لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملأ بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من انها كانت نظرات مسترقة خاطفة الا انها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق ، كأنها انبثاق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتخطف الأبصار ، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل ـ كحاله أبدا ـ من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الربيع ، لأنه لم يكن يكف عن التفكير في الأربعة الأعوام التي يتم تعليمه فيها ، والتي لا يدري كم من يد قد تمتد في أثنائها الى الثمرة

الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذي تشد على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس الى سلام قلبه أقصر السبل ، ولكنه خاف دائما أن ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها . وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أي أفكار تدور برأسها ؟. الا يشغله حقا الا ما تجمع من قطع الملابس ؟.. ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟ .. وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟.. وتخيل نفسه متخطيا سور السطوح الى مكانها في الظلام ، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار ، ثم تصور مايكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام ، وكان أدرى الناس ـ بما جبل عليه من دين وآداب ـ ببطلانها ومحالها. وبدا الموقف صامتا الا انه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان، وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذي يثير استطلاعه على غير جدوى ، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلا :

ـ لقد حفظت الكلمات . الا تسمعها لي ؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأي سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

ـ قلب .. ؟

وأجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس اثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ـ حب ....؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :

— ليست هذه الكلمة في الكراسة ..
قال فهمى باسما :
— ولكنى ذكرتها لك مرارا ، وكان يجب أن تحفظها ..!
وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن اخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :
— زواج ..
وخيل اليه عند ذاك أنه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة ، وملأه شعور بالظفر لأنه أمكنه اخيرا أن ينقل اليها شحنة من الكهرباء التى تستعر في صدره ، بيد أنه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، الأنها استنكرت سابقتها أم ان الأخيرة كانت أول ما وعت اذناها ؟!..
وما يدرى الا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكر :
— هذه الكلمات صعبة جدا ..
وآمن قلبه بقولة اخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موضعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت ان تتصدى له وجها لوجه ، فبدت في هجومها جريئة لحد أخافه واربكه ، وان عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حيوية وافراحا . ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت أن رفعت السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة في الانفراد لتملى ما استجد من تجارب الهوى فقلب عينيه

في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه الى الظلمة الزاحفة في الأفق لأول مرة ، وتمتم قائلا :
— آن لنا أن نعود ..

— ١١ —

وكان كمال يستذكر دروسه في الصالة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمى وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه واختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا انه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذى يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة في حين تربع كمال على كنبة أخرى قبالتهم فاتحا كتابه في حجره يقرأ فيه حينا ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينا آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمى يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذى يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التى تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه واختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور في هذه الدنيا كحظ النساء الا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته في احايين كثيرة الى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفي صوته رنة التحدى « من منكن تعرف

عاصمة الكاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالإنجليزية ؟ » فيجد من
عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به
قائلة « ليس لهذه الطلاسم الا من كان له رأس كرأسك ! » أما أمه
فتقول له في ايمان ساذج « لو علمتنى هذه الأشياء كما تعلمنى
الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك ان أمه – على استكانتها
ورقتها – كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن
أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن انها بحاجة الى مزيد من
العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف الى ما لديها
من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بها أنها تلقته
عن أبيها أو في بيته الذى نشأت فيه ، وكان الأب شيخا من العلماء
الذين فضلهم الله – لحفظهم القرآن – على العالمين ، فلم يكن معقولا
أن تعدل بعلمه علما ولو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة . ولهذا
كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت
ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السماح بتلقينه للناشئين .
بيد أنها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال الغلام في المدرسة عن
أمور الدين وبين مالديها منها ، ولما كان الدرس المدرسى لا يكاد
يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبين المبادىء الدينية الأولية
فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها
عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين
وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبى والصحابة والأولياء ،
وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها
الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة
في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية
أخرى . وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما
تكشف في تبسطه في الحديث أحيانا – لتختلف عن عقلية أمه
كثيرا أو قليلا ، ثم انه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله في
الدروس الجافة فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها

بالمتعة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت
أسبابه ، من ذلك أنهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هى تدور حول
نفسها في الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الغلام
اصرارا تراجعت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة
فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذى يحمل الأرض وهل ما زال
على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة
التى تحبها فقال لها ان الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت
المرأة قانعة بهذا الجواب الذى سرها وان لم يمح من مخيلتها ذاك
الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة
منه في الفخر بعلمه أو حبا في النزاع الفكرى ، كان في الحق يحب
بكل قلبه ألا يفارقهن ولو في وقت عمله ، وكان يجد لمرآهن سرورا
لا يعادله سرور . فهذه الأم يحبها أكثر من أى شىء في الدنيا ولا
يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهى
تلعب في حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ،
وهذه عائشة التى وان لم تتحمس يوما لخدمة انسان الا انها أحبته
حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من
القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها
المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت
الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا الى حجرة
نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم
تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنبة المقابلة له
وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

– استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..

فاستوت المرأة في جلستها وهى تقول باحترام واجلال :

– كلام ربنا عظيم كله ..

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده الا حين
هذا الدرس الأخير من اليوم . أجل كان يجد في هذا الدرس الدينى

اكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم فيأثناء نصفه علىالأقل بدور المدرس ، ويحاول ما استطاع أن يستعيد مايعلق بذاكرتهمنهيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة، وانه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقيه عليه أمه من ذكريات وأساطير ، وانه يستأثر وحده فيشطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى انه استمع نفر منالجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » حتىأتم السورة ولاح فيعينيالأم التردد والحيرة ، اذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة في الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو احد الاسمين الخطيرين فيسورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها او ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارجالاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أنتفصح اخيرا عن اشفاقها في لون من الوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

ـ ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما ابقوا علينا طوال هذا العمر .

فقالت المراة في شيء من الضيق :

ـ لعلهم .. ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا الا نردد اسماءهم ..!

ـ لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرسنا ..

فحدجته المراة بنظرة عتاب وقالت :

ـ المدرس لا يعرف كل شيء !

ـ وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا منأن تقول:

ـ كلام ربنا بركة كله .

واقتنعكمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عنالتفسير قائلا:

ـ ويقول شيخنا أيضا أن أجسامهم من نار !

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات ، اما كمال فاستطرد قائلا :

ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة اخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة قائلا ان الله قادر على كل شيء ..

ـ جلت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

ـ واذا التقينا بهم في الجنة الا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المراة وقالت في ثقة وايمان :

ـ ليس فيها أذى أو خوف ..

وسرح الغلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجاة :

ـ أنرى الله في الآخرة بأعيننا ؟

قالت المراة بنفس الثقة والايمان :

ـ هذا حق لا ريب فيه ..

فلاحت في نظرته الحالمة اشــواق كما تلوح في الغلس بتأثير الضياء ، وساءل نفسه متى يرى الله ، وفي اى صورة يتبدى ، واذا به يسأل امه مغيرا مجرى الحديث فجاة مرة اخرى :

ـ أيخاف أبى الله ؟!

فتولتها الدهشة وقالت في انكار :

ـ يا له من سؤال غريب !.. أبوك رجل مؤمن يا بنى ، والمؤمن يخاف ربه ..

فهز راسه في حيرة وقال بصوت خفيض :

ـ لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..

فهتفت المرأة في عتاب :

ـ سامحك الله .. سامحك الله ..

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب الى حجرة النوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشه الصغير ، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير . وكانت تلقى دائما صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم يفز باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من ان يطلب اليها أن تتلو على رأسه ـ اذا ختمت آية الكرسى ـ سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يتراءى له به من احلام مزعجة لا تدفعها الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى في تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد في تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التى هضمت أفظع الهضم يوم فصل عن امه ظلما وعدوانا وجىء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهى تسكب في اذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن

يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهما ، وتطلع اليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب الا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة «الآن صرت رجلا فمن حقك ان يفرد لك فراش خاص» ، من قال انه يسره ان يكون رجلا أو أنه يطمح الى ان يفرد له فراش خاص !؟ ومع أنه بلل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع انه أنذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لأنه كان يعلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة أبيه التى لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن في احلامه ، ولشد ما حنق على امه ـ لا لأنه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب ـ ولكن لأنها كانت آخر من يتصور ان يخيب عنده الأمل ، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودأبت على الا تفارقه بادىء الأمر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألست ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذى كان يفرق بيننا ونحن في فراش واحد » . والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنام الى حياته الجديدة ، بيد أنه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها الى جانبه أطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها وراحت هى تتلو الآيات على راسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه في جانبها الأيمن وتساءلت في رقة : « نمتما ؟ » فجاءها صوت خديجة وهى تقول :

ـ كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة !

ثم سمع صوت عائشة وهى تقول في نبرات غاضبة :

— ما سمع احد لى شخيرا قط ، ولكنها لا تدعنى أنام بثرثرتها المتواصلة ..

فقالت الأم في عتاب :

— أين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !

وردت الباب وسارت الى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحته وأدخلت رأسها وهى تقول باسمة :

— أفي حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة ، فردت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد وصوتها يسبقها تاليا الآيات ..

— ١٢ —

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا — كعادته دائما اذا مشى في الطريق — وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار أن يسير متمهلا في هوادة ورفق ، مختالا في عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة ، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها — وأكثر — من العناية الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا أو شتاء ، وطربوش طويل مائل يمنة حتى يكاد يمس حاجبه ، ومن عادته أيضا اذا سار أنه كان يرفع عينيه — دون رأسه — مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر في نهايته بما يشبه

الدوار من كثرة تحريك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتى يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه أردافهن مدبرات ، ويظل في قلقه كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده ، الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من اخذه مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالاغضاء والتسامح . كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها ، وشعر دائما بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيفا حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعينى أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في اجلال رافعا يده الى رأسه في أدب ، فرد الرجل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال . والحق أن عنف أبيه المعهود ، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى في سلك موظفى الدولة الا انه لم يزل في نظره نوعا من العنف الملطف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وان الآخر الأب ، وما فتىء يتضاءل بمحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما ان ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ

كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن . فبائعات الدوم والبرتقال – على سبيل المثال – وان شابهن الأرض التى يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كشدين ناهدين أو عينين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟!.. ثم اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطف بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة – مجلسه المختار منذ أسابيع – وطلب الشاى . جلس بحيث يوجه بصره في يسر ودون اثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة « العالمة » ولم تكن « العالمة » مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر وأناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة « العالمة » ونجمة تختها اللامعة . وكانت فترة توظفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجبارى عاناه محاذرا في ظل أبيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر في مهاوى الأزبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر في الميدان الاستراليون فاضطر الى التخلى عن مغانى العبث فرارا من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب في ازقة حيه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقرأن الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة ، بيد أنها كانت الى هذا ذات حسن فهوسته ، وليس الحب لديه الا تلك

الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من الوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسياه نفسه فحسا الشاى الساخن دون أن يتنبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السمار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن لسعته أو أنها السبب في عدم ظهور زنوبة بالنافذة .. « ترى أين الملعونة ؟ .. أتتعمد الاختفاء !.. من المحقق أنها تعلم بوجودى هنا .. ولعلها رأتنى قادما .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين في أحاديثهم التى لا تنتهى ، فداخله ارتياح وارجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته في المدرسة اذ شك الناظر في أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر في أن يشكو الناظر الى أبيه – وهما صديقان قديمان – لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر .. « اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. حسبى الآن ما ألاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة » واذا بأحلام عارية تنثال على خياله ، أحلام كثيرا ما تمثل على مسرح أوهامه وهو يرنو الى امرأة أو يستعيد ذكراها ، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد اغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو ، ثم تمضى في فنون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حماره «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة . وتساءل ترى أجاءت

العربة لتحمل أفراد التخت الى فرح من الأفراح ؟.. ونادى صبى
القهوة ودفع اليه الحساب متأهبا لمغادرة المكان في أية لحظة اذا دعا
داع . ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت
امرأة من نسوة التخت وهى تجر رجلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفا
وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة
وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، وأعانه الحوذى من ناحية
أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدمة العربة .
وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثالثة متأبطة صرة ،
وقد تبدين في ملاءاتهن اللف سافرات ، كاسيات ــ بدلا من البراقع
ــ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه .
ثم ما هذا !.. رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من
الباب في جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسرت طرف
ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزى ذى أهداب منمنمة ،
لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة .
واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت
قدما الى أعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح
ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب
خلال أهداب فستان برتقالى .. « آه لو تغوص بى الأريكة في
الأرض مترا .. رباه .. ان وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون
أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك !..
وكيف يكون البطن !.. البطن ياهوه .. » وثبتت زنوبة راحتيها
على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة
العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أربع .. « يالطيف .. يالطيف
.. آه لو كنت على باب البيت .. او حتى في دكان محمد الطرابيشى
. انظر الى ابن الكلب كيف يحملق في الطابية بعينيه .. ما أجدر
أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يالطيف .. يامنقذ .. »
وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ،

وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات
متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة
محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت ــ خاصة ــ
عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور
ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم
الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت
فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على أسنانه من شدة الانفعال .
وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة
على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه في
وسادة العوادة ، يذهب معها ويجىء حتى خالها بعد حين ترقص
وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من
الدكاكين تغلق أبوابها ، على أن غالبية المارة كانت من جمهور العاملين
العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة
والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام في أمن ودعة ..
« اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية ، ولا لهذه الحركة الراقصة
من ختام .. يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف
يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدتها معا بالنظر المجرد ..
وهذا الفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده ..
وما خفى كان أعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس
ركعتين قبل أن يبنى بعروسه .. أليست هذه قبة ؟ .. بلى
وتحت القبة شيخ .. وانى لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ..
يا هوه .. يا عدوى ..» وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولى
فالتفتت زنوبة وراءها ورأته . ثم خيل اليه ، وهى تعيد رأسها ،
أنه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه في عنف وسرت في
وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم
مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها
لأنه رأى عن كثب معالم زينات وأنوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا

وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على
الأرض ، وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت
العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد . وتنهد تنهدة
حامية ، ولفته حيرة حانقة فبدا قلقا كأنه لا يدرى أى وجهة
يقصد .. « لعنة الله على الاستراليين ! .. أين أنت يا أزبكية
لأبثك همى وأشجانى وأتزود منك بشىء من الصبر » .. ثم دار
على عقبيه وهو يتمتم «الى العزاء الباقى .. الى كستاكى» ، وما
كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى رأسه حنينا الى حميا
الشراب .. كانت المرأة والخمر في حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى
مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة ، ثم صارت بحكم العادة من
مقومات لذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما ــ المرأة والخمر ــ أن
يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء ، فلم يجد بدا من
أن يخفف لوعته بالشراب ، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات
وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه ،
وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة ــ حانوت كبير
ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ــ ووقف عند
مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون أبوه هنا أو
هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم
خطوة حتى لمح في طريقه رجلا واقفا أمام الميزان والخواجة كوستاكى
نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان
ما اكفهر وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا
واشمئزازا . لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف
العدائية ، كان في الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابه فضفاضا وعمامة،
وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره
مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة
بشىء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

- ١٣ -

ارتمى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر
القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت
على نفاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة أشبه ، تدلى من سقفها
فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسى خيزران
جلس اليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان
تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل . من عجيب أنه
لم ينس الرجل ، وأنه عرفه من النظرة الأولى ، متى رآه آخر
مرة ؟.. لا يستطيع أن يجزم ، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه
عيناه في مدى اثنتى عشرة سنة الا مرتين احداهما التى زلزلته
الآن . وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغدا شيخا هادئا
وقورا !.. الا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به في سبيله.
والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجرى في
ريقه . يا له من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء
والعناد حتى ترده اليه ذكرى من الذكريات المعتمة أو مصادفة
لعينة كالتى حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا .. ضائعا . وعلى
رغمه حملقت عيناه في الماضى البغيض ، بقوة الهياج المثار في رأسه
وقلبه ، فانشق الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشته كرموز للعذاب
والكراهية ، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قعر
الشوق ، وطالعته صورة غامضة المعالم ، هى صورته وهو صبى .
فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله
ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله
مسرورا وعاد به الى المرأة التى بعثته وانتظرت . الى أمه دون

غيرها وا اسماه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعا ترى أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ . . أكان يذكر فيه الصبي الصغير الذى عرفه قديما ابنا لتلك المرأة ؟ . . وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارغ وتضاءل في حسه حتى استحال لا شيء . وجيء عند ذاك بالدورق والقدح فصب ونهل في نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضي وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق . أيهما يلعن : الحظ الذى جعلها أمه أم جمالها الذى شغف كثيرين حبا وأحاطه بالكوارث ؟!. . والحق انه لم يكن بوسعه أن يغير أمرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا أن يذعن للقضاء الذى هرس عزة نفسه ، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجاني الأثيم ؟!. . ولم يدر لم استحق اللعنة ، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدليلا سابغا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدماثة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربيته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلي أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء . في ذاك البيت أحب أمه حبا لامزيد عليه وفيه شاعت في قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الأولى لنفور غريب ـ نفور ابن من أمه ـ التى قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما كان في وسع الارادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا ـ

مهما أوتينا من ارادة ـ الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب . والآن يتساءل ـ كما تساءل من قبل كثيرا ـ متى فطن الى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد في حياته ؟!. . بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين ، وما يذكر الا أنه في فترة ما من طفولته دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لآخر ، ولعله ـ ياسين ـ كان يتطلع اليه بغرابة وشيء من الخوف ، ولعل الآخر بذل ما في وسعه لايناسه وارضائه ، انه يحملق في الماضي على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضي دمل يود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسه من آن لآخر . ثم ان هنالك أمورا لا يمكن أن تنسى . . ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . في ذاك المكان يذكر أنه اطلع فجأة ـ في ظروف قرضها النسيان ـ على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيا حتى أقبلت المرأة عليه في اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره . وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما ، ثم صب من الدورق في القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرا وأخرج منديله وأنشأ يدلكها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته ، . . ولكن أى طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى مرآة الماضي البغيض . لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ وطاب من ألوان الفاكهة ، ثم كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة اذا استصحبته أمه معها في

مشوار ، وبسذاجة الاطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه في عنف بعيدا عنه وتمنعه من الايماء اليه حتى تعلم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص في نظره ابهاما وغموضا ، ثم حذرته من أن يعود الى ذكره أمام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت ـ أمه اذا غاب الرجل عن البيت أياما يكون مبعوثا ـ اليه ليدعوه الى أن يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملأ له قرطاسا من التفاح والموز . ويحمله موافقته أو اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال أنه كان اذا اشتاق الى لذيذ الفاكهة استأذن أمه في أن يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ في قهر ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا في دمه ، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه .. « قلت ألف مرة انه يجب أن ادع الماضي مدفونا في قبره .. لا فائدة .. لا أم لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيبة .. كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها .. ترى لم أجاري الحاحها على فأبعثها من قبرها حينا بعد حين !.. لم ؟!.. سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما .. اود أن يموت كثيرون .. لم يكن الرجل الوحيد .. بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها ـ هذه البقية ـ تمتاز بما يضيئها من نور نسبي بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله الى حضانة أبيه ، وقد وجدت أمه الشجاعة لتصارحه بأن ذاك « الفكهاني » يتردد عليها طالبا ليدها ، وأنها مترددة في قبوله ، وانها غالبا سترفض اكراما له !. ترى أصدق ما قيل له ؟.. هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته ،

ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعاني نوعا من الريبة الغامضة التي تتكشف للقلب دون العقل ، ويكابد ألوانا من القلق أطار عن هامته حمامة السلام ، فتهيأت في نفسه تربة لتلقي بذرة النفور التي صارت مع الأيام الى ما صارت اليه . ثم انتقل في التاسعة من عمره الى حضانة أبيه الذي لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذي غلته به امه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة خائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح في الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية في بيت أمه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبرته الجديدة أنوارا فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحا مسموما منغرسا في صميم نفسه وكرامته . وقد دأب أبوه بادىء الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استثارة اهتمام أبيه وحب الثرثرة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان ، ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن « الفكهاني » الذي زعمت يوما أنها رفضت الزواج منه اكراما له !.. وانقطعت صلته بها منذ ذاك العهد ـ منذ احدى عشرة سنة ـ فلم يعد يدري عنها شيئا الا ما ينقله اليه ابوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش في العام التالي لطلاقها ، ثم طلاقها مرة أخرى بعد حوالي عامين الخ .. الخ .. وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى أبيه من يستأذنه في السماح له بالذهاب

اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها بإباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها .. « امرأة . أجل ما هى الا امرأة .. وكل امرأة لعنة قذرة .. لا تدرى امرأة ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا .. حتى امرأة أبى الطيبة ، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن ان تكون لولا ابى ! » وقطع عليه افكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه .. الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر .. اما الخمر فكلها فوائد .. » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقال الرجل مستنكرا « وما فوائدها ! ما أعجب سؤالك ! .. كلها فوائد كما قلت .. وأنت تعلم هذا وتؤمن به .. » فقال صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به .. الناس جميعا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد !» فعاد صاحبه يقول بابهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! ، زك .. حج .. أطعم المساكين .. أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر امثالها .. »

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح ، أجل امكنه اخيرا ان يبتسم في شيء من الارتياح .. « لتذهب الى الجحيم ، ولتأخذ الماضى معها .. لست عن شيء مسئولا .. كل انسان ملوث في هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبا .. شيء واحد يهمنى جدا هو عقارها . دكان الحمزاوى وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق .. وانى أعد أمام الله اذا ورثته كاملا يوما ان اترحم عليها بلا اسف .. آه .. زنوبة .. كدت انساك وما انسانيك الا

الشيطان . امرأة عذبتنى وامرأة التمس عندها العزاء .. آه يا زنوبة ، ما علمت قبل اليوم أن باطنك بهذا اللون الرائق .. آف ينبغي أن أمحو الفكر من رأسى .. الحق أن أمى كالضرس التالف ، لا يسكن حتى ينخلع .. »

- ١٤ -

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره ، ويرنو الى لا شيء بوجه تنم معالمه عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يبليه التكرار ، وقد واتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة انس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعي وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا ـ فيما قالوا ـ انهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون في منادمته ، وان مجلسهم خلا ـ على حد تعبيرهم ـ من روحه . وها هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لطفا كثيرا مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد انه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على ارضاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة في اخلاص وايثار ، فكاد يكدر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم في نفسه من اريحية الرضا والعجب ، أجل طالما كان الحب الذى

يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يغدق عليه ما يشاء
من فرح بهيج وزهو بريء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شيء .
وثمة آية أخرى على هذا الحب ـ والأصدق أن يقال انه حب من
نوع آخر ـ تجلت له ضحى اليوم حين ألمت به أم على الخاطبة
وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران
« الا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج على الدسوقى تملك سبعة
دكاكين في المغربلين؟ » وابتسم السيد ، وفطن بالغريزة الى ماتومىء
اليه المرأة ، وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة
ولكنها رسول موصى بالكتمان ، ألم يخيل اليه في أكثر من مناسبة
أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه
لابتياع حوائجها ؟.. بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل
التفكه فقال باهتمام ظاهرى « عليك باختيار زوج صالح لها ،
فما أعز المطلوب ! » ، وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت « قد
اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة
مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة
« لقد تزوجت مرتين ، أخفقت في الأولى ووفقنى الله في الأخرى ،
ولن أبطر بنعمة الله » . والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج
على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لا تنثنى ، وكأنه
لم ينس مثل أبيه الذى انزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعى ،
بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو ـ عقبه الوحيد
ـ الا على شيء من المال لا يغنى . ثم انه من ربحه ودخله في بسطة
من العيش هيأت لأسرته هناء ورغدا وأتاحت له ما يشاء للانفاق
في مسراته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع
المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية ؟!. أجل لم يجمع السيد
ثروة ، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من
جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى
يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة

وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم .
على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما
رامته فرصة طيبة ، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جميلة
كالست نفوسة توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره
فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين وأسارير حالمة باسمة ،
وذكر ـ باسما أيضا ـ ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم
وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ، حسبك
يا عجوز ! .. » عجوز ؟!.. انه في الخامسة والأربعين حقا ،
ولكن ما قول العاذل في هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر
السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ،
وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ، الى أن مزاياه لم تكن
لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور
بها ، منطويا في أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ،
وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ،
ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة
وبهاء وظرفا وكياسة الا أنه لم يثقل أبدا على أحد من الناس ، لأن
تواضعه كان طبعا وسجية كذلك ، ولأنه نبع من فطرة تسيل
بشاشة واخلاصا وحبا . والحق أنه كان ينزع بفطرته الى أن يحب
كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته
بوحى من غريزته الظامئة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء
والتواضع ، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب
الزهور الفراش ، ومن هنا استوى أن يقال ان تواضعه كياسة أو
طبيعة والأصح أن يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة
لا تدبير الارادة ، فتجلت طبعا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل ،
ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه
وهناته التماسا للعطف والحب أحب اليه من نشرها والمباهاة بها
اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة

دفعت المحبين الى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء ، واذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة . وبهذا الوحى الغريزى نفسه استهدى حتى في جانب حياته الماجن ، في مجالس أنسه وطربه ، فلم يتخل فيها ـ مهما لعب الشراب برأسه ـ عن لباقته وكياسته ، ولو شاء ، بما أوتى من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ، لاكتسح السمار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحية تفسح المجال لكل سامر ، ويشجع أهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف مزاحه في نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد . على أن كياسته الفطرية أو فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ، فأعلنت عن نفسها أروع اعلان في كرمه المأثور ـ سواء ما يتجلى منه في الولائم التى يدعو اليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التى ينفح بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه ـ وفي شهامته ومروءته ونجدته التى فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا دعت الضروة الى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا أجر ـ غير الحب ـ فكان سمسارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد دائما في أدائها ـ على مشقته ـ حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذى تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم

يطريها كان في نشرها اذى وأى اذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا ـ اذا خلا الى خواطره وانقشع عنه الحياء الذى يتولاه حيال الناس ـ بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسة هانم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت في أنا .. بيد أننى لن أتزوج ، هذا أمر مفروغ منه .. وليست هى بالمرأة التى تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج .. هذا أنا وهذه هى فكيف يمكن أن نلتقى !.. ولو صادفتنى في غير هذه الأيام التى سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن في حاجة اليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربة وهى تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهى تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر الى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

ـ وسع يا جدع أنت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب :

ـ الله يسامحك يا جلجل .. ملكة العوالم مرة واحدة !.. هلا عرفت فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

— أهلا وسهلا ، كان حقا علينا أن نفرش الأرض بالرمل ..

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

— بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا أقبل غير مسبوق ببشير ؟..

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسي ليأتي به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسي بنفسه وهو يومىء براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت — ربما بلا شعور منه — لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، ولعله تأثر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيزة الهائلة التي ستملأ مقعد الكرسي وتفيض عن جوانبه حتما . وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

— الم أقل لك يا جلجل انه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

— صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم احمد عبد الجواد ..!

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل والقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

— واخجلتاه !.. حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد احمد ..!

وشعر فؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

— الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف :

— ولكنا نريد الدكان لا السيد أحمد ..

وبدا ان السيد احمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو الطيب الذى خلقته السلطانة ، فهذا جميل الحمزاوى يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالمة ، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون أبصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة وأن يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين ، بيد أن هذا لم ينسه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

— قضى الله جلت حكمته أن يكون الجماد أحيانا أسعد حظا من الانسان ..

فقالت بلهجة ذات معنى :

— أراك تغالى ، لن يكون الجماد أسعد حظا من الانسان ، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة ..

فثقبها السيد بعينيه الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

— أجل فائدة !.. (ثم مشيرا الى الأرض) .. هذا الدكان !..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

— أريد سكرا وبنا وأرزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان شيئا !.. (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) .. ثم ان الرجال أكثر من الهم على القلب ..

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

— ليست كل الرجال ســواء يا سلطانة ، فمن قال لك ان الانسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟!.. الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف ..!

فساءلته ضاحكة :

— انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

— لو نظرت من قريب لوجدت تشابهــا عجيبا بين الرجل والمطبخ .. كلاهما حياة للبطون ..!

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد أن ترفعه اليــه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينــة فأحس لتوه أنها غيرت « السياسة » أو لعلها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء :

— أفادك الله ..! ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر..

وتحول الســيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

— الدكان وصاحبه تحت أمرك !

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة :

— أريد الدكان وتأبى الا أن تجود بنفسك !

— نفسى بلا ريب خير من دكانى ، أو خير ما في دكانى ..

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهى تقول :

— هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك ..!

فقهقه السيد قائلا :

— ما حاجتك الى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها ؟!

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما

راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العالمة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس في وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه ، فلم يعد أمامه الا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهرا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد !.. وهي موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد أن المرأة تهمه أكثر من العالمة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيبات اللحم والدهن ما يدفىء المقرور في زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب ، واعترض أفكاره مجىء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا ، ولكن السيد أشار اليها محذرا وهو يقول :

— يا له من عيب ..

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

— أى عيب يا سى السيد !.. ليس في الحق عيب ..

— هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحييها بما هى أهله من الاكرام ، وهيهات أن نوفيها حقها ..

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

— ولكن كرمك هذا سيجعلنى أتردد مرة ومرتين قبــل أن أقصدك مرة أخرى ..

فقهقه السيد قائلا :

— لا تخافي ، انى أكرم الزبون في المرة الأولى ثم أعوض خسارتي

في المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار ..!
فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :
ــ الكريم مثلك يُسرق ولا يسرق .. أشكرك يا سيد أحمد .
فقال من كل قلبه :
ــ العفو يا سلطانة ..

ووقف ينظر اليها وهى تتبختر صوب الباب حتى صعدت الى العربة واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظريه. هنالك قال الحمزاوى وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب .
ــ كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب ؟!
فالقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :
ــ اكتب مكان الأرقام « بضائع أتلفها الهوى » ..
ثم غمغم وهو يمضى الى مكتبه «الله جميل يحب الجمال» ..

— ١٥ —

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ في مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفقه ، فواصل السير الى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقبرة ، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى

من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة:
ــ الست زبيدة موجودة ؟
فرفعت اليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفظ أملته عليها ظروف وظيفتها :
ــ من أنت يا سيدى ؟
فقال بصوته القوى :
ــ شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..
وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : « تفضل » ، واوسعت له فدخل ، ورقى وراءها في سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا في مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو ينصت الى أقدام الخادم وهى تجرى ، ثم وهى تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجيء بكرسى الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسى الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة في أدب «تفضل بالجلوس يا سيدى» . واتجه السيد الى كنبة في صدر الحجرة وجلس في ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقة تتوسط الكنبة ومد ساقيه في ارتياح. رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد أسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست في جوها شذا بخور سر به متسليا بالنظر الى فراشة راحت ترف على المصباح في نشاط عصبى ، وانتظر بعض وقت جاءت في اثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى الى اذنيه

وقع شبشب منغوم ذى دقات مدغدغة فتنبهت اعصابه وحدق الى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية في فستان ازرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت :

— بسم الله الرحمن الرحيم ! .. أنت .. !

فجرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجرى الفار على جوال ارز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

— باسم الله ما شاء الله .. ؟

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمة وهى تقول في خوف مصطنع :

— عينك ! .. اعوذ بالله .. !

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بأنفه العظيم وقال :

— أتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنبة جانبية وجلست وهى تقول :

— بخورى خير وبركة ، انه اخلاط من انواع شتى بعضها عربي وبعضها هندى أؤلف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من الف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه في يأس :

— الا جسدى ! .. بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها البخور ، الأمر اجل واخطر ..

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

— ولكنى أحيى حفلات افراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

— سترى ان كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه

التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة كما قال للخادم ؟ .. وغلبتها الرغبة في الاستطلاع فسألته :

— فرح أم ختان ؟

فقال السيد باسما :

— لك ما تشائين !

— عندك مختون أم عروس ؟

— عندى كل شيء ...

فأنذرته بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعب ! » ثم تمتمت في تهكم :

— نحن في خدمتك على اى حال ...

فرفع السيد يديه الى قمة راسه في هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :

— عظم الله قدرك .. بيد انني ما زلت مصرا على أن اترك لك الاختيار !

فتنهدت في غيظ بالدعابة أشبه وقالت :

— انى أفضل افراح العرائس بطبيعة الحال !

— ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى الى زفة من جديد .. !

فصاحت به :

— يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختانا ..

— ليكن ...

وتساءلت وهى تحاذر :

— ولیدك ؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :

— أنا ! ..

فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير في مسألة احياء الليلة التى خمنت خبيئتها وهتفت به :

— يا لك من رجل قارح ، لو طالتك يدى لقسمت ظهرك ..

فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :

— لا أحرمتك رغبة قط ..

وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم أمسكت فسألها بقلق ...

— لماذا لم تتكرمى بضربى ؟

فهزت رأسها وقالت ساخرة :

— أخاف أن انقض وضوئى ..

فتساءل في لهفة :

— أطمع في أن نصلى معا ؟!

واستغفر الله في سره عقب النطق بدعابته مباشرة لأن هذره وان كان لا يقف به في سكرة المجون عند حد الا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر في باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت في دلال ساخر :

— أتعنى ، يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التى هى خير من النوم ؟

— بل الصلاة التى هى والنوم سواء ..

ولم تتمالك الا أن تقول ضاحكة :

— يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور ، الآن صدقت حقا ما قيل لى عنك ..

واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل :

— وماذا قيل ؟! .. اللهم اكفنا شر القيل والقال ..

— قالوا لى انك زير نساء وعبد شراب ..

فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

— حسبته ذما والعياذ بالله ..

— ألم أقل لك انك قارح فاجر ؟!

— هى الشهادة لى بأنى حزت القبول ان شاء الله ..

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت :

— بعدك !.. لست كمن عرفت من النساء .. ان زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها في تحد مشرب باللطف وقال بطمأنينة :

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ..

— من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

— لا تصدقى يا ختونة ، وان كنت في شك ...

ولكمته في منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا في الضحك معا ، وسر بمشاركتها اياه في ضحكه ، وحدس وراء ذلك — بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح — لونا من الجهر بالرضا ثبتته في وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر في أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة :

— لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها باهتمام :

— من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

— جليلة ... !

وفجأه الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه . جليلة ، تلك العالمة المشهورة التى عشقها دهرا حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا ومازالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول في لهجة صادقة :

— لعنة الله على وجهها وصوتها معا !.. (ثم متهربا) .. دعينا من هذا كله ولنتكلم في الجد ..

فتساءلت متهكمة :

— الا تستحق جليلة كلمة ارق والطف ؟ .. ام هذا شأنك عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟!

وداخل السيد شيء من الحرج الا انه ذاب في موجة الزهو الجنسي التي أثارها في نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، واخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

— لا يسعني وأنا بمحضر من هذا البهاء ان اغادره الى ذكريات طويت ونسيت ...

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا انها استجابت للثناء كما بدا في رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

— لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه ..

— لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ..

وهزت كتفيها استهانة ثم سألته في اهتمام غير خاف :

— متى رافقتها ؟

فلوح السيد بذراعه كأنه يقول « ما أبعده من زمن ! » ثم تمتم :

— منذ ازمان وأزمان ..

فضحكت في تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفي :

— في أيام الشباب الذي مضى .. !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

— بودي أن امص من لسانك الأذى ..

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

— اخذتك لحما وتركتك عظاما ..

فأومأ اليها بسبابته محذرا وقال :

— اني من صلب رجال يتزوجون في الستين ..

— بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟!

فقهقه السيد قائلا :

— يا ولية اتقي الله ودعينا نتكلم في الجد ..

— الجد ؟! .. اتعني احياء الليلة التي جئت تتفق عليها ؟

— أعني احياء العمر كله ..

— كله أم نصفه ؟!

— ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..

— ربنا يقدرنا على الطيب ..

واستغفر الله في سره مقدما ثم تساءل :

— نقرأ الفاتحة ؟

ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :

— رباه .. سرقني الوقت ولدى الليلة عمل هام ..

ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، واصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته في اصبعه ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :

— دعني أو تخرج من بيتي بفردة شارب واحدة ..

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد في النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا في لحمه الطري فتطاير منه الى انفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مغمغما :

— الى الغد ؟!

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفوري يا امه عصفوري   لالعب واوري له اموري

وجعلت تردد « عصفوري يا امه » مرات وهي تودعه . وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الاغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ..

- ١٦ -

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسط الدار كالصالة ، أو كأن الصالة بالفعل استجدت لها أغراض أخرى . ولعل أهم أغراضه أنها كانت تقوم فيه — هي وجوقتها — بالتجارب الغنائية وحفظ الأغانى الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال . وجعله اتساعه — الى هذا — صالحا لاحياء الحفلات الخاصة التى تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتى تدعو اليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب — ان كان ثمة كرم على الاطلاق فانه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم — ولكنها رمت من ورائها الى الاكثار من الأصدقاء الممتازين الخليقين بأن يدعوها لاحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأوساط التى يتقلبون فيها ، ومن بينهم — الى هذا كله — تنتقى الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد لبشرف البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التى تمت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا . الى مدفأة أوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضة لتكون — جميعا — عربونا للمودة المقبلة : ففى لقاء هذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه ، الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد — ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم

ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الأيمن — كالشامة رواء وصفاء — اقيدت الشموع منغرسة في الفنايير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح في الليالى الدافئة وتغلق بأضلاف زجاجية في ليالى البرد .

جلست زبيدة متربعة على الديوان والى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، والى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدف أو ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنج . وآثرت السلطانة السيد احمد بأول مجلس في الجناح الأيمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة . وقدم السيد احمد أصحابه الى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

— ليس السيد على بالغريب فقد أحييت فرح كريمته في العام الماضى ..

ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد بمبة كشر بادر الرجل قائلا :

— وجئت تائبا يا ست ..

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريحية والمرح ، وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء ، وبهذا شعر في أعماقه ، وقد وجد لذلك بادىء الأمر لونا من الارتباك قل أن يلم به ، فداراه بالاسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ في الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق — والأشواق في مغانى الطرب تثار — يمد بصره الى

سلطانة المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز ، فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على مايترقبها من لذيذ المسرات ، هذه الليلة والليالى الأخريات . «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان» ، هذا التصريح الذى تحديتها به ، يجب أن أكون عند كلمتى ، أية امرأة هى يا ترى ، وأى مدى مداها ، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثم ألبس لكل حال لبوسها ، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أحيد عن شعارى القديم وهو أن أجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهاية ، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه » . ومع أن السيد لم يخبر من ألوان الحب ـ على وفرة مغامراته ـ الا الحب العضوى وحي اللحم والدم ، الا انه تدرج في اعتناقه الى أرق صورة وأنقاها ، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب ، فسما بالشهوة الى أسمى ما يمكن أن تسمو اليه في مجالها العضوى . بهذه البواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانى مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية ـ بكرور الأيام ـ بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت في جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع ـ خاصة اذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة ـ لا يمكن أن تستنيم الى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعته صبوة استجاب لها في نشوة وحماس . لم ير في أية امرأة الا جسدا ، ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل هذبتها صنعة ، ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا وأطارا . فلم يكن اشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها في الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه مثلها

أيضا ـ فيما ينطوى عليه في أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا ـ متعمدا من الصرامة والشدة . ولذلك فلم يتركز خياله النشيط ـ وهو يلتهم السلطانة بنظراته ، في المضاجعة ونحوها ولكنه تاه ـ الى هذا ـ في أفانين من أحلام اللهو واللعب والغناء والسمر . وأحست زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهى تقلب عينيها في وجوه المدعوين بعجب ودلال:

ـ حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

ـ وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت في غاية من الانبساط :

ـ كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا في نفس واحد :

ـ معذورا ..!!

وهنا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم :

ـ قد أعذر من أنذر ..

ومع أن « حكمته لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته في صدره هاتفة :

ـ اسكت انت وسد فاك الذى يبلع المحيط ..

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثرا السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ هذا جزاء من يجاوز حده .

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :

ـ ولكننى جئت لأتعلم قلة الأدب ..

فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :

ـ يا خبر !.. أسمعتم قوله ؟!

فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد :
ــ انه خير ما سمعنا حتى الآن ..
وأضاف الى هذا احد الرفقاء قائلا :
ــ بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..
وقال آخر مؤمنا على قوله :
ــ الزمى طاعته ما قل أدبه .
فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا اثر لها في نفسها :
ــ لحد هذا تحبون قلة الأدب !
فتنهد السيد قائلا :
ــ ربنا يديمها علينا ..
فما كان من العالمة الا أن تناولت الدف وهى تقول :
ــ سأسمعكم شيئا أفضل ..
ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر في حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز افراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكئوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومأت العالمة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذى جعل يلذع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالى الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون ، أجل كان القانون أحب آلات الطرب الى نفسه ــ لا لمهارة العقاد وحدها ــ ولكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره ، ومع أنه كان يعلم انه لن يستمع الى العقاد أو سى عبده الا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن . وما أن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالمة تنشد « والذى أسكر من عذب اللما » فلحقت بها الجوقة في حماس ،

وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنوبة العوادة ، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذى بين يديه فأفرغه في جوفه واندفع يشارك في انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته ــ عند مطلع الغناء ــ بشرق في حلقه لاندفاعه الى الانشاد قبل ان يتم بلع ريقه ، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد . ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد ــ بحكم العادة ــ لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها ، ومضت تهنىء افراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذى يودون سماعه ، وانزعج السيد في باطنه ومرت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك في اللحظة التالية ان زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن « بمبة كشر » نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات في الأفراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة ترجيعه ، وصمم على أن يتفادى من المتاعب التى تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :
ــ ما رأيكم في عصفورى يا امه ؟
وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير في نفسها ايحاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما في حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :
ــ الأولى ان تطلبها من أمك ..!
وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته ، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا أهل الله » وطلب آخرون «سلامتك يا قلبى» ولكن زبيدة التى

تحاشت أن ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم « على روحى أنا الجانى » فاستقبلت بترحاب حار . ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليلته الواعدة ، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة أدرك بها ركب النشاوى بلا كلل ، بل وجد عطفا على رغبة المرأة في محاكاة الفحول ارضاء لمستمعيها الراسخين في السماع وان لم يخل حالها من غرور تألفه الغوانى . وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

ــ دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خبير ..!

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ــ حقا ؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ــ فيم العجب وأنت تلميذ جليلة !

وضحك السادة في غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ــ وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ــ سأعلمه القانون .. الا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

ــ علمينى الهنك ان شئت ..

وحث كثيرون السيد على الانضمام الى التخت واخذ الدف فما كان منه الا ان نهض وخلع الجبة فبدا بطوله وعرضه في القفطان الكمونى كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكى تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى

من أثر الحف والنتف محلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه ، ورأى بعضهم ذاك المنظر فصاح بصوت كالرعد :

ــ تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ثديى المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ــ قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محذرة :

ــ خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الانجليز في السجن ..

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

ــ أذهب معك مؤبدا مع الشغل ..

وعلا أكثر من صوت يقول :

ــ لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما ..

وارادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف الى السيد وهى تقول :

ــ أرنى شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة، ثم غنت زبيدة وهى ترنو الى الأعين المحدقة اليها :

على روحى انا الجانى   وخلى في الهوى رمانى

ووجد السيد نفسه في موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقى باشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والمنيلاوى ، وعاش في لحظته الراهنة قانعا سعيدا، ثم سرى اليه من نبرات صوتها ماحرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة في الغناء قولها « أمانة يا رايح يه تبوس لى الحلو من فمه » حتى كان من النشوة في سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق

او سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرا فتركتهم كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا رويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو «على روحى أنا الجانى» ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق الا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة أو نحنحة أو حكة عود ثقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة . وقال لسان الخال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاحت من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا منها في فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

ــ لا نبرح حتى نزف السلطانة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين اغرق السيد والعالمة في الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد .

ووقفا جنبا لجنب ، هى كالمحمل وهو كالجمل ، عملاقين ملطفين بالحسن ، ثم تأبطت في دلال ذراعه وأشارت الى المحدقين بهما ليفسحوا الطريق . ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوين يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك يا جميل » ومضى العروسان في خطو وئيد يتبختران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا أن تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسمت لبدت لسانا متعرجا من

اهب يشق الفضاء كالشهاب . وتسابق الأصدقاء يرجون التهانى تباعا :

ــ بالرفاء والبنين ..

ــ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..

وصاح به أحدهم محذرا :

ــ لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى الى داخل الدار ...

ــ ١٧ ــ

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعى أن يزور الفتى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة .. وأقبل على أبيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

ــ السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك في أمر هام ..

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

ــ خير ان شاء الله .. !

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده

بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم زفر ثائرا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفي اقتضاب مؤثر :

— المسألة أن أمي شارعة في الزواج ..!

ومع أن السيد توقع خبرا سيئا الا أن خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التي اودعها ركنا مهجورا من ماضيه ، لذلك لقيت منه المفاجأة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى ، وتولاه لذلك ضيق ، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليلتمسوا منفــذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروي وتمالك الأعصاب ، وسأله :

— ومن أدراك بهذا ؟

— قريبها الشيخ حمدي ، زارني اليوم بمدرســة النحاسين والقى على الخبر مؤكدا بأنه سيتم في ظرف شهر ..

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، في حياتها ، ولن يكون الأخير اذا اتخذ الماضي مقياسا للمستقبل ، ولكن أي ذنب جناه هــذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى ؟!. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا ، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفســه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم !.. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شعر برغبة تدفعه الى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، اما لأنه أشفق من ان تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا واما لأنه أنكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع — لا يليق بالمأساة الراهنة — موجه الى المرأة التي كانت زوجا له ، بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفســه وكأنه يجيب خاطره :

— وممن تتزوج ! .. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة .. في الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الاخيرة كأنما يلفظ شظية ، فانتقل احساسه الى أبيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد في سره : في الثلاثين من عمره .. ياله من عمل فاضح .. انه فسق في ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى اليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته في اعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه — ولو بعد كرور ذاك الزمن الطويل — أنها أفلتت من تأديبه والاذعان لسنته !. وانه ليذكر أيام معاشرته لها — على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا في تصوره ، ولكن رجلا في مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة قتالة. ثم انها كانت — ولعلها لا تزال — جميلة مترعة أنوثة وجاذبية فنعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدأ منها شيء من المقاومة لارادته التي نزع الى فرضها على المتصلين به من آله ، ولم تر بأسا في استمتاع بالحرية ولو بالقدر الذي يتيح لها زيارة أبيها من آن لآن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح أخيرا ، فما كان من المرأة المدللة الا أن فرت الى والديها ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل الى تأديبها وارجاع عقلها الى رأسها هو أن يطلقها الى حين — الى حين طبعا لأنه شديد التعلق بها — فطلقها ، وتظاهر باهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر آملا أن يجيئه وسيط خير من آلها ، فلما لم يطرق بابه أحــد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيــدا للصلح فعاد الرسول يقول انهم يرحبون به على شرط الا يسجنها أو يضربها ! .. ولكنه كان ينتظر موافقتهم بلا قيد ولا شرط فثــار غضبه ثورة عاتية واقسم فيمـا بينـه وبين نفســه الا يضمهما رباط الى الأبد . هكذا ذهب كلاهمـا الى حـال

سبيله ، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيدا عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمه ما لقى من ضروب المذلة والألم ..

ومع أن المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان — في نظر ابنها — أشرف سقطاتها ، الا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه وأمعن في الايلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه اذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية أخرى ، فقد جاوز اذن موقفه القديم الذى ألزمته اياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له أن يلقى الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الاكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

— ألم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن ..؟!

فقال ياسين في حزن وقنوط :

— ولكنها شيء كائن يا أبي !.. ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال أمي الى ما شاء الله ، سواء في نظرى أم في نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنا الى ابيه بعينيه السوداوين الجميلتين — اللتين ورثهما عنها — في استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك أبي الجبار القادر فمد لى يدك » ، فبلغ التأثر بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

— لا انكر عليك تألمك ولكنى انكر عليك ان تغالى فيه ، كذلك يطيب لى أن أعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يردك بلا عناء ، سائل نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها ؟.. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست

هي بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وأرح نفسك ، وتعز — مهما يكن من أمر القيل والقال — بأن الزواج علاقة مشروعة .. شريفة ..

قال السيد هذا بلسانه فحسب — اذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة — ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلته لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع أن كلامه لم يضع هباء — حيث انه من المستحيل أن يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من أبنائه — الا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من أبريق بالماء المغلى ، وما لبث أن خاطب أباه قائلا :

— هو علاقة مشروعة حقا يا أبي ولكنها تبدو أحيانا أبعد ما تكون عن الشرع ، انى أسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في شيء من السخرية « أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى ! » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلا :

— انه الطمع .. ولا شيء غيره !

— أو لعلها رغبة صادقة في الزواج منها ..

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف في حنق وألم معا :

— بل الطمع وحده ..

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه أو أن يعود الى توكيد قوله السابق ، فلما لم يفعل استطرد قائلا في هدوء نسبي :

— ان ما يدفعه الى الزواج من امراة تكبره بعشرة اعوام هو الطمع في مالها وعقارها ...

وجد السيد في تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن المعيته . فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في أمور اشد حساسية وأبعث للألم وبحسبه انه يصرفه عن النظر فيما يدفع امه الى الزواج الى ما يدفع الرجل ، والى هذا كله لم يخف عليه ما في رأى ابنه من وجاهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل ان هنية — أم ياسين — غنية لدرجة لا بأس بها ، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجاريب الزواج والهوى ، بيد انها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أما الآن فبعيد عن الاحتمال ان تملك نفسها — فضلا عن أنفس الآخرين — ما ملكت ، واذن فثروتها خليقة بأن تبدد في معركة الغرام التي لم تعد من رماتها ؛ وانه لحرام وأى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأى :

— أراك على حق يا بنى فيما تقول ، ان امرأة في سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر ، فما عسى أن نفعل ؟. أنتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامراته ؟! .. ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقتناع مهانة لا تهضمها كرامتنا .. فلم يبق أمامنا الا المرأة نفسها !.. ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها — ولا تزال — خليقة ، بل الحق انى لا ارتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من اعذار قهرية ، فللضرورة احكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدرى فلعل ظهورك المفاجيء في افقها يردها الى شيء من الصواب ..

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسى في اللحظات التي تسبق ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل الى نفسه ، او لعله دل على انه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وانه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد أنه تمتم قائلا :

— أليس ثمة حل أوفق ..؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

— أراه أوفق الحلول ..

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

— كيف أرجع اليها ؟!.. كيف أزج بنفسي في ماض فررت منه وليس أحب الى من أن يبتر من حياتى بترا !.. لا أم لى .. لا أم لى ..

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وفق الى جذبه الى رأيه فقال بلباقة :

— هذا حق ، ولكن لا أظن ان ظهورك امامها فجأة بعد ذلك الغياب الطويل يمضى بلا أثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا ناضجا أن تتحرك أمومتها فتجفل مما عساه يسيء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها .. من يدرى ؟!

فطامن ياسين رأسه غارقا في أفكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق ويأس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان أفظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التى ينتظر أن يرثها يوما لم يكن دون ذلك ، وما عسى أن يفعل ؟!.. مهما يقلب أوجه الرأى فلن يجد حلا أوفق مما ارتأى أبوه ، بل ان صدور الرأى عن أبيه ألبسه في نظره — على تقلقل حاله — وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة . لكن .. هكذا قال في نفسه ، ثم قال مخاطبا اباه :

— كما ترى يا أبى ..

- ١٨ -

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق . لقد غاب عنه أحد عشر عاما ، احد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب اليـــه مرة واحدة ، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا في هالة قاتمة مقبضة نسيج وشيها من مادة الكابوس ، والحق انه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا يائسا ، ثم تجنبه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كفاية في نفسه أو معبرا الى سواه من الأحياء بيد أنه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء ، ما زال ضيقا تكاد تسده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هي بيوته تكاد تتماس مشربياتها ، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطنين الصادر عنها كخلايا النحل ، وأرضه الترابية بفجواتها المفعمة وحــلا ، وغلمانه الذين يغشـــون جوانبه ويطبعون على اديمه آثار أقدامهم الحافية ، وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيار ، ومقلى عم حسن ومطعم عم سليمان ، كل أولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر ..

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم اذنيه ، ثم لاحت على راس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض على شفتيه وغض طرفه في خزى . الماضي ملطخ بالعار . مدفون الراس في الطين من الخجل ، دائم الجأر بالشكوى من الخزى والألم ، ولكنه كله في كفة وهذه الدكان في كفة وحدها ، بل انها ترجح به ، اذ

أنها رمزه الحي الباقي على الزمن ، جمعت في صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزى متبجحا والألم ناطقا بالهزيمة مولولة . واذا كان الماضي أحداثا وذكريات هي بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه . وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى في الدكان « غلاما » يرفع رأسه الى صاحبها ويقول « نينة تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه في الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا أن يلفت اليهما الأنظار ، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقا جديدا ــ كلما ورد على ذهنــه ــ على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد في الفرار منها ، ولكنه ما ان يتملص من قبضة احداها حتى يقع في قبضة الأخرى ، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على أسوأ حال «كيف أمرق الى العطفة وعلى رأسها هذه الدكان .. وهذا الرجل .. أتراه بموقفه القديم منهــا ؟. لن التفت نحوها ، اى قوة ماكرة تغرينى بالنظــر ، أيعرفنى اذا التقت عينانا ؟!.. اذا بدا منه انه عرفنى قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفنى ؟.. لا هو ولا أحد من الحي ، أحد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لاتواتينا القوة على ابادة الحشرات السامة التي لا تنفك تلدغنا .. » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشيء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورقى في الطريق المتصاعد في غير استواء ، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه ورأسه ولو الى حين ، وتشجيعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : «لاتضق

بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيرا وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » بيد انه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى أين أسير ؟!. الى أمي !.. يا للعجب ؛ لا أصدق ، كيف القاها وكيف تلقاني !.. وددت او .. » ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجه الى أول باب في جانبها الأيسر . هو البيت القديم بلا أدنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا أمس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود ، ورقى في الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فألفاه أضيق قليلا مما في ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلة على بئر السلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله . ومر وهو على تلك الحال بالدورين الأجورين حتى انتهى الى الدور الأخير ، ووقف لحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب ، وبعد دقيقة أو نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما أن تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عما يريد . وثارت أعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

— قولي لستك ياسين هنا ..

« ترى ماذا تظن الخادم بي ؟ » .. والتفت وراءه فوجدها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الآمرة غلبتها على أمرها ، واما .. وعض على شفتيه وهو يمرق الى داخل الحجرة . انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعي في لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى

المشربية التى كان ينظر من وراء ثقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى أثاث الحجرة الراهن هو أثاث الماضي البعيد ؟ .

انه لا يذكر من الأثاث القديم الا مرآة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز في زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها الى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها ، ولكن لا داعي للتساؤل ، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس ، لا لجدته فحسب ، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليقة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير أبوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص في قيحه . ولم يطل انتظاره ، ولعله جاء أقصر مما يتصور ، اذ ابتدر اذنيه وقع اقدام متتابعة متدافعة ، وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن ألفاظه ، ثم أحس بها — وهو لم يزل مولى الباب ظهره — وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة :

— ياسين !.. ابني !.. كيف اصدق عيني ؟!.. ربي .. صار رجلا ..

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمته اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره — وهو غاية ما وسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب — ثم اختنقت نبراتها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة مليا ريثما تسترد أنفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع أنه شعر شعورا عميقا أليما بأن جموده أشد من أن يحتمل الا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة : أي حياة ، فلازم جموده وخرسه ، بيد انه

كان متأثرا غاية التأثر وان لم يتضح له نوع التأثر بادىء الأمر بحال يطمئن اليها . ولكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتماء في حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع أنه وجه ارادته بعزم وتصميم الى اخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته ، الا أن الماضى المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسرى ، فأدرك في ذاك الموقف الرهيب ، اكثر مما أدرك في ماضيه كله . الحقيقة المحزنة التى طالما أدمت فؤاده وهى أن أمه قد اقتلعت من صدره . ورفعت المرأة رأسها اليه كأنها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وأدنى وجهه منها فقبلته في خديه وجبينه ، التقت أثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تأثرا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة أخرى ، ثم سمعها تغمغم :

— قالت لى ياسين هنا . قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر ؟! وجئت عدوا كالمجنونة لا أصدق أذنى ، وها أنت ، أنت دون غيرك والحمد لله ، تركتنى غلاما وعدت الى رجلا ، كم قتلنى الشوق اليك وأنت لا تحس لى وجودا ..

وأخذته من ذراعه الى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه . وجعل يسترق اليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟.. كأنها لم تتغير الا أن يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، أما الوجه القمحى المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة . ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر أن تغير أعوام القطيعة من

دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع أى حتى في تلك الأوقات التى تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهى تحدق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم تمتمت بصوت متهدج :

— آه يا ربى لا أكاد أصدق عينى ، أنا في حلم ، هذا ياسين ! أى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول تلو الرسول ، ماذا أقول ؟.. دعنى أسألك كيف قسا قلبك على لهذا الحد ؟.. كيف أعرضت عن دعواتى الحارة ، كيف تصاممت عن نداء قلبى المكروب ؟ كيف .. كيف ؟.. كيف نسيت أن لك أما منزوية هنا ؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والرثاء معا ، وكأنها أفلتت منها في ذهول الانفعال ، أجل يوجد شيء ، وأشياء ، تذكره صباح مساء بأن له أما ، ولكن أى شيء وأى أشياء ؟!

ورفع اليها عينيه في حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة ، وابتدرته المرأة قائلة في لهفة :

— لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال :

— ذكرتك كثيرا ، ولكن آلامى كانت أفظع من أن تطاق ..

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضى الأسيف ، فلم تعد تطيق التحديق في عينيه وخفضت جفنيها وهى تقول بلهجة حزينة :

— ظننتك برئت من أحزان الماضى ، وأنها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى أحد عشر عاما ..

وعجب لعتابها عجبا أحنقه ، واستنكره استنكارا ذر على

غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذى جاء من أجله لثار بركانه ، أتعنى المرأة حقا ما تقول ؟.. أهان عليها ما فعلت لهذا الحد ؟ أم تظن به الجهل بما كان ؟! بيد أنه ضبط أعصابه بقوة ارادته التى لم تغفل عن هدفها وقال :

ـ تقولين انها لا تستحق غضبى ؟.. أراها تستحق الغضب كل الغضب وأكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشىء تهدم ، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

ـ ما وجه العيب في أن تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟..

فشعر بنيران الغضب تتأجج في عروقه وان لم تبد منها آثار الا في انطباق شفتيه ثم التصاقهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها !.. وتتساءل عن وجه العيب في ان تتزوج «امرأة» بعد طلاقها ، حسن ، لاعيب فيأن تتزوج «امرأة» بعد طلاقها ، أما ان تكون المرأة أمه فهذا شىء آخر ، شىء آخر جدا ، وأى زواج الذى تعنيه ؟!.. انه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو ادهى وأمر ، ذلك « الفكهانى » !.. أيذكرها به ؟.. أيصفعها بما في نفسه من مر ذكرياته ؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وارغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد :

ـ زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه أمور شائنة لم تكن لتليق بك ، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعيها على صدرها في استسلام اليائس وقالت باشفاق حزين :

ـ انه سوء الحظ ولا شىء غيره ، انى سيئة الحظ ، هذا كل ما هنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلصت أساريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

ـ لا تحاولى أن تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا الا ألما على ألم ، من الخير أن نسدل على آلامنا ستارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره والقلب يخفق اشفاقا شديدا من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال ، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره ، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكية :

ـ لا تلح في تعذيبى وأنت وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة ، بيد أنه وجد فيه باعثا جديدا للهياج والتوتر ، انه ابنها حقا ، وأنها أمه الوحيدة كذلك ، ولكن كم رجلا .. ! وأشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقزز والغضب ، ثم أغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشعة ، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل :

ـ دعنى أعتقد بأن سعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، أجل حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتنى منفضا عن قلبك أحزان الماضى كله الى الأبد .

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة رشحت بخطورة أفكاره ، ولم يكن شىء في تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على أن ألفاظه التى يتفوه بها أقل بكثير من المعانى التى يوحى بها :

ـ هذا يتوقف عليك أنت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..

فتجلت في عينى المرأة نظرة قلق نمت عما تعانى من ايحاء الخوف وقالت :

ـ انى أرغب في مودتك من أعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم سعيت اليها فرددتنى بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب فيذهنه فقال :

— بيدك ما تتمنين ، بيدك أنت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك ..

فتساءلت المرأة في انزعاج :

— ماذا تعنى ؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمر :

— مضمون كلامى واضح ، هو أن تعدلى عما لو صح ما بلغنى عنه لكان فيه الضربة القاضية على !

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها في يأس غير خاف ، وتمتمت وهى لا تدرى :

— ماذا تعنى ؟

بيد أنه ظنها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

— أعنى أن تلغى مشروع الزواج الجديد ، وألا تسمحى لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل ، لم أعد طفلا ، وليس بصبرى متسع لطعنة جديدة ..

اطرقت في حزن بالغ ، ولازمت الاطراق كأنما أخذتها سنة من النوم ، ثم رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق مما قدر ، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

— اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

— نعم !..

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد — وهو خال الى نفسه — ما دار من حديث بينه وبين أمه في هذه المقابلة فأقر أقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدرى الخطأ أم أصاب ، وظل على تردده طويلا . أما المرأة فقد غمغمت وهى تنظر فيما أمامها :

— لشد ما أتمنى أن أكذب أذنى ..

وأدرك أنه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه على ما حوله . فاندفع قائلا بلا وعى مداريا خطأه بما هو أمعن في الخطأ :

— انك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت أنا دائما الضحية التى تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظننت العمر رادك الى شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول أنك شارعة في الزواج من جديد !.. يا لها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها .

من شدة اليأس راحت تصغى اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت بأسى :

— أنت ضحية ، وأنا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك وتلك المرأة التى تعيش في كنفها !..

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذى بدا له مضحكا، بيد أنه لم يضحك . ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

— ما دخل أبى وزوجه في هذا الشأن !.. لا تتملصى من فعالك بالقاء التهم في وجوه الأبرياء .

فهتفت بصوت يشبه الأنين :

— ما رأيت ابنا أقسى منك !.. أهذا خطابك لى بعد فراق أحد عشر عاما !!

فلوح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

— الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا ..

— لست خاطئة .. لست خاطئة .. ولكنك قاس غليظ القلب كأبيك ..

فنفخ في ملل وصاح بها :

— رجعنا الى أبى !.. حسبنا ما نحن فيه .. اتقى الله وتراجعى عن الفضيحة الجديدة .. أريد أن أمنع هذه الفضيحة بأى ثمن ...

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهى تقول :

— وماذا يهمك منها ؟

فصاح في دهش :

— كيف لا تهمنى فضيحة أمى ؟!

فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

— انت في الحق لا تعدنى أما لك ..

— ماذا تعنين ؟

فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله :

— ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك أن تدعنى وشأنى ...

فهتف غاضبا :

— حسبى ماكان ، لن اسمح لك بتلويث سمعتى من جديد ..

فقالت وهي تزدرد مرارة ريقها :

— لا شيء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد ..

فسألها مستنكرا :

— أتصرين على هذا الزواج ؟!

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة في اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

— قضى الأمر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه صفرة وركز بصره في رأسها المطرق وهو يغلى غضبا ، ثم صاح بها بصوت كالزئير :

— يا لك من امرأة .. مجرمة !..

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

— سامحك الله ...

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف — مما تظن أنه يجهله —

من ماضى سيرتها ، بحديث « الفكهانى » الأسود ، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنثره اربا ويثأر بها أفظع الثأر ، وتوهج في عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت في أخاديدها نذر الشر والوعيد ، وفغر فاه ليطلق قذيفته ، ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه اليه مخه الذى لم يعمه العناء عن البلاء ، ومرت اللحظة الرهيبة في سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الانسان بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شيء الى مستقره ، وزفر وهو كظيم ، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا . وقد ذكر موقفه هذا — فيما بعد — فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وأن عجب له أشد العجب ، وكان أعجب ماعجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وان لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر !..

وأفرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول :

— مجرمة ..! فضيحة مجسمة !.. كم سأضحك من غبائى كلما أذكر أننى أملت خيرا من هذه الزيارة !.. (ثم بلهجة تهكمية) .. انى أعجب كيف طمعت بعد هذا في مودتى ؟!

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة :

— منتنى نفسى أن نعيش على مودة رغم كل شيء !.. وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبى آمالا حارة خيل الى معها انى أستطيع أن أهبك أسمى ما في قلبى من حب .. بلا كدر ..

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شيء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حانقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

— وددت لو أستطيع قتلك ..

فغضت بصرها وقالت في حزن بالغ :

ــ لو فعلت لأرحتنى من حياتى ..

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعندما انتهى الى الطريق ، وأخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لأول مرة انه نسى حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة ، أنسيه كأنما لم يكن هو الباعث الأول لهذه الزيارة !..

- ١٩ -

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهى تقول برنتها المعهودة :

ــ أفي حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فجاءها صوت فهمى قائلا :

ــ تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط ..

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا أمام مكتبه يلوح في وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها الى كنبة غير بعيدة من الباب واجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :

ــ ناموا جميعا ؟

وادركت المرأة أنها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة الى نفسها الطواعة للايحاء وقالت تجيبه :

ــ ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما في ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن في فراشه .

كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة

عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه في الكتاب الذى بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، أحاديث أمه وشقيقتيه في جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم الى أمه وكمال وهما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه لتحييه تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديعة . ومع أنه لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف ، الا أنه وجد عسرا في التعبير عما يريد الافصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

ــ دعوتك يانينة لأشاورك في أمر يهمنى جدا .

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا أو شبيها بالخوف وقالت :

ــ انى مصغية اليك يابنى ..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه وقال :

ــ ما رأيك فيما لو .. أعنى أليس من الممكن أن ..

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

ــ ليس لى من أفضى اليه بدخيلة نفسى الا أنت ..

ــ طبعا ، طبعا يا بنى ..

فقال متشجعا عما قبل :

ــ ما رأيك اذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان ..؟

وتلقت أمينة كلماته بدهشة أولا ، فأجابته أول ما أجابت بابتسامة تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حينا وهى تترقب افصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها واشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لا تدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

— أهذه رغبتك حقا ؟.. سأقول لك رأيي صراحة .. ان يوما أمضي فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد أيام حياتي ..

فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

— شكرا لك يا أماه ..

ورنت الأم اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

— يا له من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ، وليس بالكثير على الله أن يجزيني على تعبي وصبري بمثل هذا اليــوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عيني بك وبأختيك خديجة وعائشة ..

وغابت عيناها في رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطة أقبل نحوها كلب ، وتمتمت في اشفاق :

— ولكن .. أبوك ؟!

وابتسم فهمي ممتعضا وقال :

— من أجل هذا دعوتك للمشاورة ..

ففكرت المرأة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء !. أبوك شخص غريب ، غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا ..

فقطب فهمي قائلا :

— ليس في الأمر ما يدعو الى الغضب أو الاعتراض .

— هذا رأيي ..!

— وغني عن البيان أن الزواج سيــؤجل حتى أتم دراستي وأجد لنفسي عملا ..

— طبعا .. طبعا ..

— فيم يكون الاعتراض اذن ؟!

فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب أباك اذا

أراد أن ينبذ المنطق جانبا ؟ » هي التي لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ ، عدل أم ظلم ، بيد أنها قالت :

— أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول ..

فقال الشاب بحماس

— لقد تزوج أبي وهو في سني هذه : ولست أقصد شيئا من هذا ؛ ولكني سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أي ناحية ..

— ربنا يحقق رجاءنا ..

وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين في فكرة واحــدة وهما عن بداهة يدربان اذا كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ، ويقرأ ما يدور بخاطره في غير ما عسر ، ثم قال فهمي مفصحا عما يشغلهما معا :

— بقي أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع ..!

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها ، وأدركت أن ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذي لا يستطيع أن يؤديه أحد سواها بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا انها قبلته على كره كما تقبل أمورا كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :

— ومن غيري يفاتحه ؟.. ربنا معنا ..

— اني آسف .. لو كان بوسعي أن أحدثه لفعلت .

— سأحدثه ، وســيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من أسرة كريمة ..

وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة :

— ولكن أليست هي في مثل سنك أو تزيد ؟!

فقال الفتى جزعا :

— لا يهمني هذا بتاتا !

فقالت مبتسمة :

ــ على بركة الله ، ربنا معنا ، « ثم وهى تنهض » أدعك الآن لعناية المولى ، والى الغـد .. ومالت نحوه فقبلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها ، ولكن كم أدهشها أن ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسة بين يديه فهتفت به :

ــ ما الذى عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما في ارتباك وقال :

ــ تذكرت انى نسيت كراسة الانجليزى فعدت لآخذها ثم بدا لى أن أستعيد الكلمات مرة أخيرة .

وذهبت معه مرة أخرى الى حجرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النوم أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التى تنبعث في شعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سمعه وقع أقدام أمه وهى ترقى السلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضىء منه جانبا من الظلمة الغاشية في الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « أبلة خديجة ! » فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم من عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت تنبهت الى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

ــ ماذا جاء بك الآن ؟

لم يأبه للهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بأن تقلبهما رأسا على عقب ، وقفز لهذا قلبه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

ــ عندى سر غريب ..

فسألته خديجة :

ــ أى سر هذا ؟!.. هات ما عندك وأرنا شطارتك ..

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

ــ أخى فهمى يريد أن يخطب مريم ..

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد القيت في وجه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلى الباب المفتوح على هيئة متوازى الأضلاع مذبذب الأطراف تبعا لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك الباب مفتوحا ــ الى تيار وأن نسم من خصائص النافذة الى الصالة في لطف همسات تذيع سرا ، ثم تساءلت خديجة في اهتمام :

ــ كيف عرفت هذا ؟

ــ تركت فراشى لأحضر كراسة الانجليزى ، وعند باب أخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبدت في الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه في اهتمام ملك عليهما الأنفاس حتى فرغ من حديثه ، وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة الى المزيد من الاقتناع :

ــ اتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

ــ اتتصورين أن يخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية طويلة عريضة كهذه ؟

ــ لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من حدة اهتمامها » اختلاق موت غلام في الطريق شىء ، اما هذه الحكاية فشىء آخر ..

فتساءلت خديجة دون أن تلقى بالا الى احتجاج كمال الذى اعترض على التعريض به :

ــ كيف وقع هذا يا ترى ؟!

فضحكت عائشة قائلة :

— ألم أقل لك مرة انى أشك في ان اللبلاب هو الذى يدعو فهمى الى السطح كل يوم ؟!
— انه اللبلاب الآخر الذى التف حول ساقه هو .
فترنمت عائشة بصوت خفيض :
— لا ملام عليك يا عيونى في حبه .
فنهرتها خديجة قائلة :
— هس .. ليس هذا وقت الغناء .. مريم في العشرين وفهمى في الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟!
— نينة ؟!.. نينة حمامة وديعة لا تدرى كيف تقول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق أن أقول أن مريم جميلة وطيبة ؟!.. ثم ان بيتنا هو البيت الوحيد في الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد..

كانت خديجة — كعائشة — تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع أبدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد في المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن يعجزها — عند الضرورة — الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة وغيرتها ، فقد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها ان يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :
— مجنونة أنت ؟!.. مريم جميلة ولكنها دون فهمى بمراحل بعيدة .. فهمى يا حمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟!.. انها مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوج احدانا بقاض ..!

وتساءلت عائشة في نفسها : « من قال القاضى أحسن من الضابط !! » ثم سألتها محتجة :
— لم لا ؟!
فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعترافها :
— يستطيع فهمى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ،

وفي نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟!.. ما هى الا أمية طويلة اللسان ، أنت لا تعرفينها كما أعرفها ..

وأدركت عائشة أن مريم انقلبت في نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها — حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها أكبر نصيب — من أن تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارتها فقالت بتسليم :
— لندع الأمر لله ..
فقالت خديجة بثقة وايمان :
— الأمر لله في السماء ولأبى في الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا .. « ثم موجهة الخطاب الى كمال » .. آن لك أن تعود الى سريرك بسلام ..

عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه « لم يبق الا ياسين ، وسأخبره غدا .. »

— ٢٠ —

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما تكتمان أنفاسهما في حذر وتمدان آذانهما الى الداخل في اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الأختان أن تفاتح الأم اباهما في الأمر الذى انبأهما عنه كمال اذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت. وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث

عن أمور البيت العادية فأنصتتا في جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهى تقول في أدب بالغ ولهجة خاشعة :

— سيدى ، اذا اذنت لى حدثتك عن شأن رجانى فهمى أن أبلغك اياه .

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول «هذا هو الحديث» على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهى تتهيأ للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتها في اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

— ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

— فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الأعين ، ولعله يلغنى رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده ..

فقال الأب بلهجة تخيلتاه معها راضيا :

— ماذا يريد ..؟ تكلمى ..

ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول :

— سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان ..؟

— طبعا ..

— رجل فاضل مثل سيدى واسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

— نعم ..

واستطردت بعد تردد :

— فهمى يسأل يا سيدى هل يجيز له والده أن .. يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير اهلا للزواج؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :

— يخطب ؟!.. ماذا تقولين يا ولية ؟.. هذا الغلام !.. ما شاء الله .. أعيدى على سمعى ما قلت ..

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش في ذعر :

— ليس الا أنه يتساءل ، مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك..

فقال الصوت المتفجر بالغضب :

— لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا أدرى ما الذى اتلف تلميذا حتى يتمادى في مطالبه الى هذا الحد ؟.. ولكن أما مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخذى وهى تقول :

— لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شيء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجانى بحسن نية فرأيت ان أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما ..

— سيذعن أراد أم لم يرد ، ولكنى أريد أن أقول لك انك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

— انى أتعهدهم بما توصى به ..

— خبرينى عما دعاه الى التفكير في هذا الرجاء ؟

وارهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم تسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهى ترمش في ارتباك وخوف فعطف قلباهما في اشفاق شديد :

— ماذا أخرسك ؟.. خبرينى هل رآها ؟

— كلا يا سيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..

— كيف رغب في خطبتها دون أن يراها ؟.. ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران !

— معاذ الله يا سيدى معاذ الله .. ان ابنى اذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته الا لضرورة ..

— ما الذى دعاه الى طلابها اذن ؟

— لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها ..

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان ..

— ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين !.. يا سبحان الله أينبغى أن أهجر دكانى وعملى وأقبع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأم في نبرات باكية :

— بيتك أشرف البيوت ، بالله يا سيدى الا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن ..

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :

— قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه ..

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما ..

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة أن مكثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة الذى تثور عادة في عينيه وبشرة

وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقى الغضب في أعماق صدره كالعكارة في قعر القدر .

من المحقق أنه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة في سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكمها بين آله فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحا عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس بالنادر أن يتضح له أنه استسلم للغضب في غير موجب ولكنه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الأمر عسية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد أنه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور أن تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب في جو من النقاء الصارم والطهارة المتقشفة . ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذريته وماله ، وأن يدعو خاصة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق . فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر . وفي الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم « نادرة اليوم » لا كفاجعة لأنه يكره أن يلقى أحدا بالفاجعات ، ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ، فغادروه وهو يقهقه في غير تحفظ .. بدت له « النادرة » في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها ، بل وأن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه أخيرا باسما راضيا « من شابه أباه فما ظلم » ..

- ٢١ -

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التى قل أن تتاح له في مثل ذلك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التى حمله اياها فهمى، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، في جو من السرية والتكتم الأمر الذى أضفى عليها — وعليه بالتالى — أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل في عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان أباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب ، وأن ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه ، فلم يذكر انه رآه على الحال التى رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليه في حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة في حياته بلهجة توسل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التى حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى اسرق السمع اليه من وراء الباب ، والذى نقله الى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة انه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التى كثيرا ما تعابثه ويعابثها ، ويأنس اليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون أن يعرف لها هذه الخطورة

التى أحاطت بهدوء أخيه وسلامته . مريم ؟!.. لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع ؟!. ووجد في الجو غموضا ، كذاك الغموض الذى يكتنف حياة الأرواح والأشباح ، والذى طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره في تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فنائه الصغير حيث تنزوى في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على اصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة سنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هذا خلفت بعض متعلقات البيت أثرا في نفسه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة في أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذى تبدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنازعه رغبتان ، احداهما — وهى المنبعثة من نفسه — تدعوه الى العبث به واختطاف الصغار ، والأخرى — وهى المكتسبة عن أمه — توقفه عند حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية في حياة اليمامة وأسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها

الحسناء التى تطالعه صورتها عصر كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متسائلا عن « حكايتها » فتقص عليه مريم من انبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره . لم يكن البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون أن يشعر به أحد ، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدا في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات . كان يعلم أن الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول ، حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل .. فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف . ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعومته ومع أنها كانت فوق الأربعين الا أنها كانت بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة ، فما تلقاه حتى تقبل عليه في مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر «متى تبلغ رشدك لأتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثارت فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة ، وقد سأل أمه عنها مرة فنهرته ــ والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب ــ مؤنبة اياه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ماحسبه أول الأمرعجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وارنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى اثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهقهت قائلة « هلا انتظرت عشرة اعوام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟!. ولكن لا داعى للانتظار

اليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟.. هذه هى ؟..» وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت اخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم وحدها في الحجرة الاخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رأته قالت بدهشة :

ــ كمال !.. « كادت تسأله عما جاء به في هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت .. تعال اجلس الى جانبى ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك أزرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش في جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء . وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودست في يده شوية لب وهى تقول ــ قزقز يا عصفور وحرك أسنانك اللؤلؤية .. أتذكر يوم عضضت معصمى وانا ادغدغك.. هكذا .. ومدت يدها صوب ابطه ولكنه ــ بحركة عكسية ــ شبك ذراعيه على صدره ليحمى أبطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها :

ــ في عرضك يا أبلة مريم ..

فأمسكت عنه وهى تتعجب من خوفه قائلة :

ــ لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟!.. انظر الى كيف لا أبالى بها ..

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهى ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك أن قال لها متحديا :

ــ دعينى ادغدغك انا وسنرى ..!

فما كان منها الا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس أصابعه تحت أبطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه في عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعضع

عنها ، حتى اضطر أن يسترد يديه متنهدا في يأس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

— أرأيت أيها الرجل الصغير العاجز ! .. لا تزعم أنك رجل بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر أمرا هاما بغتة » .. ياداهيتى !.. نسيت أن تقبلنى !.. ألم أنبه عليك مرارا بأن تكون تحية لقائنا قبلة ؟! وأدنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المتسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بأنامله في حياء ، أما مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة ، ثم سألته فيما يشبه الاعجاب :

— كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هذه الساعة ؟!. لعل تيزة تبحث عنك الآن في كل حجرات البيت ..

آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى أوشك أن ينسى الرسالة التى جاء من أجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا اليها بعين أخرى . العين التى تود أن تنقب في ذاتها عن السر الذى زلزل أخاه الرزين الطيب . الا أن تشوفه تهافت حيال شعوره بأنه يحمل أنباء غير سارة ، فقال بوجوم :

— فهمى الذى أرسلنى ..

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجو قد تغير كأنما انتقل من فصل الى فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

— له ؟!..

فقال لها بصراحة دلت على أنه لم يقدر خطورة الأنباء التى يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها .. .

— قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده في خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه أن ينتظر حتى يتم دراسته ..

كانت تحدق الى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت

خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة ، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الأمر فقال :

— انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وأنه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى ..

ولما لم يجد لكلامه أثرا في احراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهفه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :

— هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينة من حديث عنك؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

— ماذا قال وماذا قالت ؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزائى وقص عليها ما ترامى اليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه ، فخيل اليه أنها تتنهد ، ثم قالت ببرم :

— ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدرى :

— نعم .. أبى كذلك ..

ورفع رأسه اليها في خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة ، فسألها متذكرا ما وصاه به أخوه :

— ماذا أقول له ؟

فضحكت من أنفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت في عينيها نظرة ماكرة :

— قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب في أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار ..!

وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة اكثر مما عنى بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى أرض الحجرة ومضى خارجا ..

- ٢٢ -

بدت عائشة وهى تنظر في المرآة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة في الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟!.. ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لا يخلو اذا تحدث اليها لأمر أو لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحث أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها . أما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على أن هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذة وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الاهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لأمها في الواقع بالنظافة والأناقة ، ولكن لأنها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجمل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله ــ تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد

« المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا في بدلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت في أساريره ابتسامة خفيفة آية في الخفة ــ تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس ــ كأنها الهلال في ليلته الأولى ، ثم اختفى تحت المشربية فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسين فما راعها الا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسها ..! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها في رعب فاضح ، فتسمرت في موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبة دون أن تشعر بها ؟!.. وماذا رأت ؟!.. متى وكيف وماذا؟ أما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة ــ عبثا ــ بضبط الأعصاب وهى تغمغم :

ــ أرعبتنى يا شيخة ..!

لم تبد خديجة اكتراثا ، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها الى الطريق خلل الزيق .. ثم تمتمت ساخرة :

ــ أرعبتك ؟!.. اسم الله عليك !.. أصلى بعبع ..!

وعضت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا أنها قالت بصوت هادىء :

ــ رأيتك فجأة فوق رأسى دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسترقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنبة في استرخاء ساخر وهى تقول :

ــ آسفة يا أختى ، في المرة القادمة سأعلق جرسا في عنقى مثل عربة المطافىء لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعبين .

فقالت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها :

ــ لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك أن تسيرى كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى :

ــ ربنا يعلم أنى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر انك اذا وقفت وراء النافذة ــ أقصد وراء هــذا الزيق ــ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا .

فنفخت عائشة مغمغمة :

ــ هكذا انت دائما .

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيها عن فريستها ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر في مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر الى الأخرى :

ــ اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يا بو الشريط الأحمر ياللى أسرتنى ترحم ذلى » !.. وكم حسبته بسلامة نيتى يا عينى غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا أن اليأس نفسه دفعها الى الاستماتة في الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه :

ــ ما هذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خــديجة أنها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة :

ــ ولهذا أيضا تتزين في الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسى

أيعقل أن تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟!. ولكن أى كنس وأى تنفيض يا خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ، وتموتين بلهاء ، اكنسى أنت ونفضى أنت ، ولا تتزينى لا قبل العمل ولا حتى بعده ، ولمــاذا تتزينين يا تعيسة ؟! انظرى من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسكرى دورية أقطع ذراعى !

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية :

ــ حرام عليك .. حرام .

ــ لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم ، عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط أحمر ونجمة لامعة ، شيء مفهوم ومعقول .

ــ خديجة ، أنت مخطئة ، كنت أنظر الى الطريق فحسب ، لا لأرى أحدا ولا ليرانى أحد .

فالتفتت خديجة اليها كأنما تنتبه الى اعتراضها لأول مرة وتساءلت كالمعتذرة :

ــ هل تخاطبيننى يا شوشو ؟! لا مؤاخذة انى افكر في بعض الأمور الهامة فأجلى حديثك الى حين ، وعادت تهز رأسها في تفكير وتخاطب نفسها قائلة :

ــ شيء مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك أنت يا سيد أحمد عبد الجواد ؟! أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال شوف حريمك يا سيدى وتاج رأسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها ، فدار رأسها ، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمى في خطبة مريم « أخبرينى هل رآها ؟ » .. « ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران » ، هذا رايه في الابن فكيف يكون في البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

ــ خديجة .. لا يليق هذا .. أنت مخطئة .. أنت مخطئة .

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

— ترى أهذا هو الحب ؟! يمكن ! ألم يقولوا عنه : « الحب كبش في قلبى .. قربت أروح منه طوكر » .

ترى اين طوكر هذه ؟! لعلها في النحاسين ، بل لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد .

— لم أعد أحتمل كلامك ، ارحمينى من لسانك ، رباه .. لماذا لا تصدقيننى ؟!

— تدبرى أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعبا ، وأنت الأخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم أولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك ؟! الحق انى لا أدرى كيف أخاطبه في مثل هذا السر الخطير ، ياسين ؟! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمى ؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها ، أظن من الأفضل أن أخبر نينة ، وأترك لها التصرف بما ترى .

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة اليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض:

— ماذا تريدين ؟

فتساءلت خديجة :

— أتهددينني ؟!

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجعلت خديجة تحدق اليها صامتة متفكرة ، ثم زايل أساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى في غير ارتياح الى نشيج الفتاة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة :

— لقد أخطأت يا عائشة .

وأمسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن أنفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثر واضحا فاستطردت قائلة :

— يجب أن تقرى بخطئك ، خبرينى كيف سولت لك نفسك هذا العبث يا مجنونة ؟

فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :

— أنت تسيئين الظن بى .

فنفخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد أنها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء أو حتى المعابثة ، انها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر — أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة — لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة في اشباع هذه الميول الودية قالت :

— لا تكابرى ، لقد رأيت كل شىء بعينى ، لست الآن أهزل ولكنى أريد أن أصارحك بأنك أخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضى ولا يود أن يعرفه في حاضره أو مستقبله ، انه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، أصغى الى واعقلى نصيحتى ، لا تعودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شىء وان طال كتمانه ، فتصورى ماذا يكون من أمرنا جميعا لو لمحك أحد في الطريق أو أحد من الجيران ، وأنت أدرى بألسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نمى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الندم الذى ينزفه الضمير في الداخل اذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

— حذار ، حذار ، فاهمة ؟.. « ثم نسمت عليها نسمة سخرية فغيرت لهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن

يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها نقول لك مع الف سلامة، بل في ستين داهية يا ستى ..

استردت عائشة أنفاسها ، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة طويلة ، وكأن خديجة عز عليها — برؤية هذه الابتسامة — أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

— لا تظنى أنك بلغت بر الأمان ، ان لسانى لا يسكت اذا لم تجسنى مشاغلته ..

فتساءلت الأخرى في ارتياح :

— ماذا تعنين ؟

— لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهيه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبة ملبس مثلا من شنجرلى ..

— لك ما تشتهين وأكثر .

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها . على أن قلب خديجة كان — كما كان من بادىء الأمر — مرتعا لضروب من المشاعر متباينة .. غيرة وحنق واشفاق وحنان ..

- ٢٣ -

كانت ست أمينة مشغولة باعداد أدوات القهوة استعدادا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفى مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

— ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن في زيارتك ..

أخلت الأم يديها من كل شيء ، وانتصبت قامتها في عجلة دلت على تأثير الخبر في نفسها ، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام

شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها ، ثم تمتمت استزادة من التوكيد :

— غريبات ؟!

فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

— نعم يا ستى ، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لى « أليس هذا بيت السيد احمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق ؟ » فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لى احداهن ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما على الرسول الا البلاغ » فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنا الأحلام » ..

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :

— أدعيهن الى حجرة الاستقبال .. أسرعى ..

ولبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة في خواطرها الجديدة ، في الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسها فنادت خديجة بلهجة لاتحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر ، وما أن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح :

— ثلاث سيدات غريبات في حجرة الاستقبال .. ارتدى خير ملابسك .. واستعدى ..

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها ايضا كأنما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها في الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت أمها غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الألم ، متسائلة « ما وراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

ــ اذهب الى أبلة مريم وقل لها ان خديجة تقرئك السلام وترجوك أن ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..

وتلقف الغلام الأمر وهو يعدو الى الخارج ، أما خديجة فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة التى لحظتها بعين متسائلة :

ــ اختارى لى أحسن فستان .. احسن فستان بلا استثناء .

فتساءلت عائشة :

ــ ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟.. زائرة ؟! من ؟! ..

فقالت خديجة بصوت خافت :

ــ ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » .. غريبات ..

فتراجع رأس عائشة في دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

ــ آه .. هل يفهم من هذا أن .. ياله من خبر .

ــ لا تتسرعى في الحكم .. فمن يدرى عما هناك .

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

ــ في الجو شىء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..

فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها ، واقتربت من المرآة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

ــ لا بأس بوجهى الآن ، وجه مقبول ، «ثم رافعة راحتها» .. اما على هذه الحال فربنا وحده المنجى !..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعدها في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

ــ لا تفمطى نفسك .. ألا يسلم شىء من لسانك !.. ليست العروس أنفا فحسب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم الخفيف !

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ــ الناس لا ترى الا العيوب ..

ــ هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس ، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله ..

ــ سوف أجيبك حين أفرغ لك .. !

فربتت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

ــ ولا تنسى هذا الجسم البض الممتلىء .. يا له من جسم !

فضحكت خديجة في سرور وقالت :

ــ لو كان العريس أعمى ما عملت حسابا لشىء .. وانى أرضى به في تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر ..

ــ وماذا يعيب شيوخ الأزهر !.. أليس منهم من خيراته كالبحر ؟!

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ــ ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

ــ ليس في بيتنا كله نقطة بودرة او كحل أو أحمر كأن ليس به نساء ..!

ــ من الأفضل أن تبلغى هذا الاحتجاج لوالدنا ..

ــ أليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟

ــ انها جميلة هكذا بلا زينة !

ــ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ــ أرسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل وجهى وجه أقابل به الخاطبات عاطلا ؟!

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها وأخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ،

على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :
ـ يا له من شعر سبط طويل .. ما رأيك ؟ سأجدله في ضفيرة واحدة ، الا يكون ذلك أروع ؟
ـ بل ضفيرتين .. ولكن خبرينى هل أبقى الجراب في قدمى أو أدخل عليهن عارية الساقين ؟
ـ ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنى أخشى اذا أبقيته أن يحسبن بساقك أو قدميك عيبا تتعمدين اخفاءه ..!
ـ صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن ..
ـ قوى قلبك ، ربنا يوعدنا ..
وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى أخته أدوات الزينة وهو يقول :
ـ قطعت السلم والطريق جريا ..
فقالت له خديجة باسمة :
ـ عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟
ـ سألتنى هل عندنا ضيوف .. ومن هن ، فاجبتها بأنى لا أدرى ...
فتجلت في عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تسأله :
ـ وهل قنعت بهذه الاجابة ؟
ـ حلفتنى بالحسين أن أصرح لها بما عندى فحلفت لها بأنه ليس عندى غير ما قلت ..
فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل ..
ـ ستخمن ما هنالك ..
فقالت خديجة وهى تذر البودرة على وجهها :
ـ انها بنت هرمة ، وهيهات أن يفوتها شيء ، وأراهنك على انها سوف تزورنا غدا على الأكثر لاجراء تحقيق شامل ..
ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم

يستطع مغادرتها تحت اغراء المشهد الذى يمثل أمام عينيه ، والذى يراه لأول مرة في حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخته وهو يلقى هذا التغير الذى استحال معه وجها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفى على حدقتيهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :
ـ انت يا أبلة الآن كالعروس التى يشتريها بابا في مولد النبى ...
فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :
ـ هل أعجبك الآن ؟
فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول :
ـ لو تزول هذه !
فتفادت من يده ، ثم قالت لأختها :
ـ أخرجى هذا النمام ..
فقبضت عائشة على يده وجذبته الى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجته واغلقت الباب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهما في صمت وجد . ومع أنه كان من المتفق عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا أن الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر :
ـ ينبغى أن تتأهبى أنت أيضا لاستقبال الزائرات .
فقالت عائشة بمثل مكر أختها :
ـ لن يكون هذا قبل أن تزفي الى عريسك !
ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة :
ـ اما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر ؟!
فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت :
ـ من يكون القمر ؟
فقالت عائشة ضاحكة :

— طبعا أنا ..!

فلكزتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

— لو تعيريننى أنفك كما أعارتنى مريم علبة بودرتها !

— تناسى أنفك ولو الليلة على الأقل ، ان الأنف — كالدمل — يضخم بالدأب على التفكير فيه !..

أوشكتا عند ذلك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها واتجه في رهبة الى موقف الامتحان الذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن — قبل كل شيء — بالقياس الى خطورة عواقبه ، وما لبثت أن قالت متشكية :

— أية جلسة هذه التى قضى على بها !.. تصورى نفسك في مكانى ، بين نسوة غريبات لا تدرين أى خلق خلقهن ولا أى أصل أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من أمرى لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلا .. هه ؟ وماذا بوسعى الا أن اجلس بينهن في أدب واستسلام أتلقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن الأمام والخلف ، وأصدع بأمرهن بلا أدنى تردد ، اذا طلبن قياما قمت ، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى وأعضائى وقسماتى ، وعلينا بعد هذه « البهدلة » كلها أن نتودد اليهن ونطرى لطفهن وكرمهن ، ثم لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب ، أف .. أف .. ملعون الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

— بعد الشر عنه !

فقالت خديجة ضاحكة أيضا :

— لا تدعى له حتى نتأكد انه من نصيبنا .. آه يا ربى كم ان قلبى يدق !...

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

— صبرك .. ستجدين في المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت .. ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لأنفسهن ياليت الذى جرى ما كان ..!

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن في الوقت متسع لرد الهجوم ، ولم تجد في الهجوم — الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا — لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء ، ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة ، وعائشة — الى الوراء خطوتين — تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

— أحسنت يداك ، منظر حسن اليس كذلك ؟ ... هذه خديجة حقا .. لا بأس بأنفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد صار كل شيء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة بسرعة) استغفر الله العظيم ، لك في كل شيء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة في سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

— أدعى لى يابنت ..

وغادرت الحجرة ..

- ٢٤ -

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت في المدفأة الكبيرة التى توسطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة ، الذكور في معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهيأ لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة لدفء ، وقد بدا فهمى – على حزنه الصامت الطويل في الأيام الأخيرة – كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام ، ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد أنه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عبأه بعد ذلك على والديه والأقدار ، فلذلك قال:

– عندى خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الأعين باهتمام لم يشذ عنه أحد ، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقا كما قال ، أما فهمى فاستطرد قائلا :

– الخبر هو أن حسن افندى ابراهيم ضابط قسم الجمالية – وهو من معارفي كما تعلمون – قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته في خطبة عائشة ..!

وأحدث الخبر – كما قدر فهمى من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير – آثارا جد متباينة ، فتطلعت الأم اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفى وجهها عن الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق ، أما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها

كانت كتلميذ يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان – اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الأم في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

– أهذا كل ما قال ؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

– بدأنى بقوله انه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى.

– وماذا قلت له ؟

– شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال رغبة في استطلاع شىء تود معرفته ، ولكن لتدارى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى، ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتى جئنها منذ أيام ؟! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن – قبل ظهور خديجة – وهى بمعرض الحديث عن أسرة السيد أحمد انهن سمعن أن للسيد كريمتين فأدركت وقتها أنهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى أسرة تاجر بالدرب الأحمر – غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشغال – ولكن هذا لا ينفى نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص ، وكم ودت أن تسأل فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها أشفقت من أن يجىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن أمها – اتفاقا – بطرح ما يعتلج في صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة :

– لعله هو الذى بعث بالزائرات اللاتى زرننا منذ أيام ؟

ولكن فهمى بادر قائلا :

— كلا ، فقد قال لى انه سيرسل أمه الينا في حالة الموافقة على طلبه ..

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتى زرن والدته قريباته ، بيد أنه أشفق من ايلام شقيقته الكبرى التى كان — على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط — يعطف عليها عطفا أخويا ، ويألم أشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة أثر قوى في البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانى :

— يبدو أننا سنجمع قريبا بين فرحتين ..

فهتفت الأم في فرح صادق :

— ربنا يسمع منك ..

— هل تخاطبين أبى نيابة عنى ؟..

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه — عقب النطق به — وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكأنه ألقى عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه ، أو كأنه حين ألقى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر سؤالا مماثلا لهذا السؤال توجه به الى أمه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه ، وهاجت آلامه ، وعاوده احساسه بالظلم الذى وأد أمله ، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارا في الأيام الأخيرة ، كم كان يكون سعيدا بيومه مستبشرا بغده راضيا عن الحياة كلها لولا ارادة ابيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره ، فاستسلم للحزن الذى يقرض شغاف قلبه . أما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

— ألا يحسن بنا ان نفكر فيما عسى أن أجيب أباك اذا سألنى عما دعا الضابط الى طلب عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير هذه ولا تلك ؟..

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة أمهما معا ، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد ، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذى يأبى الا أن يجزى النزق والاستهتار بالاحسان ، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الحلق — وهو نشوان بازدراد أكلة لذيذة شهية — شوكة حادة مدسوسة في الطعام ، وسرعان ما امتص الخوف مرارة الفرح التى كان ينتفض بها روحها . فهمى وحده الذى ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا عن عائشة — فانه ماكان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات — ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب أباه في شخص أمه ، وهو لا يدرى :

— هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتى لايقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال .

ولكن الأم لم تقصد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

— ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات ؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التى أبت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم ، فقالت :

— هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجل ذاك ..

فقالت الأم بهدوء مؤثر :

— كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة.

ولم يسع عائشة الا أن تقول برقة وتسليم :

ـ هذا أمر مفروغ منه ..

امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التى تتكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحنقها ، ربما لأنها أوحت بعطف ابته كل الاباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفى حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ، وأخيرا لم يسعها الا أن تقول بلهجة لم تخل من حدة :

ـ لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل أن يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد !..

وتنبه فهمى الى ما ينطوى عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالايثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية أختها فقال موجها خطابه اليها :

ـ ان مفاتحة بابا عن رغبة حسن افنـدى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس اذا نلنا موافقته على الخطبة ، أن نؤجل اعلانها للوقت المناسب !..

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الرأى الذى يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رأيه الا انه روح عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء مايشاء فقال :

ـ الزواج مصير كل حى ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع ـ الذى كان يتابع الحديث باهتمام ـ متسائلا على غير انتظار :

ـ نينة .. لماذا كان الزواج مصير كل حى ؟

ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من أثر الا عند ياسين الذى قمقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين قالت الأم :

ـ أعلم أن كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ، ولكن هناك اعتبارات لاينبغى اغفالها ..

وعاد كمال يسألها :

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هـذا من حدة التوتر وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

ـ أعرضى الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..

وقالت خديجة باصرار غريب :

ـ لابد من هذا ، لا بد من هذا ..

كانت تعنى ما تقول : لأنها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها ـ الى هذا وذاك ـ ما زالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع انها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

- ٢٥ -

مع أن السيدة امينة جربت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التى تكدر الصفو الا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طارىء من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا في ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة

الجوهرية في الدنيا ، ومع هذا انقلب في بيتها ، بل في قلبها خاصة ، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكم كانت صادقة وهي تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذي تتلهف النفوس على استقباله ، يجر علينا هـذا التعب كله !.. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من راى دون أن تطمئن الى واحد منها ، رات حينا أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورات حينا آخر ان الالحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب ، والى هذا وذاك شق عليها كثيرا أن توصد الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى . ولكن ما عسى أن يكون حال خديجة اذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها ؟!.. لم تدر لنفسها مستقرا ، خاصة وأن ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهي تتحفز لالقاء العبء كله على عاتق السيد ، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما اقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

— سيدى .. حدثني فهمي قال ان صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة ..

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة الى حيث تجلس المرأة على شلتة غير بعيدة من قدميه ، كأنما تقول لها : « كيف تحدثينني عن عائشة وانا في انتظار اخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث » .. ثم تساءل ليستوثق مما سمع :

— عائشة ؟..

— نعم يا سيدى ..

ونظر السيد أمامه في ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

— قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه ..

فقالت المرأة في عجلة ان يظن بها معارضة لرأيه :

— انى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على كل شيء مما يدور بيننا ..

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما في قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتساءل في اهتمام وقلق :

— ترى الهذا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهي منفردة بفهمي ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير في المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانهما كما اقترح فهمي ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتتت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

— نعم يا سيدى ، علم فهمي أنهن قريبات صديقه ..

فعبس السيد غاضبا ، وكعهده اذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

— من هو هذا الصديق ؟

فقالت — وهي تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب:

— حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا في انفعال :

— قلت انك أدخلت خديجة وحدها على السيدات ؟!..

— نعم يا سيدى ..

— هل زرنك مرة أخرى ؟

— كلا يا سيدى والا كنت اخبرتك .

فسألها منتهرا كأنما هى المسئولة عن هذه الغرابة :

— أرسل قريباته فراين خديجة ، واذا به يطلب عائشة !.. ما معنى هذا ؟!..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

— في مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعد أن يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن في حديثهن معى الى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكد لديهن ما سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط في ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت مكتفية باتمام الحديث باشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » .

وحدج السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ، وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

— عرفنا كل شىء ، ها هو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فأسمعينى رأيك ؟..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردد وهى تبسط راحتيها في تسليم :

— رأيى رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره ..

فصاح في زمجرة :

— لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى في الأمر .

فقالت في لهجة ملهوجة واشفاق :

— ما حدثتك يا سيدى الا لأخبرك عما جد في الأمر ، لأن واجبى يقضى على بأن أطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد ..

فهز رأسه في حنق قائلا :

— من يدرى .. أى والله من يدرى .. ما أنت الا امرأة ، وكل امرأة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد ، فلعلك

فقاطعته بصوت متهدج :

— سيدى أعوذ بالله مما تظن بى ، ان خديجة ابنتى ومن لحمى ودمى كما هى ابنتك .. وان حظها ليفتت كبدى ، أما عائشة فما تزال في أول ربيعها ولن يضيرها أن تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها ..

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى توقف فجأة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

— هل علمت خديجة ؟

— نعم ياسيدى ..

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

— كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا لم يرها ؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

— قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها ..

— ولكنه يعمل في قسم الجمالية اى في حينا ، وكأنه من أهله ..

فقالت الأم في تأثر شديد :

— ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة في سن الطفولة ..

فضرب كفا بكف وصاح بها :

ـ مهلا .. مهلا .. هل حسبتنى اشك في هذا يا ولية ؟! لو شككت فيه ما أشبعنى القتل !

انما أتحـدث عما يجـرى في عقول بعض النـاس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى » .. ما شاء الله ، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهما ؟!.. يا لك من مجنونة مهذارة ، انى أردد ما قد تشيع به ألسنة السفهاء من الناس ، أجل .. أنه ضابط الحى ، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لاحدى الفتاتين اذا علموا بزواجه منها .. لا أحب، لا أريد أن أعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى ، بل لن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى أن دافعه الأول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة في مصاهرتي أنا .. أنا .. أنا .. « لم تقع عين رجل على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست أمينة ..

وصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع في ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع النسيد ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ـ ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه؟.

(ثم محركا رأسه في أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق انى لم أنجب الا اناثا .. خمس اناث .

- ٢٦ -

على اثر مغادرة السيد للبيت ذاع رأيه في خطبة عائشة ، ومع أنه قوبل بتسليم عام ـ تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم ـ الا انه كان متباين الصدى في النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه أن تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل أن يبت أبوه في الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب في سعادة عائشة وأمكنه أن يجهر برأيه فقال :

ـ لا شك أن مستقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التى تتاح لها ، الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للتأخر حظا أوفر من المتقدم ..

ولعل خديجة كانت اشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة في سبيل أختها ، لم تكن تفكر في الحرج وهى تحت المطرقة ، ولكن حين نما اليها رأى أبيها الحاسم . وتقهقر الخطر الذى يتهددها ، زايلها الخنق والألم وحل محلهما شعور أليم بالخجل والحرج ، ومع أن حديث فهمى لم يترك في نفسها أثرا حسنا لأنها طمعت في أعماقها ان تجد من الجميع حماسا لرأى أبيها وأن تبقى هى الوحيدة المعارضة له ، الا أنها قالت معلقة عليه :

ـ صدق فهمى فيما قال : وكان هذا رأيى دائما ..

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا :

ـ الزواج مصير كل حى .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة ان تسيء خديجة فهمه او تظن ان ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار برىء ، والى هذا وذاك كان احساسه الباطنى بأنه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الرأى الخليق بجرح أحد من أفرادها .. ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقسرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بآلامها التى صممت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل اجمعت على اعلان الارتياح مجاراة لجو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها .. والذى تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

ــ لا يصح أن أتزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة) .. لماذا تتعجلون الزواج ؟.. ومن أدراكم بأننا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها في بيت أبينا ؟!

ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التى تندفع مبسوطة الجناحين ــ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ــ على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة ..

على انها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها ، ان لا ثمة أمل غامض داعب احلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير .. وقد تطوعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس . ليس لها من الأمر

شيء . هذه ارادة الأب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر ، أما الاحتجاج فاثم لا يطيقه أدبها وحياؤها ، افاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم ، ما أكثف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها اذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو ، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضى وواقع الحال واحلام المستقبل ، وعلى اغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره ــ تبعا لذلك ــ في شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة ، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقا خبا النور ؟!

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملأ قلبها وخيالها ؟!

سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك أن الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر في الأعماق والآمال المتطايرة في الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعود فتستقر في الأعماق ، ثم تطفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها ــ وقد ودعت النفس آخر آمالها ــ فلا تغادره الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا .. كلمة من هناك .. واقتراح يعلن ورأى يبسط . في هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمة ، وتشجيع كأنه الدعابة . ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج

في التاريخ الذى تنزل عنه الأسرة النسيان ، أين قلبها من هذا
كله ؟!.. لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له ، في
الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست
منهم ، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة
واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها
خلقا جديدا ؟!.. كلمة واحدة لا أكثر ، لا تزيد عن لفظة «نعم»
ثم تحدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد في
المناقشة الطويلة التى انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذلك
مشيئته ، وارتضى لها هذا العذاب كله . ومع أنها كانت متألمة
حانقة ساخطة الا أن ألمها وحنقها وسخطها وقفت عند شخص
أبيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا اعترضه
مروضه ، الذى يحبه ويخافه ، لم يسعها أن تحمل عليه ، ولو
في أعماق سريرتها ، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضمر له
الا الاخلاص والوفاء كأنه اله لا يجوز أن تقابل قضاءه الا بالتسليم
والحب والوفاء ..

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق
فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجدب الى الأبد ، وضاعف من
توتر أعصابها الدور الذى صممت على أن تمثله بينهم ، دور
البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم
حتى ناءت هامتها الذهبية بحملة ، وانقلبت الأصوات في أذنيها
وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت
في اعياء كالمرضى ، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها
لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها ..

بيد أنه لحق بها رقيب ـ خديجة ـ أيقنت من باديء الأمر أن
تصنعها لن يجدى معها شيئا وقد تحامت في المجلس نظراتها أما
الآن ـ اذ جلست اليها ـ فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن
تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلل

صوتها الى أذنيها بين لحظة وأخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا
لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لأنها أملت وراء الاعتذار والحرج
اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء . ولم يطل
الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :

ـ عائشة ، انى حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لى ، وكم
وددت لو تواتيني الشجاعة فأرجو أبى أن يعدل عن رأيه ..

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة
حنق ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها
اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التى ظلت تتحدث بها
في مجلس أمها فقالت :

ـ فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ أبى وما ظلم ولا داعي
للعجلة !..

ـ هذه ثانى مرة يؤجل زواجك بسببى .

ـ لست آسفة مطلقا ..

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

ـ ولكن هذه المرة غير المرة الأولى ..

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق
قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب
الكامن يثار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو قصدا كما يثار
الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت
مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها ،
وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

ـ لهذا تجدينني في غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ،
وما شدة الا وبعدها الفرج ، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من
نصيبك بالرغم مما بدا ...

وهتفت جوارحها :

« ربا ليت »

أما لسانها فقال :

ـ سيان عندى ، الأمر أبسط مما تظنين .

ـ ارجو ان يكون كذلك .. انى جد حزينة وآسفة يا عائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذى تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق :

ـ لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجه على سوء مقابلتها له :

ـ لا تنهرينى .. وافسحى لى ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة ويدا الى الأخرى ، وراح يدغدغهما ، ليهيىء لحديثه جوا طيبا غير الجو الذى انذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما نترتا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

ـ آن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف في غيظ :

ـ لن اذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه !

ـ عم تسأل في هذه الساعة من الليل ؟

فقال مغيرا لهجته حتى يستجيبا له :

ـ اريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما ؟

فصاحت بها خديجة :

ـ انتظر حتى يجىء الزواج !

فتساءل في عناد :

ـ ولكن ما هو الزواج ؟

ـ كيف أجيبك وأنا لم أتزوج .. اذهب ونم الله لا يسيئك .

ـ لن اذهب حتى أعرف ..

ـ يا حبيبى توكل على الله وفارقنا ..

قال بصوت حزين :

ـ اريد أن أعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت في ضجر :

ـ نعم يا سيدى .. ماذا تريد أيضا ؟

فقال في جزع :

ـ اذن لا تتزوجا .. هذا ما أريد ..

ـ سمعا وطاعة ..

فعاد يقول في احتجاج ثائر :

ـ أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدا عنا وسأدعو الله الا يزوجكما ..

فهتفت :

ـ من فمك لباب السما .. عال .. عال .. وربنا يكرمك . تفضل فارقنا مع السلامة .

- ٢٧ -

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يوم راحة يستطيع ـ اذا شاء ـ أن يستروح فيه نسمة من الحرية البريئة في أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غدا في حل من أن يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن ان تنسلا مساء الى بيت مريم لقضاء ساعة في لهو ومرح ؟ لم تجىء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفء والبشاشة ، اذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد الى بورسعيد في مهمة تجارية تدعوه كل عدة أعوام الى السفر يوما أو بضع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الأسرة .. وتجاوبت رغباتهم الظماى الى الحرية في الجو الطليق الآمن الذى خلقه على غير انتظار رحيل

الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماح
الغلام وقفة المتردد ، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة
على سيرتها المألوفة ، وأن تلتزم — في غياب الأب — الحدود التى
تلتزمها في حضوره خوفا من مخالفته أكثر منها اقتناعا بوجاهة
شدته وصرامته ، ولكنها ما تدرى الا وياسين يقول لها :

— لا تعارضى بالله .. اننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس ،
بل أريد أن أقول شيئا جديدا .. لماذا لا تروحين عن نفسك
انت ؟!.. ما رأيكم في هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الأعين في دهشة ولكن أحدا لم ينبس بكلمة ،
ولعلهم — كأمهم التى رمته بنظرة تأنيب — لم يحملوا قوله
محمل الجد ، الا أنه استطرد قائلا :

— لماذا تنظرين الى هكذا ؟!.. لم أخطىء في البخارى ، وليس
ثمة جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه
وقد القيت نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه
أربعين عاما دون أن ترى منه شيئا ..

فتنهدت المرأة متمتمة :

— سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

— علام يسامحنى ؟.. هل اقترفت ذنبا لا يغتفر ؟. والله
لو كنت مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين ... سيدنا
الحسين الا تسمعين ؟.. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو
قريب ، قومى انه يدعوك اليه ..

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره في احمرار وجهها فخفضت
راسها لتخفى تأثرها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة
تفجرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممن
حولها حتى ياسين نفسه ، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف
الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب قلبها للنداء ، ولا كيف تطلع

بصرها الى ما وراء الحدود المحرمة ، ولا كيف تراءت المغامرة
ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا
— له صفة القداسة — للطفرة اليسارية التى نزعت اليها
ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها التى تمخضت عنها نفسها اذ
لبت دعاءها في الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما
تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاء الى الحرب بحجة الدفاع
عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير
ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

— زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

— ابى في طريقه الى بورسعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ،
وبوسعك — زيادة في الحيطة — أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف
حتى اذا اتفق أن رآك أحد وانت تغادرين البيت أو وانت
تعودين اليه ظنك زائرة ..

ورددت عينيها بين الأبناء في خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد
من التشجيع ، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح ، وكأنهما
تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيسة في الانطلاق ، وفرحتهما
بزيارة مريم التى باتت — بعد هذا الانقلاب — في حكم المقرر ،
وهتف كمال من أعماق قلبه :

— سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق ..

وحدجها فهمى بنظرة عطف اثاره في نفسه ما طالعه في
وجهها البرىء من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة
جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة :

— ألقى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن
تنسى المشى من طول لزومك للبيت ..!

وفي فورة الحماس جرت خديجة الى أم حنفى ثم عادت
بملاءتها ، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم

عيدا سعيدا لا عهد لأحد به ، واشترك الجميع — وهم لا يدرون — في الثورة على ارادة الأب الغائب ، والتفت الست أمينة في الملاءة وأسدلت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت في المرآة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بدلته وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه ، ركبها شعور الرهبة الذي يلازم المواقف الفاصلة فرفعت عينيها الى فهمي وتساءلت :

— ما رأيكم ، هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

— توكلي على الله ..

وتقدمت منها خديجة . ووضعت يدها على منكبها ودفعتها برفق وهي تقول :

— الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها .. ووجدت أم حنفي في انتظارها ، فألقت الخادم على سيدتها — أو بالحرى على الملاءة الملتفة بها — نظرة فاحصة ، ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب ، فانقادت لها سيدتها التي كانت ترتدي الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها في تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة ، فألقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك ..

ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجي الى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطأة الاحساس بالذنب ، وتحركت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادىء

المشي الاولية ، الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهي تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربية — عم حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان وبيومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلى — حتى توهمت أنهم سيعرفونها كما تعرفهم — أو لأنها تعرفهم — ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بديهية في رأسها وهي أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لأنه وان يكن أقصر الطرق الى جامع الحسين الا أنه كان لا يمر — كطريق النحاسين — بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما ندر ، وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرأت شبحي ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين ، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم جدت في السير — هي وغلامها — يقطعان الدرب المقفر في شيء من الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالذنب ولكنهما تراجعا الى حاشية الشعور الذي احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماسية نحو الدنيا التي يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها ، ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق ، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمها في الخرنفش — بضع مرات في العام — تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق .. وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما في طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن ، والغلام يحدثها في اسهاب مزهوا بدور المرشد الذي يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذي يجب — قبل الدخول فيه — تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التي تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان « ذقن

الباشا » مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو أشجاره او يسميه
احيانا أخرى « ميدان شـنجرلى » ساحبا عليه اسم بائع
الشيكولاته التركى ، أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ،
ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف
المدلى من وسط الديدبان الا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب
الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى الى طلب يد
عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما
قبل التحاقه بمدرسة خليل اغا الابتدائية ، فأشار الى شرفتها
الأثرية وهو يقول « في هـذه الشرفة كان الشيخ مهدى يلصق
وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بحذائه خمسا أو ستا أو
عشرا كما يحلو له » ، ثم أومأ الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة
وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا
عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى
أخذ قرشا وابتاع به ملبنا أحمر ، انعطفا بعد ذلك الى طريق
خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع
الحسين ، يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ،
وتعلوه فوق سـور السطح شرفات متراصة كأسـنة الرماح
فتساءلت والبشر يسجع في صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما
اجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه ـ وقد
حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت ـ وبين الصورة التى
خلقها خيالها له مستعينا في خلقه بنماذج من الجوامع التى في
متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجـدت الحقيقة دون
الخيال ، لأنها كانت تنفخ في الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب
منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد أن هذا الاختلاف بين
الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا في فرحة اللقاء التى ثملت بها
جوانحها ، ودار حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا في زحمة
الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة ارض المسجد شعرت بأن بدنها

يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وأنها تستحيل روحا طائرا يرفرف
بجناحيه في سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحى فاغرورقت
عيناها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة
حبها وايمانها وأريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان
بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وابسطته ونجفه
ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الأشياء
من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس
في النهار والهزيع الأول من الليل ، وبيتا من بعد ذلك لصاحبه
الشهيد يذهب فيه ويجيء مستعملا ما فيه من اثاث على نحو
ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه ويصـلى في المحراب
ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط ، وكم تمنى
حالما لو ينسونه في الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى
الحسين وجها لوجه وأن يمضى في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح
وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع
وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه
بعد ذلك عنده من العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه
خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو
يقبل يده « كمال احمد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له
« تلميذ ـ ولن ينسى التنويه بتفوقه ـ بمدرسة خليل أغا »
ويسأله عما جاء به في هذه الساعة من الليل فيجيبه بأنه حب
آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم اليه عطفا ، ويدعوه الى
مرافقته في تجواله الليلى ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلا :
« اضمن لى أن العب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى
عائشة وخديجة في بيتنا الى الأبد ، وان تغير طبع أبى ، وأن تمد
في عمر أمى الى ما لا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ،
وان ندخل الجنة جميعا بغير حساب » .. هذا وتيار الزائرات
الزاحف في بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما في مثوى

الضريح ، طالما تلهفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا ، ها هى تقف بين أركانه ، بل ها هى لصق جدران الضريح نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية ، واقتدى كمال بها ، ثم قرءا الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لاينى عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس في ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها ، وهيهات أن يروى لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها الى تملى ما ظفرت به من سعادة طاردت بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها في نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التى لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستماتت في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكى يقضى على المقاومة التى بدت في صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع حلفها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة

من السائرين في جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادىء الذى جاءت منه فعلاها الارتباك ، وأخذت تتفقد نفسها في اضطراب شامل ، ولم تلبث أن شكت اليه ما تلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذاك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر في وسيلة لاقناع أمه بالدخول الى الدكان وابتياع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى الا وأمه تفلت من يده فالتفت نحوها متسائلا فرآها وهى تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه في ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه — في نفس الوقت تقريبا — سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبية الى صفارة الحاوى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة وألسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته ، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشىء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلبا عينيه في وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا في نحيب حار علا على الضجة التى تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق أمه

مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد احداهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى — في حال اليأس من السلامة — الى أن ترى الموت — ذلك الحتم المؤجل — وهو يطرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون ان يقوموا بشبه بروفا آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعا أن يختموا الحياة بلعبه ، وصاح أحدهم قائلا « صدمها باب السيارة الأيسر في ظهرها » ، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهام الذى يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع أن أتفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدستها » .. وجاء صوت من المحدقين اليها قائلا « ما زالت تتنفس .. أغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر « انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها أبدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله .. » .. ثم انتصبت قامة أول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقى خطبة « ابتعدوا لا تمنعوا الهواء .. فتحت عينيها .. بخير .. بخير والحمد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذى رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له «حسبك يابنى .. امك بخير .. أنظر .. هلم ساعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما في اعياء وخور وقد سقطت عنها الملاءة التى امتدت بعض الأيدى لتعيدها الى موضعها — بقدر الامكان — حول كتفيها ، ثم قدم لها الفطائرى الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من

الماء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد أنفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحدقين بها في ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟ .. رباه لماذا تبكى يا كمال ؟! » وعند ذاك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء يا سيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « القسم » عقلها فرجّها من الأعماق وهتفت بفزع « لماذا أذهب الى القسم ؟ .. لا أذهب الى القسم ابدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فاذا كان بك سوء وجب أن تذهبى أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن أذهب .. أنا بخير » فقال لها الشرطى « توكدى مما تقولين ، انهضى وامشى لنرى ان كان أصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض — مدفوعة بالفزع الذى أثاره ذكر القسم — فنهضت وأصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن « انى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شىء بى » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحدقين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس في وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تأل أن قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها احد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها

« يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل الى أنى أهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وأن الأرض تدور تحت قدمى ، ثم غبت عن كل شيء حتى فتحت عينى على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بى الى القسم ؟! يا لطيف يا رب .. يا منجى يا رب ، متى نبلغ بيتنا ؟! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك أبدا ... جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك في البيت .. آه » .

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألها :

ـ ماذا بك ؟

فأغمضت عينيها وهي تقول بصوت ضعيف :

ـ انى تعبة ، تعبة جدا ، لا تكاد تحملنى قدماى . ادع أول عربة تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر الى سوق العربة حتى وقف بها امامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطأه لها حتى تربعت وهي تتنهد في اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذى الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنح وراءه مطقطقة .. وتأوهت المرأة متمتمة « ما أشد الى ، عظام كتفى تتفكك » هذا وكمال يرمقها في جزع وقلق .. ومرت العربة في طريقها بدكان السيد دون أن يعيراها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة الا نهايتها المحزنة ...

- ٢٨ -

فتحت أم حنفى الباب فأذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة كارو ، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى لحظة قصيرة اذ ما لبثت أن رأت عينى كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عيناها الى سيدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرأة أن تلمس ما تعانى من اعياء وألم فندت عنها آهة وهرعت الى العربة هاتفة «ستى ، مالك ، بعد الشر عنك» فقال الحوذى « تعب بسيط ان شاء الله ، عاونينى على انزالها » وتلقتها المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها الى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاهما تفكر في دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما الا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجي وهي تكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليها فزعتين وهما تهتفان :

ـ نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى أن يغمغم في خوف بالغ :

ـ سيارة !

ـ سيارة !

هكذا هتفت الفتاتان معا مرددتين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال . فولولت خديجة هاتفة « يا خبر اسود .. بعد الشر عنك يا نينة » أما عائشة فانعقد لسانها وأقحمت في البكاء ، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وان

كانت من الاعياء في نهاية فهمست على اعيائها رغبة في تسكين اضطرابهما :

— انى بخير ، لم يحدث سوء ، ما بى الا تعب .

وتناهت الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى رأس السلم ، واطلا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجة الا أن تشير الى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتباك :

— سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من أسئلة الى حين ، وحملا الأم الى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبة ثم سألها فهمى قلقا معذبا :

— خبرينى عما بك يا نينة ، أريد أن أعرف كل شيء ..

ولكنها مالت برأسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأم حنفى وكمال حتى فقد فهمى أعصابه فثار بهن ونهرهن حتى أمسكن ، ثم جذب كمال اليه ليستجوبه عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل أخذوكما الى القسم ، وكيف كان حال الأم في أثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على أسئلته بلا تردد وفي اسهاب ، وعن أكثر التفاصيل ، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت :

— انى بخير يا فهمى ، لا تزعج نفسك ، كانوا يريدون أن أذهب الى القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواى فجأة ، لا تنزعج ، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة ..

الا أن ياسين عانى — الى انزعاجه للحادث — حرجا شديدا

لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشئومة — بهذا وصفت بعد الحادث — فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأى الآخرين . وارتعدت الأم لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمى أن يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرأ دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مبينا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه ، وفي أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها وجاءتها أم حنفى بقدح ماء ثم أحاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسألونها مرارا وتكرارا عما تجد ، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو تقنع بأن تقول اذا ألح عليها الألم « ثمة ألم خفيف في كتفى اليمنى » ثم تستدرك قائلة « ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب » ، والحق انها لم ترتح لاستدعائه أبدا ، لأنها من ناحية لم تلق طبيبا قط — لا لحصانة صحتها فحسب — ولكن لأنها نجحت دائما في مداواة ما يلم بها من توعك أو انحراف بطبعها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمى ، الى أنه اقترن في ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة ، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه أن يهول الأمر الذى تود له الستر والطى قبل عودة السيد .. ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها ، ولكنهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة الا بشيء واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت في ميدان بيت القاضى ، ثم عاد يتقدم الرجل الذى أدخل الى الأم حال حضوره ، واخليت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمى ، وسأل الطبيب الأم عما تشكو فاشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف :

— أشعر هنا بألم ..

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدثه به ياسين في الريق عن الحادث جملة ، تقدم تفحصها ، وطال وقت الفحص في شعور الشابين المنتظرين في الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

ـ كسر في الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك .

وأحدثت « لفظة » الكسر ارتياعا فيالداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على انهم وجدوا في ذات التعبير ، واللهجة التيألقى بها ما يغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..

ـ وهل هو شيء خطير ...؟

ـ كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشده ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام علىالظهر أو الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا .. والآن دعونى أعمل ..

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدا هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة :

ـ فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ما خرجت الا لزيارته ..

وكأنما تذكركمال بقولها أمرا هاما أنسيه طويلا فقال بدهشة:

ـ كيف امكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟

ولكن أم حنفى قالت ببساطة .

ـ ومن أدرانا بما كان يحدث لها ـ والعياذ بالله ـ لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟

ولم تكن عائشة قد أفاقت من أثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار :

ـ آه يا ربى متى ينتهى كل شيء كأنه لم يكن !..

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

ـ ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟! لو رجعت بعد الزيارة الى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث !..

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم:

ـ أرادت أن تتمشى في الطريق وعبثا حاولت أن أثنيها عن ارادتها ..

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها امسكت اشفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسها « حسبنا ما نحن فيه الآن » ..

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه :

ـ ينبغى أن أعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا ..

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة فيالفراش ، مسندة الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحته ، فهرعوا اليها وهتفوا :

ـ الحمد لله ..

كم اشتد بها الألموالطبيب يعالج الكسر فانتأنينا متواصلا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زايلها الآن الألم ، أو هكذا بدا ، وشعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن زوال حدة الألم مكنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت

أن تفكر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصرا زائغا :
ـ ما عسى أن أقول لأبيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال ـ ساخرا متحديا ـ نسمات الطمأنينة التى سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة ، على أنه لم يجىء مفاجأة لوعيهم ، بل لعله اندس في زحمة المشاعر الأليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع في زحمتها فتأجل حسابه الى حين ، الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، ورأوا بحق أنه أشد عليهم وعلى أمهم من الاصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء . وشعرت الأم ـ للصمت الذى قوبل به سؤالها ـ بعزلة المذنب اذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شاكية :
ـ سيعلم حتما بالحادث ، وسيعلم اكثر من هذا بخروجى الذى أدى اليه ..

ومع أن أم حنفى لم تكن دون أفراد الأسرة قلقا ولا أقل ادراكا لخطورة الموقف الا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة ، تلطيفا للجو من ناحية ، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضى عليها ـ كخادم الأسرة القديمة الأمينة ـ بالا تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظن بها عدم اكتراث ، فقالت وهى ادرى ببعد قولها عن الواقع :
ـ اذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه الا أن يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ..
وقوبل قولها بالاهمال الذى يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا أن كمال آمن به ، وقال متحمسا وكأنه يتم كلام أم حنفى ..

ـ خصوصا اذا قلنا له ان خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين ..
ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت :
ـ ما عسى أن أقول له ؟
فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته :
ـ أى شيطان أضلنى حين نصحت لك بالخروج ، كلمة جرت على لسانى وليتها ما جرت ، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا في هذا المأزق الأليم ، على أننى أقول لك بأننا سنجد ما نقوله ، وأيا كان الأمر فلا ينبغى أن تشغلى فكرك بما سيكون ، دعى الأمر لله ، وحسبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف ..
تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الأم عطف المتألم لحالها ، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر الا أنه روح عن شعوره الضيق بالحرج ، وأفصح به في نفس الوقت عما عساه يدور في عقول بعض ـ أو كل ـ من يقفون الى جانبه فأغناهم عن الافصاح عنه بأنفسهم اذ أن التجربة علمته بأنه أحيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو في الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر مايغرى الدفاع عنه بالغضب ، وكان أخوف ما يخاف ان تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهارا مسئولية ما أدت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن تطالبه ـ بصفته المسئول الأول عما وقع ـ بأن يجد لهم مخرجا ، فلما أن ألقى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وأنها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النقار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض الشىء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة :
ـ لماذا لا ندعى انها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها أمها بوجه يتلهف على النجاة من أى سبيل ، وقلبته بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ، بيد أن فهمى تساءل في حيرة :

ـ والطبيب ؟.. سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبى بالضرورة ..

ولكن ياسين أبى أن يغلق الباب الذى تسللت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

ـ نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى ؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع في الوجوه البشر للاحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية في دقائق معدودات ثم تضىء الشمس ، قال ياسين وهو يتنهد :

ـ نجونا والحمد لله ..

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجو الجديد نشاطها المألوف :

ـ بل نجوت انت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

ـ أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى بين حين وآخر لتلسعنى ..

ـ ولكنها هى التى انقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق ..

كادوا ينسون في فرحة النجاة ان أمهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة ، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى ..

- ٢٩ -

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة :

ـ نمت طويلا ..

فقالت عائشة :

ـ ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن ، يالها من ليلة لن انساها مهما امتد بى العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء ـ لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طول الليل يبادلانها الألم والأرق ـ وتحركت شفتاها وهى تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

ـ شد ما اتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

ـ تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودى الى ارعابنا .. (ثم بنبرات غلبها التأثر) .. كيف هاجمك ذاك الألم المخيف ؟!.. لقد حسبتك استغرقت في النوم وانت على أحسن حال ، واستلقيت لأنام بدورى ، واذا بى استيقظ على انينك ، ثم لم تمسكى عن آه .. آه .. حتى مطلع الفجر ..

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

ـ على أى حال ابشرى ، لقد اخبرت فهمى عن حالك حين

سألنى عن صحتك في الصباح فقال لى ان الألم الذى انتابك دليل على أن العظم المكسور كان آخذا في الالتئام ..

وجذبها اسم فهمى من لجة أفكارها فتساءلت :

ــ ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجة :

ــ طبعا ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكنى لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا ..

فتنهدت الأم في استسلام :

ــ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة .. في أى وقت نحن الآن ..

فقالت خديجة :

ــ كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى أن تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فاذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ــ لعله الآن في الطريق الى البيت ..

وأدركتا من تعنى ، ومع أنهما شعرتا بدبيب الخوف في قلبيهما الا أن عائشة قالت بثقة :

ــ أهلا به وسهلا ، لا داعى للقلق ، اتفقنا على ما يبغى أن يقال وانتهى الأمر ..

ولكن اقتراب عودته أشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ــ ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

ــ ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام .

تمنت في تلك الساعة لو بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعاها ، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سرا مغلقا الى الأبد .. الا تجد الحقيقة

فرجة تنفذ منها الى الرجل ؟ .. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولاتدرى أى مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

ــ سيدى جاء ياستى ..

وخفقت قلوبهم في اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الأم ..

ــ لا تتكلما أنتما فانى أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا لى القول والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب أطفالا في الظلام اذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يجوسون في الخارج ، حتى ترامى اليهن وقع اقدام السيد على السلم وهى تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت ..

ــ اذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد احدا ؟! ..

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة :

ــ اخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ..

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيدة ، ووجدت نفسها وكأنها في عزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير ، وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها ــ الأعزل من كل سلاح ــ كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد ان الشك في سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن في أعماق شعورها معلنا عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت « رحمتك يا رب وعونك » ثم تطلع بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض ، ورأته

وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خالته رقيقا على غير عادته :

ـ مالك ؟..

فقالت وهي تغض بصرها :

ـ حمدا لله على سلامتك يا سيدي ، بخير ما دمت بخير ..

ـ لكن أم حنفي قالت لي انك مريضة ..

فأشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

ـ اصيب كتفي يا سيدي لا اراك الله سوءا .

فتساءل الرجل وهو يتفرس في كتفها باهتمام وقلق :

ـ ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصلة ، ما عليها الا أن تتكلم ، أن تنطق بكذبة النجاة ، فتمر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ، ورفعت عينيها وهي تتوثب ، فالتقت عيناها بعينيه ، أو بالأحرى عيناها في عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمة ، هناك تبخر ما جمعته في راسها من راى ، وانتثر ما كتلته في ارادتها من عزم ، ورمشت عيناها في اضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

ـ ماذا حدث يا امينة ؟!

لا تدرى ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين انه لم يعد بوسعها أن تكذب ، افلتت الفرصة دون أن تدرى كيف ، ولو انها اعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى اعادة مخاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثواني غاصت في الارتباك والهزيمة حتى اشفت على اليأس ..

ـ لماذا لا تتكلمين ؟..

ها هي لهجته بدات تنم عن نفاد صبر ولا يبعد ان تقعقع قريبا بالغضب ، ورباه لشد ماهي في حاجة الى العون ، اى شيطان اغواها بتلك الخرجة المشئومة ..

ـ عجبا الا تريدين أن تتكلمي ؟!ه..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر ..

ـ اخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتني سيارة ..

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقرون بالانكار .. وكأنه بات يشك في صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على ان تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب ، كمن يقدم ـ مغامرا بحياته ـ على اجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن باخفاء نبراته الباكية اما لأنه غلبها على صوتها أو لانها ارادت ان تبذل محاولة يائسة لاستدرار العطف ..

ـ ظننت أن سيدنا الحسين يدعوني الى زيارته فلبيت .. ذهبت للزيارة .. وفي طريق العودة صدمتني سيارة .. قضاء الله يا سيدى .. ولقد نهضت من سقطتي دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم اشعر بادىء الأمر بأي ألم فحسبتني بخير وواصلت السير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم فاحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودني يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، لقد اخطأت خطأ كبيرا يا سيدى وجوزيت عليه بما استحق .. والله غفور رحيم ..

انصت السيد اليها صامتا جامدا ، لم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد في وجهه اثر مما يعتلج في صدره على حين نكست هي راسها في تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاعت في جوه المقبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت

من أمره لا تدرى عن اى قضاء يتمخض ولا الى اي مصير يقذفه بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب :

ــ وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟ ..

فالتفتت رأسها صوبه بذهول .. أجل توقعت كل شيء الا ان يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحة ما سمعت ، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم في البكاء ، ثم غمغمت في ذل وانكسار :

ــ قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول :

ــ الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

- ٣٠ -

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق . ثم لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء ، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

ــ خير ان شاء الله ؟..

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكا :

ــ اعترفت له بالحقيقة ...

ــ الحقيقة !..

فقالت باستسلام :

ــ لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن ان يخفى الأمر عليه الى الأبد وحسنا فعلت ...

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

ــ يا نهارنا الأسود ...

على حين بهتت عائشة فحملقت في وجه أمها دون أن تنبس بكلمة ، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء ، وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها به حين لم تكن تتوقع منه الا غضبا كاسحا يعصف بها وبمستقبلها .. أجل شعرت بزهو وحياء وهى تتهيأ للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ــ كان بى رحيما أطال الله عمره ، أنصت الى قصتى صامتا ، ثم سألنى عن رأى الطبيب في خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير على أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى ..

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهما الخوف سريعا فتنهدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

ــ أرأيت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

ــ لكل شيء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال ، الآن عرفنا قيمتها عنده .. (ثم مخاطبة أمها في دعابة) .. يا لك من أم محظوظة ، هنيئا لك التكريم والعطف !

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

ــ أطال الله عمره .. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

ــ يجب أن تلحقى به لأنه سيحتاج الى خدمتك حتما ..

وشعرت الفتاة ـ لما يركبها في محضر ابيها من الارتباك والاضطراب ـ كأنها وقعت في شرك ، فقالت محتدة :

ـ ولماذا لا تذهب عائشة ؟!

ولكن الأم قالت في عتاب :

ـ انت اقدر على خدمته ، لا تتلكئي يا شابة اذ ربما يكون في حاجة اليك الآن ..

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئا كما لايغني عنها عادة كلما دعيت الى اداء واجب ترى الأم انها اقدر عليه من اختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه في امثاله من المواقف ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التى تجد من لسانها اطوع أداة وأحدها ، ثم لتحمل امها على اعادة القول بأنها « أقدر على كيت وكيت من عائشة » كاقرار من امها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها ، والحق انه لو حدث ان عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة اشد ولحالت بينها وبينه ، مادامت تجد ـ في أعماق قلبها ـ أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها في البيت ، ولكنها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس ـ بالقيام بها ـ حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة ، حتى تدعى اليه ـ اذا دعيت ـ في حرج من الداعي ، ولتحتج عليه ـ اذا احتجت ـ في غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذى تود ، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من اجله الشكر !..

ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول :

ـ في كل مأزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد امامك غير خديجة ، ماذا تصنعين لو لم اكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها ان تمثل بين يدي الرجل ،

وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه اذا تلجلجت او ابطأت او اخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو في حاجة اليه امرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت الى الصالة فمكثت بها لتكون رهن اشارته اذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التى يقضيها في البيت يوما بعد يوم حتى تنقضي الأسابيع الثلاثة ؟!.. وبدا لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذى تسده أمها في البيت فدعت لها بالشفاء ، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب الى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعا لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة ، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الأعلى وتسللت الى الصالة حيث تجلس اختها دون أن تحدث صوتا لتريها نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود الى أمها تاركة اياها وهي تغلي من الغيظ اذ كان مما يحنقها اشد الحنق أن يعابثها احد بالمزاح وان لذ لها هي أن تعابث الجميع بمزاحها ، ولم تسترد حريتها ـ الى حين طبعا ـ الا عندما أسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ماقرأت في عينيه من آي العطف والتقدير لخدماتها !.. ولم تنس أن تعرج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبياني ، ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغذاء ، ولما فرغ الرجل من غذائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليها أن تبعث له بياسين وفهمي بمجرد رجوعهما الى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز في نفس الرجل غضب مكظوم وانه يروم الآن – في الشابين – متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمي وعلما بما كان ثم بلغا امر أبيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المراة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى اليهما باهتمام ، وفي النهاية سألهما :

– أكنتما في البيت حين خروجها ؟

ومع أن هذا السؤال كان متوقعا من باديء الأمر الا انه وقع من نفسيهما – بعد الهدوء العجيب غير المنتظر – موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التى ارتاحا اليها ارتياح النجاة ، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف في السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذى استنتجه مقدما ، أو لعله أراد أن يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على أن يشير الى باب الحجرة آذنا لهما بالانصراف ، وعند ما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه :

– ما دام الله لم يرزقنى رجالا فليهبنى الصبر .

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع الا انه لم يستطع أن يثنى ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية !.. فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، الا أنه مر في طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة .. لم تر في ذهابه الى سهرته – وهى طريحة الفراش – تجافيا للعطف ، ولعلها وجدت في مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت تنتظر ، بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟.. وكان الاخوة – قبل مبارحته

حجرته – قد تساءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الأم اجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة؟!» ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هى به ، ولكنها كانت ادرى بطبعه فسبقته بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع امكنها – مداراة لموقفها – أن تسوغ انطلاقه بالعذر الذى انتحلت لا بقلة الاكتراث ؟ ولكن خديجة قالت : « كيف يطيق السهر وهو يراك على هـذه الحال ؟ » فأجابهـا ياسين : « لا عليه اذا فعل ما دام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء ، وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافي مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » . ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التى بدأت تتحرك في أعماقه ، الا أن مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق انت مثلا أن تسهر في قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها في سره : « طبعا لا ، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر ! » .

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذى يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :

– لعله رأى أن جزائى كفاف ذنبى فعفا عنى ، عفا الله عنه وعنا جميعا ..

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :

– ان رجالا غيورين مثله ، منهم اصدقاء له ، لا يرون بأسا في السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجنا مؤبدا ؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته :

– لم لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه ؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم اجابها قائلا :

— يلزمني مثـــل انفك أولا كي ادافع به عن نفسي عنـد الضرورة ..

وتتابعت أيام الرقاد ، فلم يعاودها الألم الذى هصرها أول ليلة وان تهدد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها ، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التى تكره بطبعها السكون والقعود ما جعل الاذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى عذابها على آلام الكسر ابان احتدامها ، ولعلها لولا تشـدد الأبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها .. على أن رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها ، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد اليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبات التى تخاف عليها الاهمال أو النسيان ، فتسأل وتلح في السؤال « هل نفضت أعلى الستائر ؟.. وخصاص الشبابيك ؟.. هل بخرت الحمام لأبيك ؟. هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ » الأمر الذى أحنق خديجة مرة فقالت لها « اعلمى انك اذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فانى أعنى به أربعة وعشرين » .. والى هذا كله أورثها تخليها الاجبارى عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت — أو احد من اهله — بتخليها عنه شيئا من نظامه أو راحته ؟!. وأيهما يا ترى أحب اليها ، ان يبقى كل شيء كما كان بفضل فتاتيها — غرس يديها — أم أن يختل شيء من توازنه يكون خليقـا ان يذكر الجميـع بالفراغ الذى خلفته وراءها ؟!. وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذلك مدعاة لتقديره لاهميتها أو لسخطه على ذنبها الذى جر هذا كله ؟!. تحيرت المراة طويلا بين عاطفتها المسـتحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها ، ولكن المحقق انه لو اختل شيء من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ..

اما الوقع فهو ان فراغها لم يسده احد ، واثبت البيت أنه أبر من الفتاتين على نشاطهما واخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا حارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرا على انزوائها ..

- ٣١ -

وفي فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفى ... ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التى انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفى ، واسـتيقظت المراة وهى لا تصـدق اذنيها ، ثم نهضت الى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرتا عمل الصـباح في سرور لا يوصف ، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت الى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهـانى والقبل ، ثم مضت الى حيث ينام كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص من ذراعيه برقة وهي تقول :

— ألا تخاف أن ترد كتفى الى م كانت عليه ؟..

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا في خبث :

— متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

— عند ما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى الى الطريق الذى كدت اهلك فيه ..!

وادرك انها تشير الى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع

لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد ان ظل ذنبه معلقا فوق راسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف ان يجر التحقيق الذى باشره اخوته الى معرفة الجانى المستتر ، وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حينا وياسين حينا آخر تكشفه في الركن المنزوى فيه لولا صمود أمه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق الى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، ومضت في أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه في الصباح ، وسوف تنيمه في المساء ، رجع كل شيء الى أصله ، ونشر الأمان ألويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وأن يهنىء ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى اليها صوته وهو يردد في صلاته « سبحان ربى العظيم » فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدت نفسها تتساءل « أتدخل لتصبح أو الأجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع في نفسها من الخوف والخجل ، أو كليهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من ـ مشكلة راهنة يشق عليه فضها .. ومضت الى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا ان قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التأجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما املت ولكن محنة انتظار أشد عناء من الموقف الذى نكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت تهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وأن السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم في أثناء رقادها ، ولكن الحق أن برءها رفع عنها الحماية

التى ضربها حولها المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها .. ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث ان دخل السيد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد في وجهه اثر لدى رؤيتها ، وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه في المائدة :

ـ جئت .؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) .. اجلسوا.

واخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد، ومع أن الخوف تناهى بها حال دخوله الا أنها مضت تسترد أنفاسها بعد ذلك ، أى بعد أن تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذاك بأنها لن تجد مشقة في الانفراد به في حجرته عما قليل.. وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرته ، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا في انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه . وحسا السيد قهوته في صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث ، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم أملا ـ ولو ضعيفا ـ في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة ، أو في الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى الا يزال بنفسه شىء ، واخذ القلق ينشب ابره في قلبها مرة اخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يذق معهما طعما ، لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحى الساعة ، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية .. وأخيرا تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

ـ استرددت صحتك ؟

فقالت أمينة بصوت خفيض :

ـ الحمد لله يا سيدى ..

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

— انى أعجب — وهيهات أن ينتهى لى عجب — كيف اقدمت على فعلتك !

فدق قلبها بعنف واطرقت في وجوم .. لم تكن تطيق غضبه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهي المذنبة !.. وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا في استنكار :

— اكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وانا لا أدرى ؟!

عنـد ذلك بسطت راحتيها في جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة :

— أعوذ بالله يا سيدى ، ان خطئى كبير حقا ولكنى لا استحق هذا القول ..

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذى يهون الى جانبه الزعيق قائلا :

— كيف اقترفت هـذا الخطأ الكبير !.. الأنى ابتعدت عن البلد يوما واحدا ؟!

فقالت بصـوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

— اخطأت يا سيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيارة سيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لى في الخروج ولو مرة واحدة ..

فهز راسه في شيء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدال » ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

— ليس عندى الا كلمة واحدة ! غادرى بيتى بلا توان ..

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لاتنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا ، طالما توقعت في أشد أوقات محنتها — وهى تنتظر عودته من رحلة بورسعيد — الوانا من المخاوف ، كان يصب

عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسبابه ، حتى الضرب لم تستبعده ، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا ، لا لشيء الا انها سكنت الى معاشرته خمسة وعشرين عاما فلم تتصور أن ثمة سببا يمكن ان يفرق بينهما أو ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ .. أما السيد فقد تخلص — بكلمته الأخيرة — من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية .. وقد بدأ الصراع في اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفراش ، لم يصدق أذنيه لأول وهلة ، ثم أخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد أنه اجل حنقه ريثما يرى ما أصابها ، أو انه — وهو الأصدق — لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا انساه خطأها وسأل الله لها السلامة ، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد — يومذاك — الى حجرته محزونا مكتئبا وان لم يفصح وجهه .. لا أمامها ولا أمام أحد من الأبناء — عن شيء مما يعتلج في صدره .. الا انه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة ، ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحادث كله — اسبابه ونتائجه — بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها في بيته ، فكان من سوء حظ — حظ الام طبعا — أن يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ، وان يقتنع بأنه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف — وهو ما نزعت اليه نفسه — فقد اضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التى يأبى الا ان يسوسها بالحزم والصرامة ، وبالجملة لن يكون في تلك الحال احمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى ان يكونه أبدا .. اجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو اتيح له أن



ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب في وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها ــ بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع ــ اذ أن هذا الغضب يكون أقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقى ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا في حينه فقد وجب على الجانب المتعمد ــ وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير ــ أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذى تهدد حياتها حينا والذى أمنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير .. ونهض مقطبا فولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء :

ــ سأرتدى ملابسى بنفسى ..

كانت لم تزل متسمرة في مكانها ذاهلة عما حولها فأفاقت على صوته ، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب في خطى لا وقع لها ، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول :

ــ لا أحب أن أجدك هنا اذا عدت ظهرا .

- ٣٢ -

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردد في باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟! ولم تستطع مبارحة مكانها ــ على رغبتها في الفرار ــ أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى أعمالهم

متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر – لعله الحياء – اقعدها
عن أن تلقاهم في ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى
يغادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى
لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة
الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة . ترى ماذا يعنى ؟.
ايطردها الى حين أم الى الأبد ؟ انها لا تصدق انه ينوى تطليقها .
هو اكرم من هذا وانبل ، أجل انه غضوب جبار ولكن من الاسراف
في التشاؤم أن تغيب عنها آى شهامته ومروءته ورحمته . وهل
تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟.. وكيف عادها يوما بعد
يوم مستفسرا عن صحتها ؟.. مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن
يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين أبنائها . وجعلت
تدير هذه الأفكار في رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمأنينة الى
نفسها المزعزعة ، وألحت في هذا الحاحا ان دل على شيء فعلى أن
الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون
تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدرى ماذا
تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ
المحذور . وترامى الى اذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو
يمضى خارجا فأطار أفكارها وانصتت باهتمام تتابعه حتى غاب.
وشعرت عند ذاك بألم جارح لحالها وسخط على الارادة المتحجرة
التى لم ترع لضعفها حقا ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت
الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات
الأبناء وهم ينزلون تباعا فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت
فهمى وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ،
هنالك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته ، وعجبت لنفسها
كيف تركتهما يذهبان دون أن تودعهما ، أليست قد تحرم عليها
رؤيتهما أياما أو أسابيع ؟ وربما لا تراهما مدى العمر الا لماما
كالغرباء ؟.. وعاودها غمز الحنان متتابعا وهى بموقفها من السلم

لا تريم ، بيد أن قلبها – على امتلائه – كبر عليه أن يصدق ان يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور ، لايمانها اللانهائي بالله الذى حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريت نفسها ، ولثقتها برجلها التى تأبى أن تنهار ، ولأنها لم يصبها في حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة الى الحياة الوادعة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيها ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكتين في جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيها الخابية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة في قلق :

– ماذا بك يا نينة ؟

– لا أدرى والله ماذا أقول .. انى ذاهبة ..

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا :

– الى أين ؟!

فقالت بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من أذنيهما بل ومن أذنيها هى نفسها :

– الى أمى ..

فهرعتا اليها مذعورتين وهما تقولان :

– ماذا تقولين ؟.. لا تعيدى هذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت في فزع فتاتيها عزاء ولكنه كشأنه في مثل هذا الموقف فجر أشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها :

– لم ينس شيئا ولم يعف (رددت هذا بأسى دل على عمق حزنها) .. كان يضمر لى الغضب ويؤجله ريثما أبرأ ، ثم قال لى غادرى بيتى بلا توان ، وقال لى أيضا لا أحب ان أجدك هنا اذا

عدت ظهرا (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعا وطاعة .. سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

– لا أصدق ، لا أصدق ، قولى قولا آخر .. ماذا جرى للدنيا ؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

– لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد؟!

وعادت خديجة تتساءل في حدة وحنق :

– ماذا يقصد !.. ماذا يقصد يا نينة .

– لا أدرى ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ..

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلها رغبت بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولكن غلبها الاشفاق من ناحية والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

– لا أظنه يقصد أكثر من ابعادى عنكم أياما عقابا لى على ما فرط منى ..

فتساءلت عائشة محتجة :

– أما كفاه ما وقع لك ؟!

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

– الأمر لله .. يجب الآن أن أذهب ..

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

– لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا ..

وقالت عائشة برجاء :

– انتظرى حتى يعود فهمى وياسين ، ولن يرضى أبى أن ينتزعك من بيننا جميعا ..

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

ـ ليس من الحكمة في شيء أن نتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان ..

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها أسكتتهما باشارة من يدها واستطردت قائلة :

ـ لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، سأجمع ثيابي وأرحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى ان شاء الله ..

وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبكيان كالأطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى امسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

ـ ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتها أو تستسلم للبكاء الذي صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب أن اجمع ملابسي » .

ولكن خديجة قالت بحدة :

ـ لن تأخذي معك الا تغييرة واحدة .. واحدة فقط ..

فندت عنها تنهدة . ودت تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

ـ اخاف أن تثور ثائرته اذا رأى ملابسي بمكانها ..!

ـ سنحفظها عندنا ..

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأم لهما في ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها في البيت مما يثبت لها حقا في العودة اليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التي سمح لها بها ، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها

والفتاتان حيالهما تنظران في حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

ـ سيعود كل شيء الى أصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، اني أعهد اليكما بالبيت وآله ولي كل الثقة في كفاءتكما ، ولا شك عندي في أنك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتا وتعمره ..

ونهضت الى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض في تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم توات احداهما الشجاعة على الارتماء في حضنها كما تود ومرت الثواني محملة بالعذاب والقلق بيد أن المرأة المتجلدة خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهي تهمس:

ـ تشجعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا في البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

- ٣٣ -

طرقت باب البيت القديم وهي تفكر ـ بألم وحياء معا ـ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهي بزاوية اقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها

ولكن بقيت آثارها المتهدمة اتذكرها ــ كلما زارت امها ــ بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود اليها ، وحين تمد رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار . ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس ، ما أن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت أمينة ، ولبثت الخادم بموقفها كانها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ــ أغلقي الباب يا صديقة ..

فتساءلت الجارية بدهشة :

ــ ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت ــ عابرة فناء البيت الذي تتصدره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر ــ الى سلم ضيق فرقيته الى الدور الأول والأخير . ثم اجتازت دهليز الى حجرة امها ودخلت ، رأت أمها متربعة على كنبة في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية في حجرها ، متجهة العينين صوب الباب في تطلع أثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

ــ من .. ؟

وافتر ثغرها وهي تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب ، كأنما حدست هوية القادم ، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

ــ أنا أمينة يا أمي ..

فألقت العجوز بساقيها الى الأرض وتحسست بقدميها

موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقجة الى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعي أمها وهي تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق ، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

ــ جئت وحدي يا أمي ..

فتحول الرأس اليها كالمتسائل ، وتمتمت المرأة :

ــ وحدك ؟!.. (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذي لا يتغير .!

وتراجعت الى الكنبة فجلست وهي تتساءل بلهجة افصحت هذه المرة عن قلقها :

ــ كيف الحال ؟... لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ الذي يعترف برداءة اجاباته في الامتحان :

ــ انه غاضب علي يا أمي ..

ورمشت الأم واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة ــ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبي لا يكذبني ابدا ، وقد انقبض وأنت تقولين لي « جئت وحدي يا أمي » ترى ماذا هيج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قبله ؟!.. خبريني يا بنتي ..

فقالت أمينة متنهدة :

ــ زرت سيدنا الحسين في أثناء سفره الى بورسعيد ..

فتفكرت الأم في حزن وكآبة ثم تساءلت !

ــ وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرصت أمينة من بادىء الأمر على الا تشير الى حادث السيارة

رحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسئولية من ناحية اخرى. ولهذا اجابتها بما اعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :

ـ لعل احدا رآنى فوشى بى عنده ..

فقالت العجوز بحدة :

ـ لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بيتك ، الم تشكى في احد ؟.. هذه المراة أم حنفى ؟! أو ابنه من المراة الأخرى ؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين :

ـ لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى ماتشائين الا الشك في أحد من اهل بيتى ..

فهزت العجوز راسها في حيرة وشك وانشأت تقول :

ـ طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده هو المطلع وهو الكفيل برد كيد الكائد ، ولكن زوجك ؟.. الرجل العاقل .. الداخل على الخمسين .. الم يجد وسيلة لاعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين اولاده ؟!.. سبحانك يا رب . الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور ، هل من الكفر أن تزور امراة فاضلة سيدنا الحسين!. الا يسمح أصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الاغراض ؟!.. أبوك نفسه الذى كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لى في الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل ..

وغلب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلتْ ؟

ـ أى شيء أغراك بعصيانه بعد ذلك العمر الطويل من الطاعة العمياء ؟!.. لشد ما يحيرنى هذا .. اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك

وسعادة الأولاد ، أليس كذلك يا ابنتى ؟.. أعجب شيء اننى لم اجدك يوما في حاجة الى نصح ناصح ...!!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمغمت :

ـ تحكم الشيطان !

ـ عليه لعنة الله ، ايزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوئام والسلام !.. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأمنا حواء من الجنة !.. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع ويعود كل شيء الى أصله .. (ثم وهى كأنها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم ؟!.. ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفى عين الشمس .. (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعى ملابسك واستريحى ، لا تجزعى ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التى ولدت فيها ؟!

فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت اطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها ـ لما ران عليه من فرقة الأحباب ـ لم يكن مهيئا لتلقى موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الحنان الذى تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم يسعها الا أن تتنهد قائلة :

ـ ما بى الا قلق على الأولاد يا أمى ..

ـ انهم في رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم ....

وقامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة ـ حزينة آسيفة لما سمعت ـ من موقفها عند مدخل الحجرة الذى لزمته اثناء الحديث ، ثم عادت المراة الى مجلسها جنب امها وما

لبثتا ان قلبتنا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأن في
تقابلهما جنبا لجنب مايدعوالى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون
الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة
المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين
الأصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب
بين قوانين الوراثة التى تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين
قانون الزمن الذى يدفع الى التغير والنهاية من ناحية أخرى ، ذاك
الصراع الذى ينجلى عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين
الوراثة حتى يغدو قصاراها أن تؤدى وظيفة متواضعة في نطاق
قانون الزمن الصارم . في نطاق ذاك القانون استحالت الأم العجوز
جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية
لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه
بجمال الشيخوخة اى السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين
والرأس المرصع بالبياض . بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر
عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين
بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس
سبيلها — بدون ارشاد الجارية — الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى
حجرتها فتصلى ؛ أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل
الصامت الذى لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال
البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ،
حتى الصفات التى تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس
للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل
صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه
وتلكئها اذا تلكأت في مهمة ، وتأخرها اذا تأخرت في مشوار ، ولم
يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها
عن غسل الحمام والاوانى وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة أشبه ،
ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت في صدر

الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعترى الشيخوخة
ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة
كاملة بعد وفاة بعلها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها
لبصرها ، متصامتة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته
لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل
السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها
لتعلقها الشديد به ، ولتحاميها ماعسى ان تلقى في البيت الجديد
من اهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من القاء أعباء
جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزج
بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن
تنزلق وهى لا تدرى الى ملاحظاته الأمر الذى تشفق من عواقبه
على سعادة ابنتها ، وأخيرا لما تنطوى عليه في قرارة نفسها من حياء
وكبرياء حببا اليها الحياة في البيت الذى تملك معتمدة — بعد الله —
على المعاش الذى تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة أسبابا
اخرى لاصرارها على البقـاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة
الحساسية او سداد البصيرة ، كخوفها — اذا أخلت البيت — من أن
تجد نفسها مضطرة الى اختيار امر من اثنين ، فاما أن تسمح
للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شىء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، وأما
ان تتركه مهجورا فتتخذه العفاريت ملعبا بعد أن ظل طوال عمره
مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ، الا أن انتقالها الى بيت
السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض في نظرها
بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته
بدون مقابل وهو ما لا ترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن معاشها لقاء
اقامتها في بيته وهو مايقلق غريزتها في الامتلاك التى أضحت — مع
الكبر — عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟!

بل قد توهمت أحيانا عند الحاحه عليها في الانتقال الى بيته أنه
يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذى سيخلو بعد انتقالها

فغزعت الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذني باصراري يا ابني ، ربنا يكرمك بما اوليتني من عطف ، الا ترى انه لا يسعني أن أهجر بيتي ؟..وما أجدرك أن تجاري عجوزا مثلي على علاتها بيد اني أستحلفك بالله الا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجي من البيت متعذرا» وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضي العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالاة الشاذة في الاهتمام بشئون البيت والمال، مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالي مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسية ، فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب ، وبأن تضفي على الشيخوخة جلالا ، تلك هي العبادة . كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغلت في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى ، وظلت تمارس بحب واخلاص غير مفرقة في اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التي عرفتها بخيرها وشرها ، فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما « ياستي أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الأمور؟ » فتجيبها محتدة «يالئيمة انك لاتوصينني بالعبادة حبا فيها ولكن كي يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب ، أن الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب ! » ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدريهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت امينة مواسية ومشجعة فقالت :

ـ ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأبيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يبتل صدر المنقطع به الطريق في الظلمات اذا ترامى اليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فآمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب ، ولكن لايمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من امها في جسمها وايمانها وجل طباعها . وانثالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحب والايمان فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة رقيقة :

ـ ان الله يرعاك دائما برحمته ، اذكري عهد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسسك سوء !

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت ، وتفرست في غبش من الماضي كاد يمحوه النسيان فوضحت ـ بعض الوضوح ـ من خليط الذكريات صورة احيت في نفسها أصداء من عهد الرعب ، وهي صبية تحجل خارج أبواب غلقت على اخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت ، وهي وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها ، أو وهي تسمع الى جماهير من الشعب التقت في ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين ـ كما كان يتفق لأبيها ـ وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك اخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صفوها الا عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين في اليوم ، واستطردت الأم بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال في الأحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالي فاستعادت

حياته وذكرياته ـ العزيزة الغالية لاقترانها بالشباب ـ خالصة من شوائب الألم المنسى ، فقالت :

ـ ولم يقنع حظك السعيد بانقاذك من الوباء لكنه أبقاك وحيدة الأسرة وكل مالها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في صميم قلوبنا .

لم تعد امينة ترى الحجرة ـ بعد هـذا الخطاب ـ كما كانت تراها قبله ، بعثت جدة الشباب في كل شيء ، في الجدران والسجادة والسرير ، في أمها وفيها هى نفسها ، ورد أبوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ، وعادت تصغى الى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار الى عرابى باشا والانجليز ، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعاداتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية :

ـ اليس الله حافظك وراعيك ؟!

بيد أن القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضى السـعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالى الى اجترار احزانه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب امها في حال من الفراغ الصارم لم تعهدها الا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها الا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخـر مرعى للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصـد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك ! » ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك أن تسرق المراة أو تلتزم الأمانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيفة من ناحية ولأنها من ناحية اخرى الفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنه في ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغداء

والقيلولة ، ثم يرجع الأبناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فرات بخيالها الذى استمد من الألم والحنين قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود . رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا ، هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من اثر في البيت ، وألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر ؟.. وها هم الأبناء عائدون وها هم يهرعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا ، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة ، ترى كيف يتلقى فهمى الخبر ، وهل يدرك كمال ـ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ـ معنى غيابهـا ؟ أيتشاورون طويلا ؟.. ماذا ينتظرون ؟.. لعلهم في الطريق يستبقون اليها .. يجب أن يكونوا في الطريق ، أم يكون قد أصـدر أمرا بعدم زيارتها ؟ يجب أن يكونوا في الخرنفش .. سترى عما قليل ..

ـ اتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت اليها في دهشة ممزوجة بالحياء ، اذ فطنت الى أن كلمات ـ من حديثها الباطنى مع نفسها ـ قد تسللت في غفلة منها الى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته اذن امها المرهفة فلم تر بدا من ان تجيبها قائلة :

ـ انى أتساءل يا أمى الا يجىء الأولاد لزيارتى ؟

ـ اظنهم جاءوا ..!

قالت العجوز وهى ترهف السمع مادة رأسـها الى الأمام فأنصتت امينة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة الباب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث في لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال

الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدق عليها باب حجرة الفرن ، وسرعان ما هرعت الى راس السلم وهي تنادى صديقة لتفتح الباب ، ثم اطلت من فوق الدرابزين فرات الغلام وهو يثب فوق درجات السلم وفي أثره فهمي وياسين وتعلق كمال بعنقها نعاقها منيلا عن عناق الآخرين . ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون في وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون ، ولما رأوا الجدة واقفة مبسوطة الذارعين مشرقة الوجه بابتسامة ترجاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام الى حين واقبلوا عليها تباعا فساد صمت نسبى تخللته همسات القبل المتبادلة واخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ـ نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه.

وآوى كمال الى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيته التى طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق :

ـ سأبقى هنا مع نينة .. ولن أعود معكما .

أما فهمي فقد رنا اليها طويلا صامتا ، كشأنه اذا أراد ان يحدثها بالنظر ، فوجدت في نظرته الصامتة خير معبر عما يعتلج في صدريهما معا .. هذا الحبيب الذى لايفوق حبه لها الا حبها له، والذى يندر أن يشير في أحاديثه معها الى عواطفه ولكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعاله ، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدل على الألم والخجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتألم :

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها أنت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الأم في ارتباك وقالت :

ـ لست طفلة يا فهمي ، وما كان ينبغى لى أن افعل ..

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة ان تعاتبه

او تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى الى لغة اخرى قائلا :

ـ اجل ، نحن المذنبون وانت المتهمة . (ثم ضاغطا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التى تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها . وانهال عليها بسيل من الأسئلة ، عن معنى مغادرتها البيت ، وكم تطول اقامتها في بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع في تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى ، ذلك العزم الذى كان أول من يرتاب في قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فاخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه ـ كما قال فهمي ـ « لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغي أن نتساءل عما سيكون » وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا « ان رجلا كأبينا لايرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرا كريما ، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الراى مقنعا لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمي مفصحا عن اقتناعه ومرجوه معا « والدليل على صحة رأيك انه لم يقدم على فعل شيء آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا عن « قلب » أبيهم فاتفقت كلمتهم على انه قلب خير رغم ثورته وحدته وان أبعد شيء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه ان يسيء الى السمعة أو يؤذى أحدا وعند ذلك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

ـ لو كنتم رجالا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب أبيكم ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومة التى تذوب لدى ذكر ابيهم ، وخافت الأم من ناحيتهـا ان يتطور الحديث بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالاشارة — وهى تردد يدها بين كتفها وأمها — أنها أخفت عنها الأمر ، ثم قالت تخاطب امها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشابين :

— لا احب أن يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو ..

وهنا تساءل كمال :

— ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها الى فوق وهى تغمغم « ربنا عنده العفو » . وكالمألوف في مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بألفاظ جديدة من ايثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة اعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة في عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم في كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « أظن آن لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم

تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، واصوات قبل وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها في التسليم في جو مشبع بالحزن والفتور ، واخيرا أخذت الاقدام تبتعد تاركة اياها فيوحدة وشجن .

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت في قلق حتى هتفت بها :

— اتبكين ؟!. يا لك من عبيطة !.. كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين في حضن أمك !..

— ٣٤ —

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما الذى يشاركهما فيه الأخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، أما خدمة الأب فهى التى عملا لها ألف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة ابيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته في أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثب من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأم قالت خديجة « ينبغى الا تطول هذه الحال ، ان الحياة بدونها في هذا البيت عناء لا يطاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة في وسعها غير الدموع فذرفتها ، وانتظرت عودة أخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل ان تلفظ كلمة مما يدور في نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم في « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن

قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :

ـ اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الأيام والأسابيع وهى مبعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن ، اجل ان مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى أن نجد طريقة .. ينبغى أن نتكلم ..

ومع أن صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا أنه قصد بها ـ كما فهم بالبداهة ـ شخصا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على أحد ، بيد أن خديجة واصلت حديثها قائلة :

ـ لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض من أمور بأيسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لأى واحد منا ، فمن الانصاف أن نتحمل نفس التضحية من أجل خاطرها ..

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذى أخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهى به الكلام الى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجىء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة . وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :

ـ انت أخونا الأكبر والى هذا فأنت موظف ، أى رجل كامل ، فأنت أجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتمتم قائلا :

ـ والدنا رجل نارى الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه ، وأنا من ناحيتى لم أعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ، وأخوف ما أخاف أن يتفجر في غاضبا فيفلت منى زمام نفسى ويثور غضبى بدوره !

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوترة وانفسهم المحزونة فابتسموا ، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في كفيها ، ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها ، ذلك أنهم عدوا قوله نوعا من الدعابة الجديرة بالضحك والسخرية ، وكان هو أول من يعلم بعجزه التام عن مجرد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده وأول من يعلم أنه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه ، فلما رأى هزءهم لم يسعه الا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعونى وشأنى » . فهمى وحده بدا متحفظا في ابتسامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره اذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء واشفاق :

ـ فهمى .. انت رجلنا ..!

فرفع حاجبيه في ارتباك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لها « أنت أدرى بالعواقب ! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو أكبرهم عقلا وانفذهم رأيا ، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه اذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء . وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بايماءة من راسها فقال متحيرا :

ـ هل ترينه يقبل رجائى ؟.. كلا .. ولكنه سينهرنى قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » .. هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الى كلاما اشد وأقسى ..!

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دفاعا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل رأى اخيه :

ــ وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على انفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها !

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية:

ــ لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة « حب البقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

ــ فلنفكر في الامر بعناية شاملة .. لا اظنه يقبل لى أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدنا للدفاع عنها ، أما اذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح في استعطافه أو لعلها تجد ــ على أسوأ الظنون ــ اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟.. أنت مثلا ياخديجة !؟

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت في الشرك وحدجت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

ــ ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى :

ــ العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى ، ولا ننسى انكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما الا في النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا !..

فاطرقت خديجة متفكرة في قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة :

ــ اذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق منى بالكلام !

ــ انا !.. لم ؟!

نطقت بها عائشة في فزع من وجد نفسه في مرمى الخطر

بعد أن اطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الامر شيء خاصة وانها ــ لحداثة سنها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها ــ لم تكن تندب لشيء هام فضلا عن أخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم ، الا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد انها اصرت عليه في عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

ــ لأنه ينبغى الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في انجاح مسعانا !

ــ وما دخل شعرى وعينى في مواجهة أبى ؟

لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالاقناع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعابثة أشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من اسلم السبل الممكنة لمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مفرا في ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

ــ اعرف لهما تأثيرا ساحرا في كل من يتصل بك ، ياسين .. فهمى .. حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى ؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

ــ كيف اخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما في راسى ؟!

عند ذاك ــ وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ــ لم يعد يشعر احد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت اول دافع اليه ، حيث أن الانسان يركز تفكيره في النجاة عند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها في العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء

التى اهملت الى حين ، وكأن خديجة أرادت أن تتخفف من هذا الاحساس فقالت :

ـ ما دمنا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست أم مريم ..

وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة في نظرة لم يرتح الشاب لايحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمى منذ نبذت فكرة خطبتها ، اما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التى لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، وبالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب .. ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمى وخديجة فأراد أن يغطى على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض :

ـ هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذى يستطيع أن يرجو والده ليعيد اليه أمه !...

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد أن قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالى وهو يقطع ميدان بيت القاضى عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في امه المنفية . فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأى ، يسوقه العذاب الذى يعانى لفقد امه ، ويرجعه الخوف الذى يركبه لمجرد ذكر أبيه فضلا عن مخاطبته أو التوسل اليه ، لم يكن يتصور انه يستطيع أن يقف

بين يديه محدثا في هذا الأمر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحيق به لو فعل . ولم يصمم على شيء الا أنه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع الى ارضاء قلبه المعذب ولو ارضاء عميقا ـ كالحداة التى تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأى ، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعا وهو يغرق في الضحك كذلك ، فاذهلته المفاجأة ، فتسمر في مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكار ودهشة لا توصفان ، لم يصدق عينيه وخيل اليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيه ـ شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ، ويغرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس ، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت أساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه :

ـ ماذا جاء بك ؟!

وللحال دبت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ـ رغم ذهوله ـ فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :

ـ أتريد شيئا ؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به الا أن يقول مؤثرا السلامة « انه لا يريد شيئا وأنه كان في طريقه الى البيت » ولكن السيد استبطأه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة :

— لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد ..

ونفذت خشونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقد لسانه فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الأب ضيقا وهتف بحدة :

— تكلم .. هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها في ارادة واحدة وهى أن يخرج من صمته بأى ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

— كنت عائدا من المدرسة الى البيت ..

— وماذا أوقفك هنا كالمعتوه ؟!

— رأيت .. رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك ..!

فتجلت في عينى السيد نظرة استرابة ، وقال بجفاء وتهكم :

— أهذا كل ما هنالك !.. أوحشتك لهذا الحد ! ألم تستطع أن تنتظر الى الصباح لتقبل يدى اذا أردت ؟!.. اسمع .. اياك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة .. سأعرف كل شيء ..

فقال كمال بسرعة واضطراب :

— لم أعمل شيئا وحياة ربنا ..

فقال الرجل بنفاذ صبر :

— اذن تفضل .. ضيعت وقتى بلا مناسبة .. غر من وجهى ..

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب ، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عينى أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة :

— رجع نينة الله يخليك ..

وأطلق ساقيه للريح ..

— ٣٥ —

كان السيد يحتسى قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

— جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك ..

فتساءل السيد متعجبا :

— حرم السيد محمد رضوان ؟. ماذا تريد ؟..

فقالت خديجة :

— لا أعرف يا بابا ..

فأمرها بادخالها وهو يمسك عن التعجب . ومع أن مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته — لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين ازواجهن من اصدقائه — لم يكن مع ندرته بالجديد عليه الا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة ؟! ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات . ثم لم يعد يطرق بابه الا في الأعياد ، على أن ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر أنها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة أخرى التقى بها عند

باب بيته اذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها
وعند ذاك ادهشته بجسارتها حين حيته قائلة « مساءالخير
يا سي السيد » ، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من
يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآدابالمتوارثة
للأسرة ، فلا يرون باسا من أن تخــرج نســاؤهم للزيارة أو
للاستبضاع ، ولا يجــدون حرجا في توجيه تحية بريئة كالتى
وجهتها أم مريم اليه ، ولم يكن ـ رغم حنبليته ـ بالذى يطعن
فيما يرتضون لانفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسيء الظن حتى
ببعضالأعيان منأصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في
العربات للتنزه فيالخلوات او لغشيانالملاهى البريئة مكتفيا فيمثل
هذه الحال بترديد قوله : « لكم دينكم ولى دين » ، أى انه لاينزع
الى تطبيق آرائه علىالناس تطبيقا أعمى ، الى انه يحسن التمييز
حقا بين ما هو خير وما هو شر ، الا انه لا يفتح صدره لكل «ماهو
خير» ضالعا في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى انه عد
زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقسىعقوبة أصدرها في
حياته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من
نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها
الظن . وســمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة
تنذره بالدخول ، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها ، مستورة الوجه
ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين
وتدانت منــه بجسم جســيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض
السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

ـ اهلا وسهلا ، شرفت البيت واهله .

فمــدت له يدها بعد أن لفتهــا في طرف الملاءة أن تنقض
وضوءه وقالت :

ـ ربنا يشرف قدرك يا سي السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

ـ كيف حال السيد محمد ؟..

فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها :

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا
جميعا ...

فهز السيد راسه كالآسف وتمتم :

ـ ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية ..

واعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تتهيأ
للحديث الجدى الذى جاءت منأجله كما يتهيأ المطرب للغناء بعد
الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غض السيد بصره
تحشما تاركا علىشفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديثالمنتظر:

ـ يا سيد احمد ، أنت في المروءة مثل يضرب في الحى كله ،
فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك .

فتمتم السيد بصوت حيى وهو يتساءل في نفسه « ترى
ما وراء هذا كله ؟!.. »

ـ أستغفر الله ..

ـ المسألة انني جئت الساعة لأزور أختي ست أم فهمى فما
هالنى الا انأعلم بأنها ليستموجودة في بيتها وأنكغاضب عليها.

وامسكت المرأة لتسبر أثر كلامه ولتسمع راى السيد فيه ،
ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم
ارتياح الى فتح هذا الموضوع الا ان ابتسامة الترحيب ظلت
معلقة بشفتيه ..

ـ هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى ؟!. ست العقل
والحياء ، جارة عشرين عاما واكثر ، ام نسمع خلالها منها الا
ما يسر الخاطر ، فما عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه
غضب رجل عادل مثلك ؟!.

فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت براسه
خواطر زادت منعدم ارتياحه .. ترى أجاءت زيارة المرأة للبيت

اتفاقا أم أنها استدعيت بتدبير مدبر ؟!. خديجة ؟. عائشة ؟. امينة نفسها ؟. انهم لا يملون الدفاع عن أمهم ، هل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ في وجهه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذى عرضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من نافوخه ؟!

ـ يا لها من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا .. ويا لك من سيد كريم لا يليق به العنف ، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بافساد كيده ..

وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد :

ـ ربنا يصلح الحال ..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح في استدراجه الى الكلام :

ـ لشد ما يعز على أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذاك العمر الطويل من الستر والكرامة ..

ـ ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شيء ميعاد ..

ـ انت أخى ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هـذا كلمة واحدة ..

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهي تقول « انت أخى » أن صوتها رق وعذب ، فلما قالت « بل أعز من الأخ » جهر الصوت بحنان دافىء نشر في الجو المحتشم نفحة طيبة ، فتعجب وتساءل ، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك فرفعه مستأنيا .. واسترق الى وجهها النظر ـ فوجدها ـ على غير ما توقع ـ تتطلع اليه بعينيها الدعجاوين ، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلا بين الدهشة والحرج ثم قال مواصلا الحديث كي يغطى على تأثيره :

ـ أشكرك على ما أوليتنى من أخوة ..

وعاد يتساءل ترى أكانت تتطلع اليه هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره اليها تطلعها اليه ؟. وما القول في أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين ؟. ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه ان ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهن أرهفا حاسة سوء الظن بهن عنده ، وان الحقيقة بلا ريب أبعد ماتكون عن تصوره ، أو لعل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان طبعا وسجية فيظنه من لا يعرفهن غزلا وما هو بالغزل . ولكى يتحقق من صدق رأيه ـ لانه لم تزل ثمة حاجة الى التحقيق ـ رفع بصره مرة أخرى فما هاله الا أن يراها رانية اليه ، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره في حيرة شاملة ، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

ـ سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقا أثيرة عندك ..

أثيرة ؟!. لو قيلت هذه الكلمة في غير هـذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثرا ، أما الآن ؟!. وعاود النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينيها بعض المعانى التى عابثت ظنونه ، هل صدق احساسه ؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه ؟. ولكن كيف يعجب من كان في مثـل خبرته بالنساء ؟. سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهوا ، ولكن متى نشأت هذه العاطفة .؟ أهى قديمة وكانت تتحين الفرص ؟. ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب .. ولكن الدكان ليس بالمكان الذى تطمئن مثلها اليه في بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة ، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية ؟. لو صح هذا فهى «زبيدة» أخرى في لباس سيدة مصونة ، وليس غريبا ان يجهل أمرها ـ وهو العليم ببنات الهوى ـ ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراما مثاليا ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟.

« أنت آثر عندى مما تظنين ؟. » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها ، كلا انه لا يريد هذا ، أنه يأباه كل الاباء ، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة ، ولكن لأنه لايقبل بحال أن يحيد عن مبادئه في تقديس الأعراض عامة ، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخزى بها أمام صديق أو جار أو احد من الأطهار على افراطه في العشق والصبوات ، ولم يزل دأبه أن يخاف الله في لهوه كما يخافه في جده فلا يبيح لنفسه الا ما يراه مباحا أو في حدود الهفوات . لا يعنى هذا انه أوتى ارادة خارقة تعصمه من الأهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبذول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنه لم يتعمد النظر الى وجه امرأة من حيه طوال عمره ، على أنه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعوه الى لقاء اخت ذاك الرجل ــ أرملة نصف ــ في ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت أول تجربة ــ عرضت لمبادئه ــ يكابدها بعينيه ، ومع انها اعجبته الا انه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخذة ، كأن هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للاخوان لا تزايله حتى في مغانى اللهو والشهوات فلم يؤخذ عليه أبدا انه سطا على محظية صاحب أو طمح بطرف الى خليلة صديق ، مؤثرا الصداقة على الأهواء ، لأنه كما اعتاد أن يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته وأحيانا يستأذن الخليل القديم قبل

أن يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه احن النفوس . بمعنى آخر انه نجح في التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادىء العالية توفيقا ائتلافيا يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في يسر وارتياح ، كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والغواية في وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا ، غير انه لم يكن يصدر في وفائه عن اخلاص مجرد للأخلاق ولكن ــ الى هذا أو قبل هذا ــ عن رغبته التليدة في أن يظل حائزا الحب متمتعا بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة في العشق هونت عليه الاعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة ، وفضلا عن هذا وذاك فانه لم يعرف الحب الحقيقى الذى كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين ، فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء ، واما الوقوع في أزمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها . فلم يكن يرى في أم مريم الا صنفا لذيذا من الطعام لن يضيره ــ اذا هدده تناوله بسوء الهضم ــ أن يعدل عنه الى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

ــ شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب ..

فقامت المرأة وهى تقول :

ــ ربنا يكرمك يا سى السيد ..

ومدت له يدا بضة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيل اليه ــ وهى تسلم ــ انها ضغطت قليلا على يده ، وجعل يتساءل أهذه طريقتها المعتادة في التسليم أم انها تعمدت الضغط على يده، وحاول أن يتذكر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم

تسعفه ، وقضى أكثر الوقت الذى سبق عودته الى الدكان وهو يفكر في المرأة ، حديثها ، ولينها ، وتسليمها ..

- ٣٦ -

— تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :

— لماذا ؟!

ولكن اعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لماذا » وكأنه اراد أن يقول لها « لم اكد افرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم ، من قال لك ان هذه الحيل تجوز على ؟.. كيف تجسرين أنت واخوتك على المكر بى ؟ »

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :

— لا أدرى والله ..

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وادرى انا أيضا ولن يجرك مكرك الا الى أوخم العواقب » ثم قال ساخطا :

— خليها تتفضل ، لن أشرب قهوتى براحة بال بعد الآن ، أصل حجرتى محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هى الراحة التى أجدها في بيتى ، لعنة الله عليكم اجمعين !..

اختفت خديجة قبل أن يتم كلامه كما يختفى الفأر اذا قرعت سمعه قرقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حانقا ، حتى خطرت على ذهنه صورة خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صدره

عطفا ، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب — وهو في بيته — لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق ، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها أحد من النساء اللاتى يترددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم شوكت من قبل ، اسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تزل ارملته عنده — وعند أسرته بالتبعية — بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله فآل شوكت اناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركي فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصورين ، فاذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج ، فليست هى بالتى تلتزم الاحترام في مخاطبته ، ولا بالتى تتعب في استعطافه ، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرارتها من شيخوختها ومكانتها معا ، اجل ليست هى ..

وامسك عن افكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

— أهلا وسهلا ، زارنا النبى ..

اقتربت منه سيدة طاعنة في السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت

عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهي تقول :

— من يعش ير ، حتى أنت يا زين الرجال !.. وحتى هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التى لا يطيب التحدث عنها !.. شخت ورب الحسين وبادرك الخرف ..

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها ، حدثته كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفتغياب زوجه « ظننت باديء الأمر أنها خرجت في زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا ؟!.. وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الالهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية !.. » بيد أنها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشدى وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد في الرثاء لزوجه التى تعدها آخر امراة تستحق عقابا ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، انى أريد عملا صالحا لا قولا مزوقا » وصارحته بأنه يغالى في المحافظة علىأسرته مغالاة خرقت المألوف ، وانه يجمل به ان يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليها طويلا ، ولما سمحت له بالكلام — بعد أن أعياها الكلام ، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكد لها بأن سياسته مع أسرته عقيدة لايتحول عنها وان وعدها في النهاية — كما وعد أم مريم من قبل — خيرا ، وظن أن آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدرى الا وهي تقول :

— غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جدا ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتي

ولا أدرى الآن ان كان يحسن بى أن أتكلم فيما أردت الكلام فيه أم انتظر عودتها !..

فقال السيد مبتسما :

— كلنا تحت أمرك ...

— وددت لو كانت هي أول من يسمعني وان كنت لم تترك لها من الأمر شيئا ، ولكن لئن فاتنى هذا فعزائى انى أهيىء لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد في فهم حديثها وحدج اليها متسائلا :

— ما وراء هذا ؟

فقالت وهي تنكت السجادة بسن مظلتها :

— لا أطيل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجا لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، ادرك من أول وهلة أن تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها .. رغبة عالنته بهـا من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على أنها ترفضه سلفا وتأبى أن تنزل عند حكمه ..

— مالك صامتا كأنك لم تسمعنى ؟!.

وابتسم السيد ارتباكا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلب الأمر على وجوهه :

— هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

— لا حاجة بى الى الضحك على بأجوف الكلام ، لن أرضى بغير الموافقة التامة : لقدندبنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هي خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختيارى ولم

يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟! الله .. الله ..

الام يقع في هذه المشكلة المعقدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! .. ونظر اليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

ـ ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والراس ، ولكن ...

ـ آه من لكن !.. لا تقل انك قررت الا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من انت حتى تقرر هذا او ذاك ؟.. دع ما لله لله وهو ارحم الراحمين ، أن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج اخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله .. الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟.. أليست هي الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟!

قال لنفسه : اذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها ؟! .. وهم باحراجها كما أحرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابة تتضمن اساءة ـ ولو بحسن نية ـ لخديجة وبالتالى له هو ، وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمام :

ـ ليس الا انني أشفق على خديجة .

فقالت بحدة كأنما هي المطالبة لا هو :

ـ كل يوم تقع امور كهذه دون ان تربك احدا ، ان الله يكره من عبده العناد والمكابرة ، اقبل رجائي وتوكل على الله ، لا ترفض يدى فانى ما مددتها الى احد قبلك ..

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

ـ هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة .. فقط امهليني قليلا ريثما أراجع نفسي وارتب اموري ، وستجدين رأيي عند حسن ظنك ان شاء الله ...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

ـ لا يجوز أن آخذ من وقتك اكثر مما أخذت ، ثم انه كلما طال الأخذ والرد خيل الى أنك لا تتقبل رغبتى بقبول حسن ، ومثلى من تطمع اذا قالت لك أريد ان تبادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن أزيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليل ابنى وابنك وعائشة بنتك وبنتى ..

وقامت فقام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ، ولكنها أبت الا أن تذكره بوصاياها جملة . كأنما خافت ان يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلا ، وما يدرى ـ أو ما تدرى ـ الا وهى ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبها تداعى الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، والى هذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة او كلمتين او ثلاث واذا بتداعى الأفكار يغلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه ، ثم اوشك أن يضحك في النهاية وهى تقول له : « لا يجوز أن آخذ منك أكثر مما أخذت » وأوصلها الى الباب مشفقا في كل خطوة من ان تتوقف عن المسير وتشتبك في الكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلسه وهو يتنفس من الأعماق ، عاد مغتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرون بل ارق مما ينبغى ، فكيف يصدق هذا من لا يرونه الا مكشرا أو صاخبا أو ضاحكا ساخرا !.. ان مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة في عينيه ، ولكم يسعده ان يجود بكل غال في سبيل اسعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى في وجهها الجميل وجه أمه او تلك التى لم تصب من الحسن الا لونا شاحبا ، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد ان الزوج الذى تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، فتى في الخامسة والعشرين ، ذو دخل

شهري لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا أنه ككثير من الأعيان لا عمل له . وحقا ان حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه في الطيبة وكرم الأخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟.. يجب أن يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله ــ ولو لحظة قصيرة ــ كمن لا رأى قاطعـا له ، الا يشاور خاصـته المقربين ؟ . انه لا يرى غضاضـة في مشاورتهم كلما جد أمر ، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر الى الدنيا التى لا تعترف بالهمـوم والمشاكل ، ولكنه قلما يستبد في باطنه برأيه فلا يحيد عنه ، فهو من الذين يلتمسون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها حتى في هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجـل بأفكاره هتف قائلا :

ــ من يصدق أن ما بى من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير أكرمني به الله ؟ !..

- ٣٧ -

لم يكن لأمينة من عمل في أيام منفاها الا الجلوس الى جانب امها والاسترسال في الحديث ، في كل مايخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضى البعيد والماضي القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العـزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفـراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية ، في عالم الذكريات ، بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذى تخاف وما بلغها من شـفاعة أم مريم وحرم

المرحوم شوكت لدى السيد ، كل أولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها ، الى أن زيارات الأبناء المسائية لم تنقطع يوما واحـدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجددة ، ومع أن الزمن الذى يتغيبونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره في البيت القديم ــ في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم في جلسة المساء ــ الا انها باتت تشتاق اليهم اشـتياق المغترب في بلد بعيد الى أحباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع في طريق الفراق قيراطا كابده القلب أميالا ، ودابت العجوز على أن تقول لها كلما وجدت منها صمتا أو آنست في حديثها الشرود :

ــ الصبر يا أمينة ، اني أرثى لحالك . الأم غريبة ما ابتعدت عن أبنائها ، غريبة ولو حلت في البيت الذى ولدت فيه .

أجل انها غريبة ، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتهـا الأولى سواه موطنا ، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة ، لم يعد « بيتها » ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء . وجاء العفو بعد طول انتظار ، حمله الأبناء ذات مساء . دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى اشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها الى أبعد مما تحتمل ، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

ــ البسي ملاءتك وهيا بنا ...

وقهقه ياسين قائلا :

ــ جاء الفرج (ثم هو وفهمي معا) دعانا أبي وقال لنا اذهبا فعودا بأمكما ...

وغضت بصرها لتدارى فرحتها الغامرة . ما اعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة

الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما في أعماقها الا سجلته . لشد ما ودت أن تتلقي النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ، ولكن الفرح استخفها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبياني ، وفي نفس الوقت تولاها حياء لم تدر له سببا . وطال جمودها في مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله الى الوراء حتى طاوعته ناهضة ، ووقفت قليلا في ارتباك غريب وما تدرى الا وهى تلتفت الى أمها متسائلة :

ـ أذهب يا أمي ؟

بدا السؤال الذى ند عنها في نغمة الارتباك والحياء ـ غريبا ، فابتسم فهمي وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذى جاءوا به ، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدست باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الانكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

ـ الى بيتك مصحوبة بسلامة الله .

فذهبت أمينة لترتدي ملاءتها وتصر ثيابها وكمال في أعقابها، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها بابتسامة رقيقة :

ـ أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتي بنفسه . . .؟!

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلا :

ـ أنت أدرى يا جدتي بطبع أبينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكا :

ـ فلنحمد الله على ما كان . .!

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ـ على أى حال السيد احمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد في آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لأول مرة في حياتهم حتى بدا المنظر في أعينهم

بالغا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمة . وتذكر كمال يوم سار ـ كما يسير الآن ممسكا بيد أمه يقودها من عطفة الى عطفة ، ثم ما تلي ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضي في فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

ـ تعالي نخطف أرجلنا الى سيدنا الحسين . . !

فضحك ياسين بلهجة ذات معني :

ـ رضى الله عنه ، انه شهيد يحب الشهداء .

ولاحت لهم المشربية وشيحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم اليهما في حنو واشتياق ، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالها فغمرت يدى سيدتها بالقبل ، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورقوا السلم في مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا في حجرتها فتبادروا الى نزع ملابسها ـ رمز الفراق البغيض ـ وهم يضجون بالضحك ، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر . وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

ـ هذا اليوم أعز عندى من المحمل نفسه !.

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة ، فعادوا الى السمر في جو من المسرة ضاعف من بهجته ماسبقه من أيام فراق وكآبة تزداد لذة اليوم الدفيء يجيء في أعقاب اسبوع من الزمهرير ، ولم تنس الأم ـ التى استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا ـ أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب، وكم سرها أن تعلم أنه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها ، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيأت له في غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها ، عودتها التي تكفل له ـ وحدها ـ الحياة التى يألفها ويرتاح

اليها ..! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى !.. ولكن هكذا كان ، فهذه القلوب التى شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمغص الشديد الطارىء تنسى به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنا آلام الجفون ، عاد فهمي يقول لنفسه « لكل حزن — فيما يبدو — نهاية ، هذه أمي قد رفع عنها الهم ، ولكن حزني يبدو كأن لا نهاية له » ، ورجعت عائشة الى أفكارها التى لا يطلع على سرها أحد ، تتراءى لها الاحلام وتلم بها الذكريات وان عدت بالقياس الى أخيها أهدأ حالا وأسرع الى النسيان خطوة ، ولكن امينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغص عليها صفوها منغص ، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها ان النوم لا يجد متسعا في نفسها التى أفعمها الفرح فلم تذقه الا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتباكا ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا في هذه اللحظة .. لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟.. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟.. ما عسى أن تقول له أو يقول لها ؟. لو يسعها ان تتصنع النوم !. ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية ، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضيء له ، واكثر من هذا كله انها بعد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها — شاعت اريحية الرضا في قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها — بالرغم من انه لم يعن بالذهاب الى بيت أمها لمصالحتها — حقيقا بالاسترضاء ، فتناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين

بفؤاد خافق حتى صعد اليها ، لقيته برأس مطأطأ فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أي تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف :

— مساء الخير ..

فغمغمت :

— مساء الخير يا سيدي ..

وذهب الى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد أنفاس الراحة . ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشئوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سأرتدي ملابسي بنفسي » الا أن ذكراه خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك ، وشعرت وهي تتعهده بهذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك في الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشلتة عند قدميه دون أن ينبس احدهما بكلمة ، وكانت تتوقع أن يشيع «الماضي الأسيف» بكلمة ، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك ، وعملت لذلك ألف حساب ولكنه سألها ببساطة :

— كيف حال أمك ؟

فأجابته وهي تتنهد بارتياح :

— بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

— حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجا لخليل ..

فرفعت اليه امينة عينيها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف ان تدلي برأي يتفق أن يكون

موافقا لقراره الذي لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه أخذ برأيها فسبق قائلا :

— فكرت في الأمر طويلا فانتهى بي التفكير الى الموافقة ، لا أريد ان أعترض حظ البنت أكثر مما فعلت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

— ٣٨ —

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرق حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لاتصدق أذنيها حين زف اليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية ؟.. لم يكن قد فات على الخيبة التي منيت بها الا قرابة أشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها في نفسها كان شديدا قاسيا الا انه مضى يخف ويهون مع الأيام حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير — اذا استثيرت — حزنا رقيقا غير ذي خطورة ؛ كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينية أشبه ، حتى الحب نفسه — بين جدرانه — يسترق خطاه الى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب «لا» استقر قوله في أعماق نفسها وآمنت الفتاة ايمانا راسخا أن كل شيء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كان «لا» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد أي اعتراض عليها ، ولامحيد عن اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته — بشعور وبغير شعور منها — على انهاء كل شيء فانتهى . على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة

أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا الفؤاد اليه ؟.. الا ينطوي حظها السعيد نفسه — تبعا لذلك — على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد انه تساؤل ظل في طي الكتمان ، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس — كشخصية معنوية فحسب — عد استهتارا يجافي الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة في رجل بالذات !. ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه أمه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب اليه في هيمانها ، كأن حبها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شيء في سبيله ، وقد يكون رجل آثر عندها من آخر ولكن ليس الى الحد الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها — كشأنها في مثل هذه الحال — عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو انها سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

— وددت لو تقدمتني الى بيت الزوجية !.. ولكنها القسمة والنصيب ، وكل آت قريب .

ولكن خديجة — التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف — تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

— تمنينا جميعا أن يكون دورك السابق — وعملنا على هذا أكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حظك الى اليوم ، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخيرة فيها خيرة ..

ووجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر ، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة

حلت ــ ولو الى حين ــ محل المزاح القارص الذي كان مألوفا بينها
وبينهما أو بينها وبين ياسين خاصة ، الحق انه لم يعدل حزنها
على سوء حظها الا نرفزتها من العطف الشائع في جوها لا لنفور
من العطف مركب في طبعها ، ولكن لأن مثلها مثل المصاب بالانفلونزا
يضار بالتعرض للهواء المطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح ، فما
كانت تأبه لعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت
ــ الى هذا كله ــ في البواعث التي تدفعهم الى اغداق العطف عليها ،
ألم تكن أمها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها ؟ فمن يدريها
أنها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لاسعيا وراء رغبة
خفية في تزويج عائشة ؟!. أو ليس فهمي هو الذي حمل رسالة
ضابط قسم الجمالية ؟.. ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه
من وراء وراء ؟!..

أو ليس ياسين .. ولكن بأي وجه تلوم ياسين وقد خانها من
هو أقرب منه اليها ؟.. فأي عطف هذا ؟! بل أي رياء وأي كذب!
لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الاساءة لا الاحسان ، فامتلأت
حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما في الأعماق أن تظهر بمظهر الكاره
لسعادة أختها أو تعرض نفسها ــ هكذا صور لها سوء ظنها ــ
لشماتة الشامتين ، على انه لم يكد لها محيد عن كتمان عواطفها لأن
الكتمان في هذه الأسرة ــ خاصة فيما يتعلق بالعواطف ــ عادة
متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه في ظل الارهاب الأبوي ،
وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من
ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا .
وأبوها ؟!. ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟!. أهانت عليه بعد
اعزاز ؟!.. هل نفد صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها
وتركها للأقدار ؟! لشدما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون ؛
نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر الا
«خيانتهم» الأخيرة ، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئا

بالقياس الى ما تجمع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة
والحنق ! كرهت سعادتها ، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة ،
وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو
البدر الساطع في عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التي لم تعد تدخر
لها الا اليأس ، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت
الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجو كله من
بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها
الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة ، ثم شرع السيد
في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية ،
تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئا وتعرض عن
شيء ، توازن بين لون ولون ، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى
وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هي نفسها اضطرت
ــ مجاراة لما تتظاهر به من رضى ــ الى المشاركة في نشاطهم وحماسهم
ومناقشاتهم التي لا تنتهي . بيد أن هذا الموقف العاطفي المعقد ،
الذي يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ،
تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالي
حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله .
وقد توقعت هذا الواجب كأمر لا مفر منه ، يحنقها قبوله أشد
الحنق ولا يسعها رفضه والا فضحت خبيئتها ، ولكنها ، حين
تطلعت اليها الأبصار فأوصتها أمها بأختها خيرا ورنت اليها شقيقتها
بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمي لعائشة على مسمع منها :
« لن تكوني عروسا حقا حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس » ،
وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت .. هذه الحقيقة فوق
الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء
فطفت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر
من البذور الكامنة تحت الطين ، ولم ترتب في بواعث هذا الاهتمام
كما ارتابت من قبل في بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه

من ناحية ولأنه اتجه الى براعتها التي لا شك فيها من ناحية أخرى . فكأنه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة — التي ابت أن تكون من نصيبها — لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تحققت الى أقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، ان الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هي الا ساعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لا يعني هذا ان خديجة نسيت أحزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحقد ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما تعتبت على بختها حتى نصبته في النهاية هدفا لامتعاضها وتذمرها ، ذلك البخت الذي قتر عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت أخيرا — كأمها — للمقادير . عجز جانبها الحامي الموروث عن ابيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير ، كالقائد الذي تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، أو يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها في الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق انها كانت — منذ صباها — تجاري أمها في تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التي تلم بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها ، وطالما تعجبت خديجة — وهي بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها — من سوء الجزاء الذي تثاب به على اخلاصها ،

وحسن الجزاء الذي تثاب به الأخرى على تهاونها .. « اني أحافظ على الصلاة أما هي فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين ، واني أصوم رمضان كله وأما هي فتصوم يوما أو يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا اطلق مدفع الافطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين ! » .. وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط ، نعم انها لم تجهر برأيها لأحد ، بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة : « عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة ، السمانة نصف الجمال ، أنا سمينة، واكتناز وجهي يكاد يغطي على كبر أنفي ، لم يبق الا أن يشتد بختي حيله . » على أنها فقدت ثقتها بنفسها في الأزمة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا انها عاودتها هذه المرة لتذري — أمام نفسها — احساسها القلق بعدم الثقة كما نلجأ أحيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور — كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية — لا تمت الى المنطق بسبب !.

ولم تنس أمينة — رغم كثرة مشاغلها كأم العروس — خديجة ، او ان فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التي نحظى بها بفعل مخدر بالألم الذي سيعاودنا بعد حين، وكأن زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت — التماسا للطمأنينة من أي سبيل — أم حنفي الى الشيخ رعوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها ان الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع انها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا انها أملتها خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذي لا يزايلها .

- ٣٩ -

« ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت
كالصابونة ولم يبق منها الا رغوة ، هي تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح
النافذة ، تدللي .. تدللي يا بنت المركوب ، الم نتفق على هذا
الميعاد ؟ ولكن لك حق .. فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب
مالطة .. وفردة الية تطير مخ هندنبرج ، عندك كنز ، ربنا يلطف
بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلي يؤرقه الثدى الناهد
والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة في الآخر ،
اذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير الف مرة من عجفاء
مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالمة وجارة التربيعة .. تلك
لقنتك أصول الدلال وهذه تمدك بأسرار الجمال ، لهذا ينهد ثدياك
من كثرة من عبث بهما من العشاق ، اتفقنا على الميعاد لست أحلم ،
افتحي النافذة ، افتحي يا بنت المركوب ، افتحي يا أجمل من
اقشعرت لها سرتى ، ومص الشفة ورضع الحلمة لأنتظرن حتي
مطلع الفجر ، ستجدينني طوع بنانك ، ان أردت أن أكون مؤخر
عربة الكارو التي تتأرجحين عليه أكنه ، ان أردت أن أكون الحمار
الذي يجر العربة أكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك
يا بن عبد الجواد ، يا شماتة الاستراليين فيك يا أنا يا طربند
الأزبكية وجبيس الجمالية ، الحرب يا هوه ، شبعها غليوم في أوربا
ورحت ضحيتها أنا في النحاسين ، افتحى النافذة يا روح أمك ،
افتحي يا روحي أنا .. » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو
جالس على الأريكة بقهوة سي علي ، وعيناه تتطلعان الى بيت زبيدة
العالمة خلل الكوة المطلة على الغورية ، كلما شكه الجزع غرق في

احلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج أشواقه معا ، كبعض
المنومات الطبية التي تعالج الأرق وتتعب القلب ، كان قد تقدم خطوة
موفقة في مغازلة زنوبة العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير
ـ ملازمة قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو
والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب ـ الى دور المفاوضة
والتأهب للعمل ، حدث ذلك في عطفة التربيعة الطويلة الضيقة
المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على
الجانبين كخلايا النحل . ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه ، كيف وهي
سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خف
حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة
والجمال والنفع ، فهي هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه
اليه ، وهي مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا ـ بحكم الزحمة
والرغبة معا ـ من طرف الى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء
حاجة وهو في الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه
البراقع وما تضيق به الملاءات ، ما يرى جملة وما يرى تفصيلا ،
ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية ، ما يند من حين لآخر من
اصوات أو يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الأدب
لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات ، قانعا بالمشاهدة والموازنة
والنقد ، لاقطا من المرئيات صورا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ،
فلا يفوق سعادته اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ،
أو بلحظ عين لم يتعرض لمثله ، أو لثدى عجيب في نهوده ، أو
لعجيزة خرقت المألوف في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة
وهو يقول : « فاز بالسبق اليوم نهد الست التي كانت واقفة أمام
الدكان الفلاني » أو « هذا يوم الكفل الرابي رقم ٥ » أو « يا لها من
حقيبة ويالها من حقيبة .. هذا يوم الحقائب المشرقة » اذ تأدى به
مزاجه الى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى
تركيز العناية في أجزاء من الجسم متجاهلا جملته ، وكأنه في هذا

كله ينعش آماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية
في دنياه ـ عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم او لغد ، الى مايسنح
له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في أحوال نادرة ،
ففي ذات أصيل ـ وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي ـ
رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت
الى عطفة التربيعة فمال وراءها ، ثم وقفت أمام دكان فوقف الى
جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر
ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك « التجاهل » على أنها فطنت
لوجوده ـ كما لا بد أن تكون حدست متابعته لها من بادىء الأمر ـ
فهمس قريبا من أذنها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الأمام
الا انه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ردا لتحيته ، أو مكافأة
له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة
والظفر مطمئنا الى جني ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب
ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى أنفه رائحة الشواء الذي يهيأ له
ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها
من الحناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه ـ بأداء
هذا الواجب اللذيذ ـ يكتسب حقا ألذ وأمتع ، غير مكترث لما بدا
منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمأنت الى أنه
سيدفع الثمن . وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك
انتهاء الطريق « يا ست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين
وراءك ، وجزاء المحب اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة
متسائلة في تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد يضحك بروحه وجسمه
كحالة اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى أحكام اغلاق فيه أن
يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابها هامسا « اللقاء ولوازمه ! »
فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة «اللقاء»
.. كلمة صغيرة .. ولكنه يعني بها عملا ضخما لا ينال عند بعض
الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز

والمأذون ، أليس كذلك يا حضرة الأفندي الذي يضاهي الجمل
طولا وعرضا ؟! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « ياله
من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، أليس
هكذا العشق يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليها ؟ »
فقالت وهي ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع
فبدت كيعسوب باسط جناحيه « ومن أدراني بالعشق ياجلي ؟.
لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوازم أيضا ؟ » فقال وهو يغالب
الضحك «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» « بلا زيادة ولا نقصان؟.»
« بلا زيادة ولا نقصان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟!. »
« لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة» « لعلها التي يسمونها الزنا ؟!»
« بلحمه وعظمه !. » فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا ..
انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سي علي وعندما افتح النافذة
قم الى البيت » . انتظر مساء ومساء ومساء ، مساء خرجت مع
الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة في حانطور ، ومساء
لم يبد على البيت أثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد أعيا أعصاب
رأسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليل فأغلقت
الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغورية ظلام ، ووجد ـ كما يقع
له كثيرا ـ في اقفار الطريق واظلامه مثارا غريبا لمكمن الشهوة في
جسده فازداد جزعا على جزع . بيد أنه لكل شيء نهاية حتى
الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك
الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسه روح أمل جديد كما
تنبعث روح الأمل في نفس التائه في القطب اذا ترامى الى سمعه
أزيز الطيارة التي يحدس انها جاءت للبحث عنه بين الثلوج ،
ولاحت فرجة يشع منها ضوء ، ثم تنور شبح العوادة وسط
الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة
ودفع الباب دون أن يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق
الى الداخل ليجد نفسه في ظلمة دامسة لم يهتد معها الى موقع

السلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب الى رأسه سؤال لا يخلو من قلق ، ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة؟. وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها في بيتها ؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لأن رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانه على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه . وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من أعلى ، ثم لمحه يترنح على الجدران التي وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه ، وما عتم أن رأى زنوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحوها في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة أوحت على رقتها بأنها لا تحاذر ، وتساءلت بمكر :

ــ طال انتظارك ؟

فمس سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :

ــ شاب شعري الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :

ــ نعم .. في خلوة مع رفيق قد الدنيا ..

ــ الا تغضب اذا علمت بحضوري في هذه الساعة ؟

فاستدارت وهي تهز منكبيها استهانة ورقت الدرج وهي تقول :

ــ وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟

ــ اذن لا ترى بأسا في اجتماعنا ببيتها ؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

ــ لعلها ترى كل البأس في عدم اجتماعنا ..!

ــ عاشت .. عاشت ..

فاستطردت في لهجة تنم عن الفخر قائلة :

ــ لست عوادة فحسب ، انا بنت اختها ، وهي لا تضن على بغال .. تقدم بسلام ..!

ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فانصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ــ خلوة أم حفلة ؟

فهمست في اذنه :

ــ خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكأس والضحك .. وعقبى لك ..

ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على كنصول ثم وقفت أمام المرآة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه المنهومتين الى الجسم المشتهى الذى بدا لناظريه متجردا عن اللاءة لأول مرة سددهما بقوة وتركيز وحركهما في أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق ، ولكنه قبل أن ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت في صدره قالت زنوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها :

ــ رجل لا نظير له في لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من اليوم الى الغد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ..

لم يغب عنه مافي اشارتها الى « كرم » عشيق العالمة من معان، ومع انه سلم من باديء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة الا أن تلميحها ــ الذى بدا له مبتذلا ــ ضايقه ، فلم يسعه الا أن يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

ــ لعله رجل واسع الثراء !

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

ــ الثراء شيء والكرم شيء آخر .. رب ثرى بخيل ..!

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذى خاف أن يفضح استياءه :

ــ ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته :

ـ انه من حينا ولا بد انك تسمع عنه .. السيد أحمد عبد الجواد ..

ـ من ..!

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فألفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة :

ـ مالك ؟..

كان تلقي الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدرى : وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة في حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره وركز ارادته كلها في الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

ـ السيد أحمد عبد الجواد !.. صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد مر لانزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة :

ـ نعم هو .. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟.

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله في سره على انه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

ـ من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟!

فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

ـ أهذا ما أفزعك حقا ؟.. ولا شيء غيره ؟!. اظننته من المعصومين ؟.. وماذا عليه من هذا ؟.. هل يكمل الرجل الا بالعشق ؟!

وقال بلهجة المعتذر :

ـ صدقت .. لا شيء يستحق الدهش في هذه الدنيا (ثم

ضاحكا في عصبية) تصورى هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء ..!

فقالت وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

ـ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا ـ بعد هذا كله ـ ان يرى في دكانه مثالا للجد والوقار فالجد جد واللهو لهو ، وساعة لربك ، وساعة لقلبك ..

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة !.. ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكا !.. من عسى ان يكون هذا الرجل ؟! أبوه ؟!.. السيد أحمد عبد الجواد ؟!. الصارم الجبار الرهيب التقي الورع ؟!. الذى يقتل من حوله رعبا ؟!.

كيف يصدق ما سمعت أذناه ؟!. كيف ، كيف ؟!.. الا يكون ثمة تشابه في الأسماء والا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف ؟!. ولكن زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان «النحاسين» وليس في النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه !..

رباه هل ما سمعه حقيقة أو انه يهذى ؟!. لشد ما يود أن يطلع على الحقيقة بنفسه ، أن يرى بعينيه دون وسيط ، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما يقول « يا لها من أيام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :

ـ الا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟

فقالت معترضة :

ـ أمرك عجيب ، وما الداعى الى هذا التجسس !

فقال برجاء :

ـ منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتنى منه !..

فضحكت باستهانة وقالت :

ـ عقل طفل في جسم جمل ، اليس كذلك يا جملي ؟..
ولكن لا عاش من خيب لك رجاء .. انزو في الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى ارجع ..

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذي ينبعث منه الغناء فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون ان تغلقه وراءها ، هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهي تلعب بالأوتار بأناملها وتغني « يا مسلمين يا أهل الله » وعلى كثب منها جلس « أبوه » دون غيره ـ وقد أشتد خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة او دقيقتين ، ولكنه راى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف ، راى في دقيقتين عمرا كاملا ملخصا في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لاحداث شتى يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواما طويلة ، راى أباه حقا ، أباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود أن يراه ، فلم يسبق له أن رآه متجردا من جبته في جلسة مريحة منسابة مع سجيتها ، ولا راى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الراس ، ولا راى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر . ولا راى ـ أي والله ـ الدف بين يديه يرعش باعثا شخشخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا راى ـ ولعله أعجب ما راى ـ هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذي أذهله كما ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعا برغبته في الافراج عن امه ، راى هذا

كله في دقيقتين ولما أغلقت زنوبة الباب وعادت الى حجرتها لبث بموقفه يستمع الى الغناء وشخشخة الدف براس دائر ، نفس الصوت الذي استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن أى تغير اعتور الأثر الذي ينطبع منه على نفسه ، أى معان وصور جديدة ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذير لمتاعب جمة اذا سمعه وهو ضمن تلاميـذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا او ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ..

ـ هل أنساك نفسك ما رأيت ؟

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح :

ـ منظر نادر ، وغناء بديع ..

ـ اتحب أن نفعل مثلهما ؟

ـ في ليلتنا الأولى ؟!.. كلا .. لا أحب أن اخلط بك شيئا آخر ولو كان الغناء نفسه ..!

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث ليبدو أمامها ـ وأمام نفسه على السواء ـ هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر ، كالذي يتصنع هيئة الباكي في مأتم فينخرط في البكاء . على أنه ربما عاودته الدهشة فجاة فيقول لنفسه « اعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل ، أنا هنا مع زنوبة وأبى في الحجرة القريبة مع زبيدة ، كلانا في بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحمل نفسى مشقة العجب لوقوع شيء باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت المسه واقعا !.. انه هنالك فمن السخف أن أتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا .. فلأصدق ولا أتعجب .. وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح

فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير ، لا لأنه كان بحاجة الى مشجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لأنه ـ كأكثرية الغارقين في الشهوات المحرمة ـ يستأنس الى الشبيه ، فكيف ان وجده في شخص أبيه ـ القدوة التقليدية ـ الذي طالما أزعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه واياه على طرفي نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به في حياته ، وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين ـ غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف . حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى ، بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيا قريبا ، قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ، ليس الرجل الذي يرعش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يجب أن يكون ، وكما ينبغي أن يكون ، لا يفرق بينهما الا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدي ، اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك في نفسي ، ياله من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا يتيما ، اشرب والعب بالدف لعبا ، ولا بد عيوشة الدفافة ، اني فخور بك ، هل تغني أيضا يا ترى ؟.. » .

ـ ألا يغني السيد عبد الجواد أحيانا ..؟

ـ ألا زال فكرك مشغولا به ؟! يا ويل الناس من الناس !.. بل يغني أحيانا يا جملي .. يشترك في الهنك اذا سكر ..

ـ وكيف صوته ؟

ـ غليظ جميل كعنقه ..

« الى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تغني في بيتنا ، الجميع يغنون ، أسرة عريقة في الطرب ، ليتني أسمعك ولو مرة ، لا أحفظ لك في ذاكرتي الا الزعق والنهر ، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا

« يا ولد ـ يا ثور ـ يابن الكلب » . أريد أن أسمع منك « الوداد في الملاح صدف » أو « حبيت جميل » كيف تسكر يا أبي ؟ كيف تعربد ؟ ينبغي أن أعرف لأحتذي مثالك وأحيي تقاليدك ، كيف تعشق ؟ كيف تعانق ؟.. »

وانتبه الى زنوبة فرآها أمام المرآة وهي تسوي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح ابطها من فرجة الفستان أملس ناصعا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال ..

ـ ٤٠ ـ

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصيلا وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورود التي أزينت بها أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر باعلانها ، في أمثال هذه المناسبات وتتعلل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد ، تم كل شيء في صمت وهدوء فلم يدر به الا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وأبى السيد أن يتزحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة

واحدة ، وفي ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفي على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة في سرعة خاطفة كأنما تخاف ان يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين ، على حين اتخذ كمال مجلسه الى جانب سائق سيارة العروس ، ورغبت الأم في أن يمضي الركب الى السكرية عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلفها الشوق اليه قبل ذلك غاليا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء ، فاخترقت السيارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت الى الغورية عند المنعطف الذي كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولي أمام مدخل السكرية الذي يضيق عن دخول السيارات، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريد من بيت آل شوكت ، أول بيت الى يمين الداخل ـ حيث ازدحمت نوافذه برءوس المطلات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسين وفهمي ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم الى يدها فشبكتها بساعده ، ثم سار بها الى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهال على أقدامها وعلى اقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم ، ومع أن قران عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر او أكثر الا ان منظر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسين وفهمي ـ والأخير خاصة ـ دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار أشبه كأن جو أسرتهما لايهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب امه من يدها في انزعاج وهو يشير الى العروسين

اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ، وخطر للشابين ان يسترقا النظر الى وجه أبيهما ليريا أي أثر تركه ذاك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على أثر ، لم يوجد عند المدخل ، ولا فيما يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصة الغناء . والواقع ان السيد خلا الى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على الا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسه عن «الجمهور» الصاخب خارجها ، لم يكن اشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف ، اذ لايرضى ان ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور ، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعي الفرح ، وفضلا عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى ـ بينهم ـ على غير ماعهدوا من وقار صارم ، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وابت الا أن تحييها ليلة حافلة فاتفقت على احيائها مع العالمة جليلة والمغني صابر ، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان أحد أفراد قلائل أبيح لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار ، لبث طويلا مع أمه بين النساء منقلا طرفه بين زيناتهن وحليهن مصغيا الى دعاباتهن وأحاديثهن التي يستأثر الزواج بخلاصتها ، أو منصتا معهن الى العالمة جليلة التي تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارا ، فاستأنس الى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته ـ والأهم من هذا كله ـ لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجعته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها ، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت الى أن تحثه همسا على الانتقال الى مجلس أخويه لأمور لم تتوقع حدوثها . من

ذلك مابدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حينا وبزواقها حينا آخر ، فخيف منه على هندامها ، او ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير الى امرأة من آل العريس قائلا : « انظرى يانينة الى انف هذه الست .. أليس أكبر من انف آبلة خديجة » أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغنى من الاشتراك مع التخت في ترديد « يامة حلوة .. ومنين أجيبها » حتى دعته العالمة الى الجلوس بين أفراد تختها ، وبهذا وغيره جذب الأنظار اليه فأخذت المدعوات في مداعبته ولكن أمه لم ترتح الى الضجة التى أثارها ، وآثرت على كره منها ـ اشفاقا على البعض من عبثه واشفاقا عليه من أعين المعجبات ـ ان تحمله على مغادرة المكان ، انضم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف ، ثم وقف بين فهمى وياسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميل » واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر الى داخلها فمد راسه وما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعينى والده فتسمر في مكانه وعجز عن استردادهما ، ورآه أحد أصدقاء أبيه ـ السيد محمد عفت ـ فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من اغضاب أبيه فتدانى من الرجل على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكرى في طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

ـ ما شاء الله .. في أى سنة يا عم ؟

ـ سنة ثالثة رابع ..

ـ عال .. عال .. سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجيب على أسئلة محمد عفت الا انه راعى من بادىء الأمر أن تكون اجاباته بحيث ترضى أباه .. فلم يدر كيف يجيب على السؤال الأخير او انه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلطفا :

ـ الا تحب الغناء ؟.

فقال الغلام بتوكيد :

ـ كلا ..

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه الاجابة ـ آخر ما ينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد ـ مازحين ـ ولكن السيد حذرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

ـ الا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

ـ القرآن الشريف ..

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

ـ ان صح هذا فالغلام ابن زنا ..

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف كمال ...

ـ هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعى التقوى أمامى !.. رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « ياطير ياللى على الشجر » ..

فقال السيد على :

ـ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء في انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلا :

ـ المهم ان تخبرنا هل اعجبك صوته في دور « يا طير يا اللى على الشجر » ؟..

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

ـ ذاك الشبل من هذا الأسد :

فهتف الفار قائلا :

ــ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التى انجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مغتبطا بحريته التى جعلت من المكان كله ــ فيما عدا المنظرة المخيفة ــ مجالا مباحا لقدميه دون معترض أو رقيب ، فأى ليلة هذه في الزمان ! شىء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذى باتوا يدعونه « ببيتها » هذا الانتقال الذى نفذ على رغمه دون أن يستطيع احد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف سمح أبوه به وهو الذى لا يسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وساءل أمه في عتاب ، كيف تفرط في عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع اليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فأجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لا يطيب له الرى الا من موقع شفتيها ، حقا ان الفرح الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور انه ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغناء في تلك الليلة فاق اى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان او مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والمطلية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سنه كل من لاحظه من النساء والرجاء فلم يدهش احدا من اسرته التى تعرف سوابقه في الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعده أحسن أصواتها بعد عائشة وان كان صوت الأب ــ الذى لا يسمعونه الا مزمجرا ــ احسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا

الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته احب الى قلبه وآخذ لنفسه ، فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشق ليه .. علشان كده » جمل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا في سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت امينة وخديجة كمال في بعض ما أتيح له من اسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ــ مثله ــ أن شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من انس وطرب ومرح ، وأبهج أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التى لم تنعم في حياتها برعاية او مجاملة ، حتى خديجة اختفى همها في أنوار الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح ، نسيت احزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطلية ، وازدادت لها نسيانا بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ، شعور اثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى ــ ساعة الفراق مثلا ــ الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر ، هذا الى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدت في زينة اضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها أنظار بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملا وأحلاما عاشت بها زمنا رغدا .

وجلس ياسين وفهمى جنبا لجنب ، يراوحان بين السمر والسماع ، وجلس خليل شوكت ــ العريس ــ ينضم اليهما بين ساعة واخرى كلما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة المتعة ، وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظمأه ولو بكأس أو بكأسين ؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت ــ وكان صديقا للأخوين ــ وهمس قائلا :

ــ ادركنى قبل أن تضيع الليلة ...

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينيه مطمئنا :

ــ افردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء ..

عند ذلك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماع، لم يكن في نيته أن يسكر ، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ، خاصة وأن والده وان انزوى في المنظرة ــ غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته بمزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه الحصين من المهابة والاجلال ، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السر الذى اطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لانسان ولا لفهمى نفسه أقرب المقربين اليه ، لهذا كله قنع من بادىء الأمر بكأس أو بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة ، ويتهيأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التى لم يعد لها عنده طعم بغير شراب . فهمى بخلاف ياسين ــ لم يجد ، أو لم يطمئن الى أنه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجىء العروس ، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالهما بقلب خلى فوقع بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد شف قناعها الحريرى عن ديباجة وجهها الصافي ، فأتبعها نظرة بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالى الناسى ، والحق تمر به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجم من العناء ، ولكن ما أن تخطر خطرة أوّ تهفو ذكرى ، أو يجرى اسمها على لسان ، أو أو ، حتى يخفق فؤاده ألما ، ويفرز الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملتهب تجىء عليه فترة فيسكن ألمه حتى اذا هرس لقمة أو مس جسما صلبا انفجر به الألم ، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ،

صائحا بأعلى صوته انه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف في تقرير مصيره . وقرب أمنيته كر الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلقان له ضروبا من الألم والغيرة ان تكن وهمية فليست دون الواقع ــ فيما لو تحققت ــ ضراوة وقساوة ، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالى الألم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله يبلغ بعد ذلك باليأس مالم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء ، الا أنه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته « أترا » لا يمكن أن يمضى بلا رد فعل محسوس ، ولما لم يسعه أن يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه ــ بطريقة عكسية ــ بالاغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى تخطر في معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا قابلية للأرق ، وانه لن ينعم على الأقل هذه الليلة ــ بصدر مستقر ، وان شيئا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها او الابتسامة التى حيت بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خلى متشوق للهدوء والسرور ، ابتسامة لا يوحى رواؤها بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم ، فحز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الألم منفردا ويحمل متاعبه وحده ، ولكن الا يقهقه هو الآن عاليا ، يحرك رأسه مع الأنغام

كالمنبسط الطروب ؟.. الا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به
ما ظن هو بها ؟.. وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد
من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « الا يحتمل أن أشفى
كما شفى فلان الذى أصيب به قبلى» ؛ وما لبث أن ذكر رسالتها
التى عاد بها كمال اليه منذ أشهر وهى قل له انها لا تدرى ماذا
تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار ..
وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء
هذه الكلمات ؟.. أجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت
أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تتضمنه
من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحنقه
بالتالى عليها ، اذ يندر ان يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف
بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب ، الى الحب
الهائج ، ليست رؤيته لها وحدها التى رجته هذه الرجة العنيفة ،
فلعل ذلك لانه رآها لأول مرة ، فى مكان جديد ـ فناء بيت آل
شوكت ـ بعيدا عن داره التى لم يرها خارج نطاقها من قبل ،
كان وجودها الدائم فى المقام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية
على حين بعث ظهورها المفاجىء فى المكان الجديد ـ ذاك الظهور
الذى خلقها فى عينيه خلقا جديدا ـ حياة جديدة فى وجدانه ،
ايقظت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معا على أحداث هذه
الرجة العنيفة ، ولعل ذلك ايضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما
يقترن به من تقاليد صارمة اقامت بينه وبينها سدا من اليأس ،
وجودها فى جو من الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج
والحركة ، وجودها في بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب
والوصال ، كل أولئك أطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب
أملا غير عسير ، وكأنما تقول له « انظر أين ترانى الآن ، ما هى
الا خطوة أخرى فتجدنى بين ذارعيك » ولكن ما لبث هذا الأمل
أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى احداث تلك الرجة العنيفة،

ولعل ذلك أيضا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا فى نفسه
وتغلغلا فى حياته ونشوبها فى ذكرياته ، فان الصور تتعمق
فى أنفسنا باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد اليها تجاربنا ،
وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين
وكمال وتسميع الكلمات الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع
امه فى حجرة المذاكرة والرسالة التى عاد بها كمال فستقترن
منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء
صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة
حواسه ، ومثل هذه العملية .. لا يمكن أن تتم دون ان تشارك
فى أحداث الرجة العنيفة التى دوخته .. وحدث في فترة
الاستراحة أن ترامى صوت العالمة الى مجلس الرجال من النوافذ
المطلة على الفناء وهى تغنى « حبيبى غاب » فنشط الى السماع
باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت
جليلة اعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت اليها فى تلك اللحظة
لأن الجملة الغنائية تخاطب أذنيهما فى وقت واحد معا ، لأنها
الفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ،
لأنها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله
على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس
واحد ، وحاول طويلا أن ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ،
أن يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى
ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول
الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة،
ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » أو « بقى له زمان
ما بعاتش جواب» ، ترى هل غابت فى لجج الذكريات ؟.. أو لم
تنحسر موجة منه عن وجهه ؟.. ألم ينقبض قلبها لشكة ألم
او لحزة حسرة ؟ أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة
الا فرحة الطرب ؟.. وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة
متبرجة الحيوية أو وثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على

شفتيها عند مجيئها فآلمته لأنه توسم فيها رمز السلو والنسيان،
او وهى تحادث احدى أختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسدهما
عليه على حين لا يجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج الا
حديثا عاديا كسائر الأحاديث التى يشتبكان فيها مع غيرها من
فتيات الجيران ، اجل طالما عجب لموقف أختيه منها ، لا لأنهما
لايكترثان لها فالحق أنهما يحبانها ، ولكن لأنهما يحبانها كما يحبان
غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ،
وكيف يلقيانها بترحيب عادى دون أن يضطرب لهما نفس كما
يلقى هو أى فتاة عابرة أو أيا من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق ،
وكيف يتحدثان عنهـا فيقولان « مريم قالت أو مريم فعلت »
وينطقان بالاسم كما ينطقان بأى اسم .. أم حنفى مثلا كأنه ليس
الاسم الذى لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو
يعجب لموقعه من اذنه أو كأنه ليس الاسم الذى لا ينطق به فى
وحدته الا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة فى خياله بتهاويل
الأحلام التى لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنه » أو
« عليه السلام » .. وكيف اذن عطل الاسم ـ بل الشخص نفسه ـ
عندهما من سحره وقدسيته ؟!.. وعندما انتهت جليلة من الأغنية
تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام لم تحظ
الأغنية نفسها بمثله لأن حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه ، وتمنى
لو كان بوسعه أن يميز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها
من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة
بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطىء ، على أنه وهب
حبه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التى يترامى الى
سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التى يتبعها ابنها فتدعو
لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن أشبه بفهمى فى عزلته الباطنية ـ وان اختلفت الأسباب ـ
من أبيه الذى لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الأصدقاء

الذين لم يطيقوا التوقر ، والغناء يجلجل فى الخارج ، انفضوا من
حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معه الا
النفر الذين مجلسه أحب اليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعا فى
رزانة غير معهودة كأنما يؤدون واجبا أو يشهدون مأتما ، هذا
ما قدروه من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليلة الزفاف ، لما
خبروه من طبيعته المزدوجة التى عرف بجانب منها بين أصدقائه
وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض
بين مجلسهم الوقور هذا الذى يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين
مجالسهم المسائية المعربدة التى لا يحتفلون فيها بشىء ! وما عتموا
أن جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادىء فما أن علا
صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفار
واضعا سبابته على شفتيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس فى
اذنه محذرا زاجرا نحن فى فرح يا رجل !.. ومرة أخرى وكان
الصمت قد غلبهم مليا فاذا بالسيد على يقلب عينيه فى وجوههم
ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكر « شكر الله سعيكم » وعند
ذاك دعاهم السيد الى اللحاق بصحبه فى الخارج ومشاركتهم
لهوهم ولكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب
قائلا : نتركك فى مثل هذه الليلة ؟!. وهل يعرف الصديق الا عند
الضيق ؟!. فما تمالك السيد أن ضحك قائلا : ماهى الا عدة ليالى
زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعا .. على أن ليلة الزفاف
تضمنت فى نظر السيد أحمد معانى أخرى غير التوقر الاجبارى
فى مجلس انس وطرب ، معانى تخصه وحده كأب ذى طبيعة خرقت
المألوف من الطبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا
غريبا لايرتاح اليه وان لم يقره عقله أو دينه ، لايعنى هذا انه ود
الا تتزوج كريمتاه ، فالحق انه كسائر الآباء جميعا رجا الستر
لفتاتيه ، ولكن لعله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة
لهذا « الستر » ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة

لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى فى الأقل لو لم يكن أنجب اناثا قط ، اما وتلك أمانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من ان يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان أحيانا ـ ليأسه من دوام العمر ميتة شريفة أو ميتة مريحة ! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور ، فربما حدث بعض خلصائه قائلا : « تسألنى عن انجاب الاناث ؟. انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على اى حال ، لا يعنى هذا أنى لا أحب ابنتى فالحق انى أحبهما كما أحب ياسين وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وأنا أعلم بأنى سأحملهما يوما الى رجل غريب مهما يبدو لى من مظاهر فالله وحده المطلع على باطنه ؟.. ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية أبيها ؟.. وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات أبوها فلجأت الى بيت اخيها لتعيش عيشة المنبوذين ؟! لست اخاف على أحد من أبنائى لأنه مهما يحدث لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة أما البنت .. اللهم احفظنا ! » أو يقول فيما يشبه الصراحة «البنت مشكلة حقا .. الا ترى انا لا نألو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟.. ولكن الا ترى انا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا الى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عيابة ابت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها ، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى

حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليأكل وينام ! » لم يكن اعترافه بمزاياه أولا ثم فحصه عن اى عيب يلصقه به أخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفسه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج ، فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية كمدمن الأفيون الذى تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسماع من بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحنق .

وعندما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير الى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للعواقب فأعلن قناعة بكأسين وقاوم بشجاعة ـ أو بجبن ـ تيار الشراب المتدفق حتى اذا ما لسعته النشوة الأولى فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاستزادة من النشوة الى القدر الذى لا يخرجه عن حدود الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة الا انه ـ على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار ـ اخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى ، وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود ..

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل :

ـ من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء

أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجـه العالمة بحيرة وانكار ، ولما أعادت العالمة التسـاؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشـارة الى امينة وهى تقول :

– ها هى حرم السيد أحمد ففيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العـالمة بعينين ثاقبتين ثم أطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

– حسناء وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .

وبدت أمينة كالعذراء المتعثرة فى حيائها ، بيد ان الحياء لم يكن كل ماتعانيه ، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمد عبد الجواد » وعن اطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسـه الا الخبير به ، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التى رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسائلهن عن رأيهن فى « هذه المرأة السكيرة » ، ولكن جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها الى العروس وتفحصتها كمـا تفحصت أمهـا من قبـل ثم أرعشت حاجبيها وهى تقول باعجاب :

– قمر ورسول الله ، أنت بنت ابيك حقا ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه .. (ثم مقهقهة) .. أراكن تتساءلن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد ؟! .. انى اعرفه من قبل ان تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينا وقرين صباى ، وكان والدانا صديقين ، أم تحسبين العالمة لا أب لها ؟ .. كان ابى شيخ كتاب من أهل البركة .. ما رايك يا زينة الستات .. ؟!

وجهت السؤال الأخير الى امينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى ان تجيبها ــ وهى تقاوم ما ركبها من ارتباك ــ قائلة :

– رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم ..

فجعلت جليلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها

كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتهـا نهايته ، أو لعل رأسـها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التـذ بها ، ثم استطردت قائلة :

– وكان رجلا غيورا ، ولكنى نشأت بفطرتى لعوبا لا أبالى كأنما رضعت الغنج فى المهد ، كنت أضحك الضحكة فى الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع ، فما يبلغه صوتى حتى ينهال على ضربا ويرمينى بشر الصفات ، ولكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟! .. ضاع التأديب هباء ، ومضى الرجل الى الجنة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخذ مما رمانى به من شر الصفات شعارا لى فى الحياة .. هى الدنيا .. ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها .. ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء فى الحلال أو فى الحرام ..

وعزف الضحك فى جنبات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهش التى ندت هنا وهناك ، ولعل ما استثاره قبل أى شىء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى ــ فى ظاهرها على الأقل بالجد ــ والتأسى ، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به أخيرا من مزاح مكشوف ، حتى أمينة نفسها ــ وعلى رغم ارتباكها ــ ما تمالكت أن ابتسمت وان نكست وجهها لتوارى ابتسامتها ، على أن النساء كن يستجبن ــ فى مثل هذا المجلس ــ لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وان خدش الحياء أحيانا كأنما ينفسن به على طول تزمتهن ، وواصلت العـالمة السكرانة حديثها قائلة :

– وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوبة ، وآى ذلك انه جاءنى يوما برجل طيب مثله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) .. أى زواج يا عمر ؟! . وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان ! .. وقلت لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل ..

وأمسكت مليـا لتستزيد من التشـويق ، أو لتتمتع أكثر

بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثم عادت تقول :

— ولكن الله سلم فأدركتنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول ، وكان المرحوم أخ عواد عند العالمة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغناء ، وأخذ بيدى حتى ضمنى الى تخت نيزك التى حللت محلها بعد وفاتها ، ومارست الغناء دهرا عرفت فيه من العشاق مائة و .. (وقطبت وهى تتذكر بقية العدد ثم التفتت الى الدفافة وسألتها) وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدفافة قائلة :

— وخمسة فى عين من لا يصلى على النبى ..

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصفو الجو للعالمة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالا الى اللاتى تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب ، ولكن احدا لم يلح عليها فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من انها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولما جذب ظهورها المفاجىء بعض الأنظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها — كالتثاؤب — من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم شعر صابر نفسه — رغم انهماكه فى الغناء — بالفجوة الفجائية التى فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره الى الهدف الذى استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر اليه من بعيد براس مائل الى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء وأشار الى تخته فتوقف عن العزف ، ثم

رفع يديه الى راسه تحية لها !..كان صابر خبيرا بنزوات جليلة — وعلى خلاف الكثيرين — عالما بطيبة قلبها ، ومقدرا فى الوقت نفسه لخطر معاندتها ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك يا سى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الاكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى الذى دعاها الى المجىء وسألته بدورها بصوت ترامى الى الكثيرين ومنهم — وهو الأهم — ياسين وفهمى :

— مالى لا أرى السيد أحمد عبد الجواد ؟!.. أين يختبىء الرجل ؟

فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنظرة باسما ، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيعاها بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

— مساء الأنس يا رجال ..

وركزت عينيها فى السيد فما تمالكت أن اغربت فى الضحك وهى تتساءل ساخرة :

— هل أخافك مجيئى يا سيد أحمد ؟!

فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :

— اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجىء الى هنا تحت أنظار الناس جميعا ؟!

فقالت كالمعتذرة وان لم تزايلها بسمة ساخرة :

— عز على الا أهنئك على زواج كريمتك ..

فقال السيد فى ضيق :

— لك الشكر يا ستى ، ولكن اما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون ؟

فضربت جليلة كفا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

— هذا احسن ما عندك لى من استقبال !.. (ثم موجهة الخطاب الى صحبه) .. اشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى يغرز فردة شاربه فى سرتى ، انظروا اليه كيف لا يطيق الآن رؤيتى ..

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها « لا تزيدى الطين بلة » وقال برجاء :

— علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..

هنا قال السيد على كأنما ليذكرها بما لا ينبغى لها أن تنساه :

— لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ، وليس بينكما ثأر ، ولكن اهله فوق وأبناءه فى الخارج ..

فقالت متمادية في اغاظة السيد :

— لماذا تتظاهر بالتقوى بين اهلك وانت بركة فسق !

فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

— جليلة .. !.. لا حول ولا قوة الا بالله .

— جليلة أم زبيدة يا ولى الله ؟!

— حسبى الله ونعم الوكيل ..

فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الأعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقاضى ينطق بالحكم :

— سيان عندى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفنى وراس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى اذنيك (مشيرة الى نفسها) فى القشدة ..

عند ذاك نهض السيد محمد عفت — وكان من اقرب المقربين

اليها — وقد خاف ان يتمادى بها السكر الى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا في أذنها :

— حلفتك بالحسين الا ما رجعت الى مستمعاتك المنتظرات على نار ....

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهى تبتعد رويدا وقالت :

— لا تنس أن تبلغ تحياتى الى القارحة ، ونصيحتى اليك — بحق الأخوة — أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء ..

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن ينكشف امام كثيرين — خاصة اهله — ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة ، أجل لم يزل ثمة أمل في الا يبلغ الحادث احدا من آله ولكنه أمل ضعيف ، ولم يزل ثمة رجاء في الا يفهموه اذا بلغهم — بما طبعوا عليه من براءة — على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لاكثر من سبب ، بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية اخرى اثبت من أن يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها ، وفضلا عن هذا فان احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالفرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذاك اكثر مما ينبغى ، لثقته بقوته ، ولأنه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والاقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها ، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شىء من امره قبل أن يبلغوا اشدهم اى حين لا يهمه كثيرا أن ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع أن يلطف من أسفه على ما وقع ، حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى ، اذ ان مجىء امرأة كجليلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه أو لتعابثه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد «حادث» له مغزاه الهام في الأوساط التى تشهد لياليه ، وظاهرة

لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والانس شيئا ، ولكن اكم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمى دهشة بكرا دار لها راسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة « انه من حينا ولا بد أنك تسمع عنه..السيد احمد عبد الجواد .. » ، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فأدرك ـ في سعادة أيقظت في قلبه نشوة الاعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه في حجرة زنوبة ـ أن جليلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التى بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وأن الرجل فاق كل ماتصوره خياله عنه ، ولبث فهمى يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأن العالمة انما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت واخبرهما ضاحكا بان جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذاك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على أذن اخيه قائلا وهو يغالب ضحكه «كتمت عنك اشياء تحرجت من البوح بها في حينها ، اما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ماسمع وما راى في بيت زبيدة العالمة ، وفهمى يقاطعه من آونة لأخرى قائلا في ذهول « لاتقل هذا .. » «هل فقدت وعيك» ، «كيف تريدنى على أن أصدقك» حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها ، لم يكن فهمى ، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم ـ بله هضم ـ السيرة الخفية التى تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من اركان عقيدته ودعائم مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين

شعوره وهو يعانى هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين ـ ان صدق الخيال ـ وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة ، ولعله لو كان قيل له ان جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه ، أو كان قيل له ان محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا او ذاك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « أبى يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف !.. أبى يذعن لمداعبة جليلة وتوددها !.. أبى يقترف السكر والزنا ، كيف اجتمعت الثلاث!.. اذن هو غير الأب الذى عرفته في البيت مثالا للورع والقوة !.. أيهما الصحيح ؟.. كأنى أسمعه الآن وهو يردد : الله اكبر .. الله اكبر ، فكيف ترديده للغناء !.. حياة تمثيل ورياء !. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع راسه للدعاء ، صادق اذا غضب .. أيكون أبى رذيلة أم يكون الفسق فضيلة !..

ـ ذهلت ؟!.. ذهلت أنا أيضا عندما نطقت زنوبة باسمه ، ولكن سرعان ما استسخفت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا ؟!.. كفر !.. هكذا الرجال جميعا او هكذا يجب ان يكونوا ..

« هذا القول جدير بياسين حقا .. ياسين شىء وأبى شىء آخر .. ياسين !.. ما ياسين ؟!.. ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وأبى ، أبى نفسه ، لا يختلف عنه في شىء ان لم يفقه تدهورا .. كلا ليس تدهورا .. ثمة أمر اجهله .. أبى لايخطىء.. غير قابل للخطأ .. فوق الشبهات .. وعلى أى حال فوق الاحتقار..

ـ ما زلت ذاهلا ؟!

ـ لا أتصور شيئا مما قلت ...!

ـ لماذا ؟.. اضحك وافهم الدنيا ، يغنى وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصدقنى ان السكر الذ من الأكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه » ليس على ابينا حرج ، اهتف معى ليحيى السيد أحمد عبد الجواد ،

ليحيي ابونا ، سأتركك لحظة ريثما أزور لهذه المناسبة ــ الزجاجة التي اخفيتها تحت الكرسي .

بعودة العالمة الى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تناهى الى الأم وخديجة وعائشة ، ومع انهن كن يسمعن شيئا كهذا لأول مرة الا أن سيدات كثيرات ــ ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة ــ تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذي يعرف أكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع اما لأن الخوض فيه جهارا أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن واما لأن دواعي المجاملة أملت عليهن بأن يمسكن عنه حيال أمينة وكريمتيها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جليلة زاغت الى السيد أحمد ! » فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك ، ومع أنها الفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فأحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا في صميم كبريائها ، وارادت امراة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن له وجه كوجه ست أم فهمي قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيغان عين زوجها الى امراة أخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت ــ على أى حال ــ بعض العزاء عما تعانيه من الم صامت ، الا أنه لما بدأت جليلة اغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجيء وشعرت ثواني بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامراة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب. هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشهما لم

يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بألم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجدتا في قيام امراة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس أبيهما لتحيته ومحادثته شيئا مثيرا للاعجاب حقا ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع انها رأتها تبتسم الا أنها فطنت من أول وهلة الى أنها تكابد ألما وارتباكا ينغصان عليها صفوها وأحست بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله ..

ولما أزفت ساعة الزفة نسى كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان ..

***

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد أحمد في المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمي وياسين الذى أفرغ ما في وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم في مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب ، ثم جاءت في المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفي ، انضم كمال الى القافلة على رغمه. فلولا الحادي الذي يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة واخرى صوب بوابة المتولي ليودع أسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلم خشبي اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكرية ، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد أمه ، ورفع بصره الى والدته وسألها هامسا :

ــ متى تعود أبلة عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

ـ لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيراً ونزورها كثيراً ..

فهمس مرة أخرى محنقاً :

ـ ضحكتم على ..!

فأشارت بيدها الى الأمام ، في اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة ومطت شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولاً باستحضار صور مما مر به في بيت العرس الى مخيلته ، رأى أنها متناهية فى غرابتها وفيما بعثته فى نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وأم حنفي ثم همس متسائلاً وهو يشير الى الوراء :

ـ أما علمت بما يدور هنالك ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الأم جزعاً لأنها حدست اى باب يعنى ولكنها سألته مكذبة نفسها :

ـ أي باب ؟

ـ باب غرفة العروس ..!

فقالت المرأة بانزعاج :

ـ يا له من عيب أن ينظر الانسان من ثقوب الأبواب ..!

فهمس من فوره :

ـ ما رأيته أعيب ..

ـ اخرس ..

ـ رأيت أبلة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج .. وهو ..

فلكزته في كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست في أذنه :

ـ يجب أن تخجل مما تقول ، لو سمعك أبوك لقتلك ..

ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصور هى وقوعها :

ـ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها ..

ولكزته مرة اخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك انه أخطأ حقا وهو لا يدرى وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة ـ وقد تخلفت عنهما أم حنفى لتسك الباب وتضببه وتترسه ـ الح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :

ـ لماذا يقبلها يا نينة ؟

فقالت له بحزم :

ـ اذا عدت الى هذا اخبرت والدك !..

- ٤١ -

آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ، ماكاد يخلو الى فهمى ويأمن الرقباء ـ بسرعان ماغط كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة ـ حتى جمحت به رغبة في العربدة كرد فعل للجهد العصبى الذى بذله طوال السهرة ، خاصة في طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :

ـ قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا !.. حقا انه لرجل ..

وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمى وحيرته الا أنه قنع بان يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :

ـ البركة فيك فأنت نعم الخلف ..

— أيحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟
— وددت لو تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة في نفسى .
فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور :
— الصورة الحقيقية ابهى وامتع ، أعظم به من أب هو المثل الأعلى ، آه لو رأيتــه وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر ! عفارم .. عفارم يا سيد احمد !.
فتساءل فهمى في حيرة :
— وحزمه وتقواه ؟!.
فقطب ياسين ليركز فكره في المسألة ولكنه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :
— ليس ثمة مشكلة على الاطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، أبى حازم ومؤمن ويحب النسوان ، شيء بسيط واضح مثل ١ + ١ = ٢ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن وأحب النسوان وان قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق ايمانك وحزمك اذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !.
لعله نسى عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذى دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه في الظاهر فقط ، أما في الحقيقة فلم يكن الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور، عن شهوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب جسده في الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكمها أو ملاطفتها ، ولكن أين يجد مطلبه ؟.. هل يتسع له الوقت ؟.. زنوبة ؟!.. ماذا يحول بينه وبينها ؟!.. طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له

يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث أن قال لأخيه :
— الجو حار ، سأصعد الى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب ...
وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متلمسا طريقه في ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة في هذه الساعة من الليل ؟. هل يطرق الباب ؟. ومن عسى أن يجيء لفتحه ؟. وبم يجيبه اذا سأله عن مقصده ؟. واذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب ؟. أو اذا جاء الغفير ليراقبه بتطفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة في تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق ينبغى تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاوزها خياله طائرا الى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها في قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطاوعا فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية . خرج — بخروجه الى الفناء — الى ظلمة أخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور . وعندما خطا خطوتين متجها الى الباب الخارجى في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منه على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استحبت النوم في الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من موقفه ، الذى لم يفصله عنها الا بضعة أمتار ، بوضوح غير

منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التى رسمت في الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت في نفس الوقت عن فخذها اليسرى التى لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم غرقت في ظلمة الفرجة التى انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع أن احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا انه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه ، أو لعله لم يستطع استرداده وانســاق وهو لا يدرى الى تفرسه بامعان بدا في يقظة عينيه المحمرتين وانفراج شفتيه الممتلئتين ، فاستحالت يقظة العين — وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة — رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة ، ثم تحول التيــار المضطرم في شرايينه من التطلع صوب باب الخروج الى حجرة الفرن ، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التى خالطها أعواما طويلة بغير مبالاة . على ان أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن ، وبدا وجهها الجهم أكبر من سنها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان — لتنافره وسوء تنسيقه — بالانتفاخ الغليظ أشبه ، ولذلك ، وربما أيضا اطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدأت مع صباه ، لم يلتفت اليها قط ، بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها اية قدرة على التمييز فأعمته الشهوة ، وأى شهوة ؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والكل عندها في « الأزمات » سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة ، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى — زنوبة — محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب ، ولم يعد « الوصول اليها في هذه الساعة من الليل ، وطرق الباب ، وما يقول لفاتحه ، والخفير » دعابات يبسم

لها ، ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم في خفة وحذر فاغرا فاه ، ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذى بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبته لاستقباله ، حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ، ثم انحنى عليها قليلا قليلا بلا وعى تقريبا ، وباغراء شديد من الداخل والخارج معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغى أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذى انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية — سبقت يده التى رامت كتمها — فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس في أذنها بقلق وخوف بالغين :

— أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفى ، لا تخافي ..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ، ولكن المرأة — التى لم تمسك عن المقاومة قط — تمكنت أخيرا من تنحيه عنها ، فاستوت جالسة وهى تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت أزعجه أيما ازعاج :

— ماذا تريد يا سى ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

— لا ترفعى صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافي ، ليس ثمة مايدعو الى الخوف بتاتا ..

فعادت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :

— ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد في شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما راى في خفضها لصوتها امارة مشجعة وقال لها :

— ماذا أغضبك ؟ لم ارد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى الى حجرة الفرن ..

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :

— كلا يا سيدى ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال . لعلها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجأة ، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من أى نوع كان ، التى انقضت عليها في نومها كما تنقض الحدأة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقى في الصد أو الزجر ، بيد أنه أساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت برأسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن أن اتراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لابد مما أريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه — قبل أن يتخذ قرارا — سمع حركة غريبة ، لعلها أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع في نهايته ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق اذا بوغت في مكمنه ، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة مادا ذراعه بالمصباح . تسمر في مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائسا . أدرك من توه أن صرخة أم حنفى لم تضع هباء ، وأن النافذة الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ما جدوى الادراك المتأخر ؟.. لقد وقع في فخ القضاء والقدر . وجعل السيد يتفرس في وجهه بقسوة صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه القاسيتين أشار بيده الى الباب يأمره بالدخول ، ومع أن الاختفاء كان أحب اليه في تلك اللحظة من الحياة نفسها الا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا ، فضاق

صدر الأب ولاحت في عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه — اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه — ترسلان شررا ..

— أطلع يا مجرم يا بن الكلب .

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لايبالى ظلمة ..

— ٤٢ —

علم بفضيحة ياسين شخصان — غير أبيه وأم حنفى — هما ست أمينة وفهمى ، سمعا صرخة أم حنفى ، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من أخلاق « أم حنفى » فدافعت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا « صرختها » ما درى أحد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لأنه « ما كان ينبغى أن ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا !.. وظلت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشىء ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة

اكراما لاحترام يكنه له بصفته أخاه الأكبر ، احترام لم يذهبه كل ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدم هو به عليه من علم وثقافة ، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام أحد من أخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، أجل لم يزل يكن له احتراما لعل حرصه على الابقاء عليه راجع الى ما يأخذ به نفسه من تأدب وجد ورزانة أكسبته مظهرا أكبر من سنه ، بيد أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ ــ غداة الواقعة ــ أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنه لم يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة ــ بسوء ظنها الطبيعي المرهف ــ بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فساءلت أمها ولكنها لم تجد جوابا شافيا ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضا ، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملا أن يجد فى الجواب ما يبشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمي والأم بارتباطه بميعاد الا أن خديجة قالت بصراحة «فى الأمر شيء لست عبيطة .. اقطع ذراعي ان لم يكن ياسين متغيرا » . وعند ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه .. وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمي اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه لمائدة أبيه حتى دعي ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه الدعوة ، وان أزعجته رغم ذلك ــ فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت أن تلقيه على وجهه ، وأنه لابد عائد اليها بطريق أو بآخر ولعله توقع أيضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا على التفكير فى مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، أجل لا يجمل بأبيه ــ أبيه كما عرفه فى بيت زبيدة خاصة ــ أن يلقى زلته بهذا

العنف كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لاتليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى أين ؟.. ليس الا أن يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها لملاذه ، لقهوة سي علي وحانة كوستاكي وزنوبة ، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفيء شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا . مهما يقل أبي أو يفعل فهو أبي وهيهات أن تضام حيال تأديبه » ثم قال بصراحته التي يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب اليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكي وسرة زنوبة » . هكذا عدل عن التفكير فى مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجسا ، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر والقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

ــ ما شاء الله !.. طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائي فى الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجيء الى البيت ليراك على حقيقتك ..

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة :

ــ قررت أن تتزوج ..!

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها أذنيه كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال انه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك أن رفع عينيه الى وجه أبيه حتى اذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد

الوجه لائذا بالصمت ، وفطن السيد الى أن ابنه بوغت بهـذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الفظة التى كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التى أملت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه فى نبرات صوته ، وهو يقول عابسا :

ـ الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى الا أن يسمع جوابا واحدا ، ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذى يريد ، لا طاعة لأمره فحسب ، ولكن تلبية لرغبته هو أيضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء ، امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول :

ـ الرأى رأيك يا بابا ..

ـ تريد أن تتزوج أم لا ؟.. انطق ..

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا .

ـ ما دامت هذه هى ارادتك فانى موافق على العين والرأس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

ـ سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوى ، لقية ظفرها برقبة ثور مثلك .

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا :

ـ ولكنى بفضلك أصير كفئا لها .

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مداهنته وقال :

ـ من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق .. اغرب عن وجهى ..

وهم ياسين بالتحرك ولكنه وقفه باشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

ـ أظنك حوشت المهر ؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا :

ـ ولكنك عشت رغم توظفك في كفالتى كما كنت تعيش وأنت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن اطالبك بمليم واحد كى أهيىء لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه » ، ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق أنه لم يتصور أن يجنح أحد من أبنائه ـ بعد ما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين ـ الى هوى من الأهواء الجامحة التى تبدد المال ، لم يتصور أن ينقلب ابنه «الصغير» سكيرا ماجنا ، فالخمر والنساء التى يراها في حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى ايما تنقلب اذا «لوثت» أحدا من أبنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلك فان زلة الشاب التى كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفى في نظره لا يمكن أن تغري شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة .. أجل لم يشك في براءة ابنه بيد انه ذكر ما لاحظه كثيرا من ولعه بالأناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح الى ذلك وحذره الاسراف ولكن تحذيرا هينا ، اما لأنه لم ير في الأناقة جريمة ، واما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى بأسا في أن يكرره أبناؤه ـ حرك في صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟.. هى ما وضح له الآن من تبذيره نقوده في التافه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

ـ اغرب عن وجهى ..

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة ، تبذيره الذى لم يكربه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكير ولا تدبر ، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقا في ساعته ، متعاميا عما يسمونه «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له ، ومع أنه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة ابيه الا انه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك ان تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضا أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذى يضيق أبوه بالحاحه في طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر . ولبث الأب ساخطا وراح يردد « يا له من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » أغضبه اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا في الحياة ، ولكنه لا يرى بأسا في اسرافه كسائر اهوائه ــ ما دام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين ؟.. فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقا عليه وان دل شفقه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلدان من غرور . وزايله الغضب كعادته ــ بنفس السرعة التى ركبه بها ، فصفت نفسه وانبسطت أساريره وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مسماح .. « تريد أن تتشبه بأبيك ياثور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى » كن احمد عبد الجواد كله ان استطعت أو فالزم حدودك ، أحسبتنى حقا سخطت على تبذيرك لأنى كنت أرجو أن أزوجك بنقودك ؟!. خسئت .. انما رجوت أن أجدك مقتصدا كى أزوجك بنقودى على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذى خيبت . وهل حسبتنى لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا ، وأى زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟!. كلا يا بغل انى أفكر في سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وانت أول من جعلنى أبا .. وانت شريكى في العذاب الذى

أصلتنا اياه أمك اللعينة ؟!.. ثم أليس من حقى أن أفرح بك خصوصا وانه على أن انتظر طويلا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق ويا ترى من يعيش ؟!. » في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب ــ الواقع ان الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ــ وكيف قال له الرجل « الا ترى انه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وسار رجلا مسئولا ؟ (ثم ضاحكا) الظاهر انك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر ابناؤهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلا : « هيهات أن تتعرض الرابطة بينى وبين أبنائى لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها ، على أنه اعترض له بعد ذلك أن معاملته تتغير في الواقع بتغير الأحوال وان عمل من جانبه على الا يفطن احد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : « الحق انى لا اقبل ان امد يدى الآن على ياسين ولا حتى على فهمى ، والحق انى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدى الذى ذهبت اليه» ثم استطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضى البعيد « كان أبى رحمة الله عليه يلتزم في تربيتى شدة تهون الى جانبها شدتى مع أبنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ أن دعانى الى معاونته في الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى « أتعارضنى ياثور .. وما دخلك في هذا الشأن ؟. انى أقدر منك على ارضاء أية امرأة» فما تمالكت أن ضحكت وطيبت خاطره معتذرا» ذكر هذا كله فورد على ذهنه

المثل القائل «اذا كبر ابنك آخه» فشعر ـ ربما لأول مرة في حياته ـ بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر به من قبل . في نفس الأسبوع اذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسه ، أما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنا منها ان الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياسا على ماكان بين الأب وفهمى للسبب نفسه فصرحت برايها كالمتسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

ـ الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

ـ بابا معذور في غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجاراها ياسين في سخريتها قائلا :

ـ وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور بأن للعريس أختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

ـ هل سيتركنا ياسين كما تركتنا ابله عائشة ؟

فقالت له أمه باسمة :

ـ كلا ولكن ستنضم الى بيتنا أخت جديدة هي العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى بقاء «راويته» الذى يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضا ؟. فأجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى ياسين ولطائفه . بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته فافصح عنها

بنظرة ناطقة رنا بها الى أمه ، فهمى وحده الذى اثار الخبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا من شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها .. في موقعة ظافرة ..

- ٤٣ -

تحرك الحانطور مقلا الأم وخديجة وكمال في طريقه الى السكرية. أيكون زواج عائشة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ أيقدر لهم أخيرا ان يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق ؟!. بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث، فالذى حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك . ولم تنس أنه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن لها هى بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة في السكرية يجب أن تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على أنه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

ـ ان شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن عليها ؟..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لأنه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود ـ كشأنه في مثل هذه الحالة ـ أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو أثر فى استصدار السماح ، فكره أن تسعى الى تذكيره بهذا السؤال

الماكر ، ومن قبل فكر في الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا !

ــ عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على انني زرتها كما زارها أخواها فماذا يقلقك عليها ؟!

غاص قلبها في صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا ، أما السيد فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عده مكرا منها لا يغتفر ، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشى أساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

ــ اذهبى غدا الى زيارتها ..!

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذى لا تخفى بصفحته خافية فبدت في سرور الطفل فما عتم أن عاوده حنقه فصاح بها :

ــ لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا ..!

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى تشاور خديجة في مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :

ــ هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة ؟

فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله .. ما شاء الله .. » ثم قال لها محتدا :

ــ طبعا .. طبعا ..! ما دمت قد قبلت أن أزوج ابنتى فيجب أن تنضم أسرتى الى أبناء الشوارع !.. خذيها ، ربنا يأخذكم جميعا ..

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الأخير الذى ألفت سماعه .. وأكثر ــ في أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء ــ كانت تعلم بأنه من طرف لسانه وأنه أبعد مايكون من قلبه ، مثله كمثل القطة تبدو ، حين تحمل صغارها ، وكأنها تلتهمها . تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم في طريقها الى السكرية . بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة امه وأخته

وركوبه الحانطور ، أوفر الثلاثة سرورا ، وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب في أعلانه على الملأ او لعله أراد لفت الأنظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه في الحانطور بين أمه وأخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا « يا عم حسنين .. انظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يجده وحده غض بصره في عجلة مبتسما فذابت الأم خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكرية ــ وليس كذلك بدا في حلة الأنوار ليلة الفرح ــ عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن ضخامة بنيانه ونفاسة أثاثه على السؤدد والجاه ، فآل شوكت أسرة « قديمة » وان لم يبق لهم من عزة القدم ــ خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستنكار على التعليم ــ الا الاسم . وقد اقامت العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم شوكت ــ ومعها ابنها الأكبر ابراهيم ــ الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه . ولما أدخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته كما لو كان في بيته ، يجوس خلالها كي يعثر بنفسه على أخته مستمتعا بلذة المفاجأة التي تخيلها وهو يرقى في السلم ولكن أمه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخادم تقودهم الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بأنهم يعاملون معاملة « الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد في جزع « أين عائشة ؟.. لماذا نبقى هنا ؟ » فلا يسمع الا كلمة « هس » وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة اخرى اذا علا صوته !.. ولكنه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع !.

بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة اهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمى ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجراة على أن ترجوه السماح لهم بزيارتها !.. قالت « لا أدرى كيف طاوعنى لسانى حتى تكلمت !. لعل مظهره الجديد الذى لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى ، بدا لطيفا وديعا باسما ، أى والله باسما ، على اننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت أن ينقلب فجأة فينتهرنى ، ثم توكلت على الله ونطقت ! » فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شيء بحساب . فخفق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عندما قيل لها « السيد الكبير في حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل اثر للمساحيق حتى تساءل سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : أدركنى ، لا أستطيع أن القاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى !.. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى ! » ثم قالت « ولما علمت نينة .. (ضاحكة) أعنى نينة الجديدة .. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكت وقالت له : انى أعرف السيد أحمد تمام المعرفة .. هو هذا وأكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى يا شوشو انك لم تعودى من آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين .. » . أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجا « لماذا لم تكونى تبدين هكذا وانت في بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم أكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمقتها بعين الحب . انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح

بزواج الفتاة قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة، فلم يعد ينطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ماتفتقدها كلما آنست من نفسها حاجة الى أنيس تفضى اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى، والمآذن التى تنطلق عن قرب ، ونيار السابلة الذى لاينقطع. كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لايمر تحتها كما أخبرنى سى خليل ! » وواصلت حديثها « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيرانى الجدد ، الا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا ، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالعهم ، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع مايقول لهم ، وألذ منظر ؛ منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام لينا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الخناجر بالسباب والشتائم ، وتجيء في أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدرى أحد كيف يعود الحال الى ما كان عليه ، هنالك أقف وراء الخصاص أكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر » وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا أذكر المطبخ حتى تحمل الى صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيته ! » لم يجد كمال في الحديث شيئا ذا بال الا

انه احس في نغمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدثة فداخله
الانزعاج وسألها :

ــ ألن تعودى الينا ؟..

فملأ الحجرة صوت يقول :

ــ لن تعود اليكم يا سى كمال ..

واذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة
في جلباب حرير أبيض . كان ذا وجه بيضاوى ممتلىء ، أبيض
البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفتيه غلظة ، أما رأسه
الكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف
يشبه في لونه وتسريحته شعر السيد ، تلوح في عينيه نظرة طيبة
وخمول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم
ليقبلها فجذبتها بسرعة في خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم
سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه ــ على حد تعبير كمال
فيما بعد ــ واحد منهم . وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس
بتحديثهم وتفرس فيوجهه طويلا ، ذاك الوجه الغريب أصلا الذى
برز في محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لأن يكون أقرب
الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينا لوجه عائشة . كلما خطر هذا
على باله جر وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه
طويلا وهو يردد في نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود اليكم ياسى
كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه
لولا أن قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية
فضية ملئت حلوى من مختلف الالوان فقدم له باسما ــ وأن كشف
افترار ثغره عن سنتين ركبت احداهما الأخرى ــ نخبة من أشهى
الأصناف ، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل
استدلوا بمشابهته بخليل على أنه أخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم
تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. ألم تعرفوه بعد ؟! »
وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة

« نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض
الآخر الساعة لأول مرة .. لا بأس .. ! فطنت أمينة الى أن
المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شيء
من القلق وتساءلت : ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا
الرجل ــ وان عد عضوا جديدا في الأسرة كخليل سواء بسواء ــ
بغير نقاب ؟.. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا
للسلامة ؟..

كان ابراهيم وخليل اشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على
أن اختلافهما بدا أقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمريهما ،
والحق انه لولا قصر شعر ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان
ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه
ومظهره لا يتأثران بكرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به
السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو أقل من عمره
الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته
ونبله كان كالحيوان لايسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه ! » ،
أليس عجيبا أن يبدو ابراهيم في الثلاثين مع أنه تزوج في صدر
شبابه وأنجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه ؟! ولكنه مرق من
تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع أمه في خمول
ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق
النظر ــ كلما أمنت أعين الرقباء الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه
العجيبة بينهما ، بيضاوية الوجه وامتلائه ، جحوظ العينين
الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة
في نفسها حتى ضحكت أفكارها ومضت تدخر في ذاكرتها من
الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على
سنتها في التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام
في اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الأسماء الوصفية التى
تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمهما التى

تطلق عليها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها عند الحديث .
واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا ان تلتقى عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها في حياء وارتباك ، وتساءلت في خوف المريب عما عسى ان يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من اثر . ترى أيسخر من انفها كما سخرت من بدانته وخموله ؟!.. واستغرقها التأمل والقلق ...

سئم كمال الجلسة التى وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته بها على نحو ماتجمع بين الضيوف فلم تحقق ــ عدا مامنحت من حلوى ــ شيئا من رغابه ، فانتقل الى جوار العروس وأبدى لها اشارة فهمت منها انه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها في الصالة ولكنه جذبها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج. انطلقت أساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكى لعله بقية مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش الوثير ، الى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها « ما هما ؟ » فأجابته « وسادتان صغيرتان » فسألها « أتتوسدينهما ؟ » قالت باسمة « كلاهما للزينة فقط » فأشار الى الفراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسمة أيضا « في الداخل » فسألها كأنه متوكد من أنه ينام معها « وسى خليل ؟ » فأجابت وهى تقرص خده برقة « في الخارج .. » عند ذاك التفت صوب « الشيزلنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث ان غاب في الذكريات غاضا بصرة ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب ،

راودته نفسه على أن يبوح لها بسره ، أن يسألها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم رغبته على رغمه ، ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :

ــ لأملأن جيوبك بالشيكولاتة ..

ــ ٤٤ ــ

تصايح الغلمان المتجمهرون امام باب البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، تميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين ــ وهو في كامل زينته وابهته ــ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف أمام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الأعين المحلقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما أيده في ثباته احساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تخجل منها الرجولة ، ولعله أيضا علم بأن أباه منكمش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء ــ التى تضم آل العروسين من الذكور ــ بحيث لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التى تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، أو الأمل الذى صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لاتقنع

بما دون الدوام . وتوقفت السيارة امام البيت على رأس ذيل
طويل من السيارات فأخذ اهبته للاستقبال السعيد وقد
استجدت عنده الرغبة في أن يستشف النقاب الحريري ليرى
وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية
سوداء في الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين
فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على أنها
الجارية التى تقرر الحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد ، تنحت
جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين
النحاس وهى تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :

ـ تفضل خذ عروسك ..

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى
العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف
طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبهرا ، ومد لها ذراعه
لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء
العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التى الى يمينها فتناولت يدها
وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

ـ تشجعى يا زينب ..

دخلا جنبا لجنب وهى من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة
كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين
صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلها اللواتى تعالت
زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد احمد وقيامه على ذراع منهن ،
هكذا لعلعت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع
من سيده الجبار ، فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ،
بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة
روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بألا تكون
زغاريد ولا غناء ولا لهو ، وبأن تقضى ليلة زفاف الإبن البكر كما تمضى
غيرها من الليالى . وتبادلت امينة وخديجة وعائشة النظرات

متسائلات باسمات وتكأكأن على خصاص نافذة مطلة على الفناء
ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد
عفت ضاحكا فتمتمت أمينة قائلة : «لن يسعه الليلة الا أن يضحك
مهما يبدو مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفى الفرصة السانحة
فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مجلجلة
غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت ـ فى ظل
الارهاب ـ من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتى عائشة
وياسين ، واقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استغرقن
في الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة في العمر .. انه لن
يدرى الليلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد ايصال العروس
الى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفتيه ابتسامة
موحية بالحرج والاشفاق لعلها أثر مما خلفته في نفسه هذه
الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده
الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة ، فما كان من
ياسين الا أن قال له بلهجة ، لا تخلو من استياء :

ـ أى استنكار في أن نحيي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟!.
وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغن ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد الى الافصاح عنها من
سبيل الا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت
على أبيه ، ولكن السيد اعتذر وأبى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة
وأن تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفا :

ـ لن أجد من تزفنى هذه الليلة التى لن تتكرر أبد
الدهر !.. سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالأناشيد
والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون ايقاع ..

ثم لاحت في عينيه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

ـ الذى لاشك فيه أن ابانا لا يطيق «العوالم» الا في بيوتهن !

مكث كمال في الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة



انفها صغير كأنف نينة

ثم نزل باحثا عن ياسين في الدور الأول الذى هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى اقامه الطاهي فأقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التى عهد بها اليه وقال له :

ـ فعلت كما أمرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها ...

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :

ـ هه ؟.. كيف عودها ؟

ـ في عود أبلة خديجة ..

ضاحكا :

ـ في هذه الناحية لا بأس ؟.. اتعجبك كعائشة ؟

ـ كلا .. أبلة عائشة اجمل كثيرا ..!

ـ يخرب بيتك أتريد أن تقول انها كخديجة ؟

ـ كلا انها أجمل من أبلة خديجة ..

ـ كثيرا ؟!

فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

ـ حدثنى عما أعجبك فيها ؟..

ـ انفها صغير كأنف نينة .. وعيناها كعينى نينة ايضا ..

ـ ثم ؟..

ـ لونها ابيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا ..

ـ نحمده .. ربنا يبشرك بخير ..

وخيل اليه أن الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في شيء من القلق :

ـ هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يغض بصره :

ـ رأيتها تخرج منديلا ثم تتمخط !

والتوت شفتاه تقززا كأنما كبر عليــه أن تند الفعلة عن عروس في ريق فتنتها ، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :

ــ لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالى الا من الطاهى وصبيانه ، وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغى أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهذا ؟.. ابوه !.. الرجل الذى يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب .. أعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدرى الا وقد وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما راى ، تلك هى التشابه بين طبيعتى أبيه وأمه ! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها وراء اللذة في استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل امه لو كانت رجلا لما قصرت عن أبيه في اللهج بالشراب والطرب أيضا ! لذلك انقطع ما بينهما ــ أبيه وأمه ــ سريعا ، فما كان لمثله أن يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله ، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة ! . ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعة من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الآن من اكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لى أن أكون غير ما كنت ! » . في اللحظة التالية تساءل ترى ألم يخطئه الصواب عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟! تساءل رغم اصراره على الاعتقاد بأنه لم يتنكب عن الصواب ، لعل أباه رام اراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال «ارى أن تبلغ أمك ، ولك ان شئت أن تدعوها الى شهود زفافك » ذلك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور أن يرضى أبوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذى اتخذته امه زوجا لها من بعد ازواج كثيرين ، وأن يتودد اليها على مرأى منه بأن يدعوها الى شهود

زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت أى سعادة في هذه الدنيا ان
حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المراة .. تلك
الفضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب أباه
وقتذاك قائلا : « لو كان لى أم حقا لكانت أول من أدعو الى
زفافي ! » انتبه فجأة الى الأولاد والبنات وهم يرنون اليه
ويتهامسون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهورى ضاحك
« هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟ » واتجه نحو باب الحريم
وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك وأن تستسلم
غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقة المرة وهى أن أباك
الذى زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك
بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ،
اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك
حقا رجل الليلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفي نيته أن يمتثل
النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم في
اناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل
وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيد أن الحركة نفضت عن نفسه
طوارىء الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة . ولما خطرت العروس
على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاها
عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو
يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يابن الكلب !..
كتمت الخبر حتى نلت وطرك !.. (المركب اللى تودى أحسن من
اللى تجيب) .. مع الف شبشب يابن المركوب» ، لم يعد لزنوبة
من أثر في نفسه ، ولا لغيرها ، أسدل الستار على هذا الجانب من
حياته الى الأبد ، ربما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ،
أما النساء فلم يتصور أن تزيغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه
حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، رى للظمأ الوحشي الذى
طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى

الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع بهجة
ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة
وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى في أى مكان
فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه قائلا :

ــ الطاهى قال لى ان الحلوى تزيد على حاجة المدعوين
والمدعوات وانه سيتبقى منها مقدار وفير !

- ٤٥ -

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجها زكا
بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما غدا فرش
الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز
العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييرا يذكر في النظام العام
للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معانى
الكلمة لسلطان السيد وارادته أو من الناحية الادارية الداخلية
التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج .
التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرا على النفوس ودار مع الخواطر
فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسير أن تشغل زينب
مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعهما وبقية أفراد الأسرة بيت
واحد من دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن .
رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التى قضى
عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، أى
انسان تكون ؟. ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟. بالجملة
استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحاذره،
اما خديجة فعلى رغم المجاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسدد

نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبة
عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت
وفوزها بالزواج من اخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة في
حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة امها وهما في
حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها) ؟ »
ومع أن الأم وجدت في تهجمها ترويحا عن حيرة ظنونها الا انها
اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة واجابتها قائلة : «صبرك ، لم تزل
عروسا في بدء عهدها الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشي
بالاستنكار « ومن ذا الذى قضى بأن نكون خدما للعرائس ؟! »
فسألتها امها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هى « أتفضلين أن
تستقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المال مال
ابيها لا مال ابي الجاز هذا !. ولكنى أعنى أنها يجب أن تعمل معنا»
على انه لما قررت زينب ، بعد انقضاء أسبوع على الزواج ، أن
تحمل بعض الأعباء في حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه
الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية
وتقول لأمها : « لم تجىء لتعاونك ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه
لنفسها من حق . » أو تقول ساخرة « طالما سمعنا عن آل عفت
انهم من الصفوة وانهم يأكلون ما لا يأكل الناس .. فهل وجدت في
طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به ؟! » بيد ان زينب اقترحت يوما
أن تصنع « الشركسية » باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها
ـ وهى المرة الأولى لدخول الشركسية في بيت السيد ـ فحازت
لدى تناولها اعجابا شاملا بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم
نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة ، اما خديجة فجن جنونها وجعلت تهزأ
بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا
رأينا ؟. ارزا وصلصة في هيئة بوليتيكا ، طعمها لا هنا ولا هناك.
كالعروس تزف الى عريسها في حلة خلابة وحلى لألاء حتى اذا ما
نزعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة

من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج
اسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال ان العروس
وان كانت بيضاء البشرة وذات حظ «معتدل» من الجمال الا ان
دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء . قالت هذا في نفس
الوقت الذى اكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها
المعترف به ! على ان ثمة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية ـ
في الأقل لأن وقت سوء النية لم يئن بعد ـ فأثارت الخواطر وألقت
عليها ظلا من الشك اذ طاب لها كلما تهيأت مناسبة أن تنوه بأصلها
التركى وان التزمت الأدب واللطف كما لذ لها ان تروى لهم بعض
ما شاهدت من رحلات في حانطور والدها وبصحبته الى الملاهى
البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعا ادهشها
الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحياة التى تسمع عنها لأول مرة،
وانكرتها ، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغريبة
استنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المباهاة بالأصل التركى ـ وان
لطفت بالأدب والبراعة ـ ساءتها كثيرا لأنها كانت ـ على تخشعها
وانطوائها ـ شديد الاعتزاز بأبيها وبعلها فترى أنها بهما في مكانة
لا تدانى ، الا انها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها الا
اهتمام الاصغاء وابتسامة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشديد على
السلام لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة ، على انها نفست
عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام
كتعليقها على أنباء الرحلات مثلا ـ وهى التى لم يسعها ان تجهر
فيها برأيها ـ بالمبالغة في اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملق
في وجه محدثتها «يا خبر !» ، أو بأن تضرب براحتها على صدرها
وهى تقول : « ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة ! » ، أو
بقولها : « ما كنت أتصور امكان هذا يا ربى ! » وغير ذلك من
العبارات التى وان لم تفصح ألفاظها عن اساءة الا ان لهجتها المطوطة
التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التى يصطنعها الأب

وهو يتلو القرآن متسليا اذا ما آنس من ابنه غير البعيد عنه اخلالا بالنظام او الادب وعز عليه نزجره صراحه أن يخرج من الصلاة ، بدلك ثم لكن تحلو الى ياسين حتى تبادره مروحة عن عيشها الذى عز عليه المتبس « يا سلام يا سـلام على عروسك النزهية : » فيقول لها ضاحكا « هذه هى الموضة التركية التى تسمو على ادراك ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول « على فكرة ، ست الدار تباهى كثيرا باصلها التركى ، لماذا ؟ .. لأن جد جد جد جد جدها تركى !.. حذار يا أخى فان خاتمة التركيات الجنون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون أحب الى من وجه انفه يجنن ذا الذوق السليم ! » . تراءى لأعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجة وزينب في أفق الأسرة فنبهها فهمى الى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هذرها ، وأشار محذرا اشارة خفية الى كمال الذى دأب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة ـ حاملة اللقاح ـ بين الأزهار!. ولكن غاب عنه ـ كما غاب عن الأسرة جميعا ـ أن القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم احدمن قبل بأن تتوج بالنهاية التى توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :

ـ يا امينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى ابراهيم ..

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صوت المرأة في اذنى الأم سجعا جميلا حتى انها لم تذكر أن قولا قبله ـ بل صـدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بله فكاد يستخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج :

ـ ليس لى في خديجة اكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجدن في حماك اضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة ..

استرسل الحديث السعيد الا أن خديجة جعلت تغيب عنه

فيما يشبه الذهول ، خفضت عينيها في حياء وارتباك وقد زايلها روح السخرية التى طالما توهجت في حدقتيها ، فشملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها ، جاء الطلب مفاجاة ، وأى مفاجاة ، فكما بدا عسيرا في غيابه بدا غير مصدق في حدوثه حتى لقد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول .. «لأخطب خديجة لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟.. انه على خموله الذى اثار هزأها حسن المحيا وجيه في الرجال ، فماذا دهاه ؟!..

ـ ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد .

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوهها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فأى حظ ادخرته لها الأقدار . لشد ما أسفت على أن عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تكن تدرى أن زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها أبواب الحظ المغلقة ..

ـ ما أجمـل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سـبب جوهرى من اسباب وجع الدماغ في الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حماتها واظن امرها هينا ..!

ـ ان تكن سلفتها هى شقيقتها فحماتها هى أمها بلا نقصان.

لم تزل الأمان تتجاملان ، لقد احبت العجوز وهى تزف اليها البشرى بقدر ما ابغضتها يوم خطبت عائشة !. يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق أن تؤجله الى الغد ، لاتدرى ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ، لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة « ماذا كان عليهم لو أنهم انتظروا حتى تتم خطبتك انت ! » فأغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت اسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :

ـ الحق انى مذ رأيت ابراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذى لا يبدو انه يفرق بين الأبيض والأسود ان يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة :

ـ هل عرفت الأدب والحياء أخيرا !

بيد أن وجهه نطق هو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوهم الا حين تساءل كمال في قلق :

ـ أتتركنا خديجة أيضا ؟

فقالت الأم تعزيه وتعزي نفسها :

ـ ليست السكرية بعيدة ..

على ان كمال لم يستطع أن يدلي بما عنده في حرية كاملة الا حين انفرد بأمه ليلا فتربع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم :

ـ ماذا جرى لعقلك يانينة ؟.. أتفرطين في خديجة كما فرطت في عائشة ؟

فأفهمته أنها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما . فقال محذرا كأنما ينبهها الى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى :

ـ ستذهب هي الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة ، ولكنها لن تعود ، وستزورك اذا زارتك كالضيفة فما أن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، أني أقولها في صراحة انها لن تعود ..

ثم محذرا وواعظا في آن :

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟.. من يعينك في حجرة الفرن ؟ من يجالسنا في جلسة المساء ؟.. من يضحكنا ؟.. لن تجدي الا أم حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة أخرى أن السعادة لن تكون بلا ثمن فقال محتجا :

ـ ومن أدراك أن في الزواج سعادة ؟!.. أؤكد لك انه لا سعادة

مطلقا في الزواج ، كيف يحظى أحد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟

ومردفا بحماس :

ـ ثم انها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل .. لقد صارحتني بذلك ذات ليله في فراشها ..!

ولكنها قالت له انه لابد للفتاة من أن تتزوج ، فلم يتمالك من أن يقول :

ـ من قال بأنه لابد للفتاة من أن تذهب الى بيوت الغرباء !. ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هي الأخرى و ..

عند ذاك زجرته وأمرته بألا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :

ـ انت حرة .. وسترين !

في تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة أطارت عن رأسه الخمار بالرغم مما في هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات ، الا أنه تجهم بغتة متسائلا :

ـ هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!

ساءلت المرأة نفسها الا يمكن أن يدوم ابتهاجه ـ ونادرا ما يعلنه ـ أكثر من نصف دقيقة ؟.. وتمتمت في قلق :

ـ أمه ..

فقاطعها محتدا :

ـ هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!

فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة في تلك الليلة :

ـ دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره فردا من الأسرة فلم أر في ذلك من بأس .

فتساءل مزمجرا :

— ولكنى لم أعلم بذلك ..

كل شيء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة قاضيه ؟ ... على رغمها اغرورقت عيناها بالدمع وما تدرى الا وهى تقول مستهينة بغضبته المكفهرة .

— سيدى ، حياة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين ..

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدما مهينما مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها أسلافه الأولون ، ولكنه لم يزد على ذلك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم خصمه — وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها — ذودا عن مبادئه ..

- ٤٦ -

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا ، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن انه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه ادرك في الثلث الأخير من الشهر أن تفاؤله لا بد أن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لايدرى كنهه قد طرأ على حياته ، كان يعانى في حيرة

بالغة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الانسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لانه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته ، فاى فتور يتبخر من هذه «الملكية» الآمنة المطمئنة .. الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاتة المزيفة التى تهدى في أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وأى مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى !.. وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع وأين جاء ، عن تلك الفتنة أين ذهبت ، اين ياسين وأين زينب ، اين الأحلام ، أهذا شأن الزواج أم شأنه هو ، وكيف اذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهور !.. ليس انه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المأكل ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته انه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى انها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن ان النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدرى الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجبا .. أحلامى عن الزواج تحققت عندها هى ! » . الى هذا كله وجد في عناقها نوعا من الاحتشام وان طاب له أول الأمر انه جعله يهيم آخرا في وديان الذكريات التى ظن انه ودعها الى الأبد ، طفت على رأسه من الأعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق أنه مرق الى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة ، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل ، وليقتنع أخيرا بأن «العروس» ليست المفتاح السحرى لدنيا المرأة ، ليس يدرى كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التى

فرش بها طريق الزواج ، يبدو جانب ـ على الأقل ـ من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغنى بأحضـــان زوجه عن العالم الخارجي ، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها ، وسيجد من الآن فصاعدا ان الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وأنه ينبغى أن يتلمس وسيلة أو أخرى ـ الوقت بعد الوقت ـ ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المغنى المجيد اذا أطال في تقاسيم الليالى انبعث في نفس السامع الشوق الى الدخول في الدور ، ثم انه في الانطلاق من محبسه فرصـة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء .. وكيف يؤمن بعـد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء ؟!.. يحسن به من الآن الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخييل . ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى اين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هي ـ زوجه ـ عليه بأن يخرجا معا .

ما تدرى الأسرة ذات مساء الا وياســين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدا على مقصدهما بالرغم من انهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شـتى الظنون فما عتمت خـديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية :

ـ ذهبا يا ستى الى كشكش بك ..

فهتفت خديجة وأمها في نفس واحد :

ـ كشكش بك !

ليس الأسم غريبا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه

كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليس السماء . ان يذهب ياســين بزوجه اليه أمر مختلف جدا ليس دونه أن يقال ذهبا الى محكمة الجنايات . رددت الأم عينيها بين خديجة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف :

ـ متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه :

ـ بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ..

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع اقدامها ثم قالت في لهوجة وانفعال :

ـ ماذا دهى ياسين ؟!. كان جالسا بيننا في كامل عقله .. الم يعد يعمل حسابا لأبيه؟

فقالت خديجة في حنق :

ـ ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه ولـكن به خنوع لا يليق بالرجال ، اقطع ذراعى ان لم تكن هى التى حرضته ..

فقال فهمى مدفوعا برغبة في تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه الموروث من جراة اخيه :

ـ ياسين ذو ميل قديم الى الملاهى ..

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاهى كما يحلو له ، أو أن يواصل السهر في الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن ايحاء عجز عن مقاومته خصوصا وانه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة ، ثم انها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه . ألم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدتها بصحبة والداها ؟!. لولا ايحاؤها ما أخذها معه الى كشكش بك ـ يا للفضيحة ! ـ في هذه الأيام السود التى

ينجحر فيها الرجال في البيوت كالفيران رعبا من الاستراليين ..

لم يقف التعليق على الحادث عنـد حد لما أثاره في النفوس — سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة — من امتعاض ، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون أن يفطن الى السر الذى جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذاك النقاش كله وذاك الكرب كله ، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع في الأسواق بجسم متوثب في دعابة ووجه ضاحك ذى لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوظة ؟. أليس هو من تنسب اليه الأغانى المرحة التى استظهر بعضا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوى وكيل أبيه ؟. فبأى شر يتهمون هـذه الشخصية اللطيفة التى ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح ؟.. لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهـم في الانزعاج من جراءة ياسين خصـوصا وان زيارة أمه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح مخيلته ، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو ان يأخذه « هو » ان كان يريد رفيقا لا سيما وانه في عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق في المدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

— ألم يكن الأفضل أن يأخذنى أنا .. ؟!

اندس تساؤله في الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة في لحن شرقي صميم ، فقالت خديجة :

— من الآن فصاعدا يحق علينا أن نعذرك في قلة عقلك ..!

فندت عن فهمى ضحكة قائلا :

— ابن الوز عوام ..

بيد أن المثـل رن في أذنيه رنينا جافيا وكد أثره السيىء تحديق أمه وخديجة في عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

— أخو الوز عوام !.. هذا ما قصدت أقوله ..

دل الحديث في جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية ، وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى ، بيد أن أمينة لم تعلن ما في نفسها كله . في تلك الليلة عرفت في نفسها أمورا لم تكن تعرفها من قبل . أجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا أو كراهية فعزته الى خيلاء الفتـاة بداع وبغير داع ، ولكن هالهـا اليوم أن تخرق الآداب والتقاليد ، وأن تحل لنفسها ما لا يحل — في نظرها هى — الا للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا للكشكش بك ؛ فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء » . هكذا تلوث بالحنق والموجـدة — في الشهر الأول من معاشرته لامرأة جديدة — القلب الطاهر الورع الذى لم يعرف طوال حيـاته المحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء . ولما آوت الى حجرتها لم تدر ان كانت تود — كما دعت بلسانها أمام ابنائها — أن يستر الله على «جناية» ياسين أم أنها ترجو أن ينال أو بالأخرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب؟! بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا ان تصان تقاليد الأسرة من كل عبث وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان ، بدت غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة في الأعماق باسم الاخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادىء السامية . جاء السيد وهى على تلك الحال من التصميم الا أن منظره بث الخوف في جناياها فانعقد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجيب على أسئلته

بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ؛ وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصبية في الكلام ، كم ودت لو تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاد أبيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه في سلوكها بغير تدخل منها هى - الأم - لا شك أنه يحزنها بقدر ما يريحها .. انتظرت طويلا في لهفة وقلق أن يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تثاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :

- اطفئى المصباح ..

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجى نفسها :

- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد في وجهها وتساءل في عجب :

- وزوجه ؟ .. اين ذهبا ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من ان تقول :

- سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !

- كشكش !

عزف الصوت عاليا في شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين الهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر وهو يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما لو كانت هى المذنبة ، ثم غصت بالندم على مابدر منها ، ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح الا كى تندم ، فلم تكن لتبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن تصلح خطأها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، ألم يكن الأجدر بها أن تتستر عليهما على

أن تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الاصلاح حقا لا الانتقام؟ .. ولكنها أذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله - خجلى من ذكره - أن يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :

- جاء سى كشكش ..

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها الى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعانى الى حجرتى » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة .. عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

- اصغ الى يابنية جيدا ، ابوك اخى او أوثق صلة ومودة ، فأنت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت ابدا ان أكدر صفوك ولكن ثمة أمور اعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن في وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فان الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقيل من العثرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنه لاذنب لك الا أنك جاريته على هواه فرجائى اليك أن تعاونينى على اصلاح امره بالا تستسلمى الى غواياته مرة أخرى ..

وجمت الفتاة واستحوذت عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تحظى في كنف ابيها بقسط من الحرية الا انها لم تجد من نفسها شجاعة

على مناقشة الرجل بله معارضته ، كأن اقامتها في بيئته شهرا
أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التى يفرق حيالها كل
حى في البيت ، احتج باطنها بأن أباها نفسه استساغ أكثر من
مرة أن يصطحبها الى السينما ، وأنه لا يحق له منعها من شيء
سمح به زوجها ، الى اقتناعها بأنها لم تخرق أدبا أو تهتك حرمة،
قال باطنها هذا وأكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة
حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذى بدا
ــ وهو يرفع رأسه ــ كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم
حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج
الصوتية في جهاز الاستقبال بالمذياع باغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى
الا وهو يسألها وكأنه يتمادى في تحديه لها :

ــ ألك اعتراض على قولى ؟

فهزت رأسها بالنفي ورسمت شفتاها حرف « لا » دون أن
تنطق به فقال لها :

ــ اتفقنا ، تفضلى الى حجرتك بسلام ..

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين
الذى أخفى عينيه في الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه في أسف
شديد :

ــ الأمر جد خطير ولكن ما حيلتى ؟!.. لم تعد طفلا والا
لكسرت رأسك ، ولكنك وا أسفاه رجل وموظف وزوج أيضا وان
كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن أصنع بك ؟
أهذه نهاية تربيتى لك ؟.. (ثم بصوت أذهب فى التأسف) ..
ماذا دهاك ؟.. أين الرجولة ؟.. أين الكرامة ؟.. يعز على والله
أن أصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا
بالخطأ ــ اذ لم يتصور أن يكون ما به سكر ــ ولكنه لم يجد في
ذلك عزاء ، بدا الخطأ أفظع من أن يترك بلا علاج حاسم ، فاذا

لم يكن من سبيل الى العلاج القديم ــ العصا ــ فلا أقل من الحزم
والا انتثر سلك الأسرة جميعا ، قال :

ــ ألم تعلم بأنى أحرم على زوجى الخروج ولو لزيارة الحسين؟
كيف اذن سولت لك نفسك أن تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر
فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟.. يا أحمق أنت تدفع بنفسك
وبزوجك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن
يسترسل في الحديث بطلاقة مريبة تنم في النهاية على سكره ،
لا سيما وان خياله أصر على التسلل ــ هازئا بالموقف الخطير ــ
من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة
تارة ومترنحة أخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث في
نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التى غناها المهرجون في المسرح
فكانت تثب الى ذهنه ــ على رغمه .. بين لحظة وأخرى كالأشباح
في ليل المرعوب هامسة :

ابيع هدومى عشان بوسة — من خدك القشدة يا ملبن
يا حلوة زى البسبوسة — يا مهلبية كمان وأحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثم تطفر راجعة ، ولكن أباه ضاق
بالصمت فصاح به غاضبا :

ــ انطق حدثنى عن رأيك فانى مصمم على الا يمر الحادث
بسلام !..

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو
يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه :

ــ كان والدها يعاملها بشيء من التسامح .. (ثم متعجلا)
ولكنى أقر بأنى أخطأت ..

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الأخيرة :

ــ لم تعد في بيت أبيها ، عليها أن تحترم آداب الأسرة التى
صارت عضوا فيها ، أنت زوجها وسيدها وبيدك وحدك أن تصورها

في اى صورة تشاء ، خبرنى عن المسئول عن ذهابها معك انت أم هى ؟ ..

شعر على سكره بالفخ المنصوب له ولكن الخوف دفعه الى التوارى فغمغم :

ـ لما علمت بنيتى في الخروج توسلت الى أن أصطحبها ..

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

ـ اى رجـل في الرجال انت ؟ .. كان الجواب الخليــق بها لطمة ! ... انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء ...

ثم محتدا :

ـ وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا ..؟

تخايلت لعينيه الصور التى أفسدها تعرض أبيه له على رأس السلم وعلادت الأنغام تتجاوب في راسه « أبيع هدومى .. » ولكن ما يدرى الا والرجل يقول متوعدا :

ـ لهذا البيت قانون انت تعرفه فوطن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه ...

- ٤٧ -

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها في الحياة على اكمل الوجوه ، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس وان ادعت ـ جريا على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التى يؤديها لها الغير ـ ان اكبر الفضل في أظهارها بالمظهر اللائق انما يعود الى سماتها هى قبل كل شيء ! على أن « جمالها » لم يعد

مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه ، بيد أن جميع مظاهر السعادة التى أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذى دب في أعماقها لوشك البين ، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء في الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج واللبلاب والياسمين، حتى الزواج نفسه طالما تحرقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة، يهون في الوصال ويعز عند الفراق ، فلما أن اطمأنت على مستقبلها ابى قلبها أن ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ، لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد ان عرف أن التى تتزوج لا تعود الا أنه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة) فرحبتا به معا بيد أنه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة . يجد مكانها اخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها الذى لا يغادر البيت قانعا من الوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس من رفيق في البيت الا زينب ، وهى لا تتودد اليه كما يجب الا بمشهد من امه كأنما تتودد اليها هى فاذا غابت الأم تجاهلته كأنه لا يكون ، ومع أن زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا أنها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد المسيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة « ما رأيت بيتا يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا .. حكم !» غير أنها لم تشأ أن تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وأنها « ست

بيت » خليقة بأن يهنــأ عليها بعلها ، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة :

ـ لا عيب فيها الا لسانها !.. ألم تجربيه يا زينب ؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة :

ـ لم أجربه والحمد لله ولكني سمعته وغيري يجربه .

وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة « هس » فأمسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة :

ـ مات السيد رضوان !

كانت مريم وأمها قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا ان تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهي تقول بأسف شديد :

ـ مات الشيخ محمد رضوان حقا .. يا له من موقف حرج !

فقالت زينب :

ـ عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد في وسعنا تأجيل الزفاف او منع العريس من الاحتفال بليلته في بيته وهو بحمد الله بعيد ، اما انتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!

لكن خديجة شردت في خواطر اخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ يا لطيف يا رب ..

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارىء او ان تترك ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة :

ـ لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده ، والتشــاؤم من عند الشيطان ...

انضم ياسين وفهمي الى المجتمعات بحجرة العروس بعد ان

فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبر الأم بأن السيد ناب عن الأسرة ـ بالنظر الى ضيق الوقت ـ في تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حدج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

ـ أبى السيد رضوان أن يبقى في الدنيا بعــد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنــه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ـ صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ..

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ـ اسكت ، اني متطيرة من موت السيد رضوان في يوم زفافي .

فقال ضاحكا :

ـ لا ادرى ايكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ـ لاخوف عليك من موت الرجــل ، لا تشغلي فكرك به ، ولكني أخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيري منــه ، ونصــيحتي التي لا أمل ترديدها أن تنقعيه في شراب مشــبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ..

عند ذلك قال فهمي متلطفا :

ـ مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها : ألم تعلمي بأن الهدنة قد اعلنت ؟.

فهتف ياسين :

ـ كدت أنسى هذا !.. ليس زفافك المعجزة الوحيدة في يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت الحرب وسلم غليوم .

فتساءلت الأم :

ـ هل يذهب الغلاء والأستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـ طبعا .. طبعا .. الغلاء والأستراليون ولسان خديجة هانم .

لاح التفكير في عيني فهمي ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
ـ غلب الألمان !.. من كان يتصور هذا ؟!.. لا أمل بعد اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز في صعود ونجمنا في أفول فله الأمر .
فقال ياسين :
ـ اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ..
وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :
ـ وثالث لايقل حظه عن السابقتين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعريس ..
فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :
ـ تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك ..
فتراجع وهو يقول :
ـ من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنا من غليوم أو هندنبرج ..
ثم نظر الى فهمي الذى لاح في وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :
ـ اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب ..
ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام وأحلام الا أن ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ ألحت عليها من شدة تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدأ حياة جديدة في حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التى اعترتها حتى تعثرت في مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لا عهد

لها به ـ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :
ـ اقتدى بأمك في كل كبيرة وصغيرة ..

وأعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدى بأمك في كل كبيرة وصغيرة » وتقول لأمها التى أصغت اليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « ألا يعنى هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟.. (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله ؟ كأنى كنت في حلم سعيد ! أين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟! » ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عيناها بالدموع ..

وجاءت أم حنفى تعلنهم بوصول السيارات ..

— ٤٨ —

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلت روحه وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالملح في الطعام ، ليس الملح في ذاته لذيذا ولكن ما لذة الطعام من دونه؟» . بيد انه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجه اذ انه لم يزل ـ على خيبة أمله في الزواج التى لم يعد لها من دواء في البيت ـ يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في « القهوة » كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق

جده ، ان كان ثمة جد ، الا انه فقد النديم الذى طالما طارحه
الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له الا أن يقنع بالقليل في هذه
الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبة ، يحسو القهوة ،
ويمد بصره الى الكنبة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال
مستغرقين في أحاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة
من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من « ثقل
الدم » ويسلم بوجهة نظرها !.. ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة
كربلاء ويقرأ ، أو يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى
يمينه فيرى فهمى متوثبا للحديث ، عن أى شيء يا ترى ، محمد
فريد ، مصطفى كامل ؟.. لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل
يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر . هل
ينكشه ..؟ كلا ، لا حاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام
شديد ، ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

ـ الم تبلغك انباء جديدة ..؟

يسأله هو عن أنباء جديدة ! عندى أنباء لا عد لها .. الزواج
اكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد اشهر شربة زيت خروع ،
لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسى الغر ، أتريد أنباء
أخرى ؟!. لدى منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك البتة ،
ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سولت لى نفسى اذاعتها على مسمع
من زوجى ، وما يدرى الا وهو يستشهد ـ في سره طبعا ـ
بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست اذكرها   لولا «الرقيب» لقد بلغتها فاك

ثم تساءل بدوره :

ـ اى أنباء جديدة تعنى ؟..

فقال فهمى باهتمام شديد :

ـ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو أن
وفدا مصريا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك

وعلى شعرواى باشا توجه امس الى دار الحماية وقابل نائب
الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال ..

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شك
مقرونة بالدهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وان
لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات
غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك
في قلبه ـ الذى لا يكاد يعبأ بالأمور العامة ـ أثرا عاطفيا يدل
عليها ولو من بعيد ، الا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه
لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر الى جانب
الحركة التى قام بها أصحابها ان صح ما يقول فهمى ، اذ كيف
يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة
باستقلال مصر ؟!.. وسأله :

ـ ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان
هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

ـ سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى
وعلى شعراوى عضوان بها ، الحق انى لا أعرف شيئا عن الآخرين ،
أما سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترامى الى عن
كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيرا ،
منهم من يعده ذنبا من أذناب الانجليز ولا شيء أكثر من هذا ومنهم
من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال
الحزب الوطنى انفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم
عليها مع زميليه ـ ويقال انه كان الداعى اليها كذلك ـ عمل
مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفى المبرزين من
الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد ..

بدا ياسين جادا أن يظن به الآخر استهانة بحماسه وردد
قائلا وكأنه يسائل نفسه :

— المطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال !..

— وسمعنا أيضا أنهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعى الى الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت نائب الملك !..

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

— الاستقلال !.. أتعنى هذا حقا ؟.. ماذا تعنى ؟

فقال فهمى بلهجة عصبية :

— أعنى اخراج الانجليز من مصر ، أو الجلاء كما عبر عنه مصطفى كامل ودعا اليه ..

ياله من أمل !.. لم يكن السعى الى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ درجة الحماس ، بل ربما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه أثبت طوال حياته أنه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التنعيم بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد في نفسه استعدادا للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

— هل يقع هذا في حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمى بحماس لايخلو من لوم :

— لا يأس مع الحياة يا أخى !..

فأثارت هذه الجملة ، في نفسه ما تثيره لمثالها من ميل الى السخرية بيد أنه تساءل متظاهرا بالجد :

— وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمى قليلا ثم قال عابسا :

— لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كى تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث في الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلى ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعى القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف ، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون « الكبيرة » التى يبدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التى تدفعها الى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة ما يلقى عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد اكسبها هذا الجد شيئا من الالمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد ، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم اخلاصهم للخلافة الأمر الذى قربهم في نظرها — كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية — من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم ، ولما ان ذكر فهمى أن سعدا وزميليه يطلبان السفر الى « لندن » خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

— أى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التلاميذ دروسهم :

— لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب ..

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

— يذهبون الى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟!.. ليس هذا من الذوق في شيء .. كيف تزورنى في بيتى وأنت تضمر طردى من بيتك ؟!

اضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسما معاتبا في آن ولكنها ظنت أنها بسبيل اقناعه فأردفت قائلة :

— وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله ؟! لقد ولدنا وولدتم وهم في بلادنا فهل من «الانسانية» أن نتصدى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة — وفي بلادهم ايضا — اخرجوا ؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين اما زينب فقالت جادة :

— كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا في بلادهم !.. هب الانجليز قتلوهم هناك فمن ذا يدرى بهم ؟.. الم يجعل جنودهم المشى في الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟. فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم ؟!

ود ياسين لو يسترسل مع المراتين في حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظامئة الى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمى فأشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

— في كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرنى يا أخى ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

— كان عرابى باشا أعظم الرجال واشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره ، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز يا ولداه ؟.. أسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس ..

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق :

— نينة !.. هلا تركتنا نتحدث ؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه

فغيرت لهجتها الحماسية كأنما هى بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قالت برقة واعتذار :

— يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا في رعاية الله ، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة ..

فما يدرى الشاب الا وهو يسألها في غرابة :

— أى ملكة تقصدين ؟

— الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟.. طالما سمعت ابى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها اعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..

فقال ياسين ساخرا :

— اذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى أجدر أن تنفى سعدا العجوز !..

فقالت الأم :

— مهما يكن من أمرها فهى لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شك قلبا رقيقا فاذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم ..

وجد ياسين سرورا كبيرا في منطق الام التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن أم مريم أو غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب في مجاراة فهمى ، فسألها باغراء :

— خبرينا عما يحسن أن يقولوه لها ؟

فاعتدلت المراة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى اقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لأول « مفاوضة » بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

— الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل !..

انتبه ياسين عند ذاك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال

خصاص النوافذ فأدرك انه آن له أن يودع المجلس ليمضى الى سهرته . ولما كان يعلم حق العلم بأن ظمأ فهمى الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب في ان يقدم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذى أخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

ـ انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلعلهم أعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فتجهز له ملابسه ، فشيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ماتثير أحاديث الوطنية أكبر الأحلام في نفسه ، في دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسة ولكن ما أن يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين اضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنفسا ـ أيا ما كان ـ تنطلق منه الى السماء ، ود في تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوى الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى في مجمع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الاحلام والمجد ، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لا يدرى على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولايدرى ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر بكل مافي قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا في عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا في قلبه ودمه ، فما أجدره أن يبرز الى ضوء الحياة والواقع أو فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل ..

ـ ٤٩ ـ

بدأ الطريق أمام دكان السيد احمد ـ كعادته ـ مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين الا أن هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذى حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد آن يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والأنفس الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم تمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث نقل اليه في اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك ، وفي مساء اليوم نفسه ، وفي مجلس الطرب ، أكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى اليها الشك ، وفي دكانه حدث أكثر من مرة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة ، بل ما يدرى هذا الصباح الا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى الا أن يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد ـ مداعبا ـ عما يظن أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ « محال !.. محال أن يخرج الانجليز من مصر ، أتحسبهم مجانين كى يجلوا عن البلد بلا قتال !.. لا بد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، فلعل رجالنا

يوفقون ولو الى ابعاد الاستراليين حتى يعود الأمن الى سابق عهده ، والسلام ! » ، أيام أنباء ومشاعر فياضة صادفت في السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جملته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التى بدت في الأغلب وكأنها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثب ، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشيطة مما يوحى بأنه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة ، فوجد السيد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

— صباحنا ناد ، ماذا وراءك يا سبع ؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأن قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى أحدا من صحبه — اقرار بأهميته في هذه الأيام البالغة في أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضى الزمن من موظفين ممتازين ومحامين وان تفرد السيد أحمد بمنزلة الاعزاز الأولى بفضل شخصيته وسجاياه ، غير أن صلة القربى هذه التى لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة في هذه الأيام التى بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال — خطوة جديدة — لم

اعد ناقل أنباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل اليك والى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد ..

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرأ » فتناولها السيد وقرأ :

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما » .

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصرى الذين سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن ، وتساءل :

— ماذا تعنى هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

— ألا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه أيضا ، هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه في سرور تجلى في تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعد وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة ، ودعا الحمزاوى فوقع بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

— المسألة جد فيما يبدو ..!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

— غاية الجد ، كل شيء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟. قيل أن «الرجل» الانجليزى تساءل عن الصفة التى كلمه بها سعد وزميلاه في صباح ١٣ نوفبمر الماضى فما كان من الوفد الا أن عمد الى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة ..

فقال السيد بتأثر :

— لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا .

— لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ..

ثم هز منكبيه لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :

— كلنا نذكر سعدا بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وان لم أنس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لاأنكر اننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد أثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين . أما حركته الأخيرة فهى خليقة بأن تحله من القلوب في أعز مكان ...

— صدقت ، حركة مباركة ، لندع الله أن يتولاها بتوفيقه .

ثم باهتمام :

— ترى أيؤذن لهم في السفر ؟.. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ..؟

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

— ما الغد ببعيد ..

في طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس في أذن صاحبه :

— كأنى لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعل الكأس الثامنة بين فخذى زبيدة ..!

فحرك محمد عفت رأسه في تأثر كأن الصورة التى جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد اسكرته ، وغمغم :

— ياما بكره نسمع ..

ثم غادر الدكان والسيد في اعقابه مبتسما :

— وبعده نشوف ..!

ثم عاد الى مكتبه وأثر المزاح منبسط في أساريره وانفعال الحماس في قلبه لا يخمد ، شأنه في كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى الى الجدولكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاح والدعابة كلما لاحت له صادرا في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بقاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش الحياة ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء ، فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه ، وبالتالى قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الواجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة التىآنس اليه فلا يرضىعنه بديلا ، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته ، أليس في ذلك اهدار لوقته « الثمين » ؟ أليس الوطن في حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها في أسرته أو تجارته أو على الخصوص في لهوه بين الأحباب والخلان؟!. ليكن اذن وقته خالصا لحياته ، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلما تيسر ، اذ لم يكن يضن به اذا وجب التبرع لغرض من الأغراض ، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر في واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، اما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه ، واما لأن الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ،

وعرف هو ذلك فأضافه الى بقية مزاياه التى يباهى بها سرا في اعماق قلبه . ولم يتصور ان الوطنية يمكن ان تطالبه بأكثر مما يجود به ، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق – على ازدحامه – بالعاطفة القومية ، وهى وان قنعت بالقلب مجالا لحيويتها الا أنها كانت قوية عميقة تشمل النفس وتهمها ، لم تحتله عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه ، وكم كان منظرا فريدا – اهاج التأثر والضحك معا – يوم رئى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن احدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم اغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليلى حين تذاكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يُرى « رب الضحك » وهو يجهش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنى الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ، بعد هذا كله ، أوبالرغم من هذا كله ، تسرى انباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير .. مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب تنغض عن جوهرها الغبار ، انفس تشرق بالآمال ، ماذا وراء هذا كله ؟ !.. أن خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى . وانه ليعجل الليل ليهرع الى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية « مزة » الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التى تجذب حنانه الى سهرته كزبيدة وحب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو في ذلك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون ان تستأديه ما لا طاقة له به !.. وانه ليفكر في هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

– أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا ..؟ انهم يدعونه « بيت الأمة » ..

ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نمى اليه الخبر ..

في نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية – بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع – لم يفز به بلا نضال . ثمة حقيقة كثيرا ما رددها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد ، هى انه لم يكن يتصور – وهو في سكرة حلم الزواج – انه سيرتد الى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى ، اعتقد مخلصا انه ودع ذلك الى الأبد مضمرا لحياته الزوجية أحسن النيات ، حتى دهمته الخيبة المستعصية في الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمل الملل او الحياة الفارغة كما دعاها ، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها في الماضى والزواج امل مدخر ، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد ان غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائبا ، بيد ان زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز الذى بلغ به يوما أن ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهينا بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذى يضربه أبوه حول الأسرة .. زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملا يترنح ، صدمة عز عليها احتمالها فما

تمالكت أن كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من باديء الأمر المعارضة على أى لون جاءت ، عتابا أو خصاما وأعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لا يفسد النساء الا الرجال ، وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعى للحزن يا عزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال ، هكذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى أتزود من السهرة ترويحا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم «كل الرجال يسكرون ، ان صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى أو أباك ! » الا أنها همت بالاسترسال في مناقشته جريا وراء أمل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بملله الذى هون عليه ما لم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بما للرجال من حق مطلق في ان يفعلوا ما يشاءون ، وما على النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود « انظرى الى امرأة أبى هل رأيتها اعترضت يوما على تصرف لأبى ؟ .. على ذلك فهما زوجان سعيدان وأسرة مطمئنة ، ينبغى الا نعود الى هذا الموضوع » .. لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فان خيبته في الزواج جعلته يجد نحوها احيانا ما يشبه الرغبة في الانتقام ، وأحيانا أخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك ، ولكنه راعى عواطفها اكراما — أو خوفا — من أبيه الذى علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت .
والحق لم يكن يكربه شيء كاشفاقه من أن تشكوه الى ابيها فيشكوه هذا بدوره الى أبيه ، حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شيء مما

يحاذر ، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنها إمرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة — لبعلها — بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن ببثها في دائرة الأسرة الضيقة — مجلس القهوة — من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذاك في بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعلها ، لأنها لم يكن يسعها أن تتصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر في استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهمى وحده قدر أحزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنه أيقن من باديء الأمر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة احمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت في جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار ، وجوها الهاديء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطراره الى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية أخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع أثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الأيام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده — لنفس ميزاتها الأثرية التى جعلتها بمأمن من العيون — للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ

وانتظار الحوادث ، كثيرا ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل أى حتى يصل زملاء فهمى أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانة كوستاكى ، وفي مرة من هـذه المرات أشار فهمى الى كدر زينب مبديا دهشـته لسلوك أخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحق كل الحق في أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد انه لم يشأ أن يبرر سلوكه مباشرة مؤثرا أن ينفس عن صدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبا الشاب :

— رغبت يوما في الزواج من مريم ، ولست اشـك في أنك حزنت جـد الحزن لموقف ابيك الذى منع تلك الرغبـة من أن تتحقق .. أقول لك ، وأنا أدرى بما أقول ، انك لو علمت وقتذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل ..

دهش فهمى لحد الانزعاج لأنه لم يتوقع أن يباغت في أول جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج » و « الرغبة » ، أفكار لعبت على مسرح صـدره أدوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ في اظهار دهشته ليخفى ما أثارت الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة ، فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده سأما ومللا قائلا :

— ما كنت أتصور أن ينجلى الزواج عن هذا الخواء ، انه في الحق لا يعدو أن يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا في صورة « زوجة » وتحت مقولة « الزواج » نعز عليه أن يتناول أخوه

المستهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم في دهشة بالغة :

— ولكن زوجك سيدة .. كاملة .. !

فهتف ياسين ساخرا :

— سيدة كاملة ! هو ذاك ، أليست كريمة رجل فاضل ؟ .. وربيبة أسرة كريمة ؟.. جميلة ؟ .. مهذبة ؟ .. ولكن لا أدرى أى شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة أعراضها تافهة لا يلقى اليها ببال تحت ضغط الملل المسقم ، كأنها بعض ما نغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقره . !

فقال فهمى ببساطة وصدق :

— لا أفهم حرفا مما تقول ..

— انتظر حتى تعرف بنفسك ..

— لماذا اذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة ..؟

— لأن الزواج — كالموت — لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

— لشد ما عبث بى الخيال فسما بى الى عوالم تفوق مباهجها الأحلام ، وطالما ساءلت نفسى : هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الأبد ؟! يا له من حلم !.. ولكنى أؤكد لك بأنه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء الى الأبد ..

غمغم فهمى في حيرة رجل يعز عليه — فيما يكابد من أشواق الشباب — تصور الملل :

— لعله بدت لعينيك أشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

— لا أشـكو الا الظاهر الذى لا يعاب !.. شـكواى في الحق منصبة على الجمال نفسـه !.. هو .. هو الذى مللت لحد السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده وتستعمله

حتى يستوى عنـدك والفاظ مثل « الـكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الأشياء المبتذلة ، يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجـه لاستعماله ؛ ولعله لو عثر عليـه الغير في انشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم ، ولا تسل عما في ملل « الجمال » من فجيعة » اذ انه يبدو مللا بلا عذر مقبول ، وبالتالى قضاء محتوما .. فيتعذر التفادى من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولى ، انى عاذرك لأنك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد ..

على مرارة اللهجة شك فهمى في حقيقة بواعثها اذ انه مال من بادىء الأمر الى اتهام أخيه — لا الطبيعة البشرية — لما عرفه عنه من انحراف السلوك ، الا يجوز أن ترد شكواه في الحق الى ما لهج به من مجون في حياته السابقة على الزواج ؟!.. اصر على هـذا الظن اصرار رجل يأبى أن يفجع في أعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء اخيه بقدر ما يهتم بالافصاح عما في صـدره هو ، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأول مرة ابتسامة وضيئة :

— أصبحت أدرك موقف أبى حق الادراك !.. وافهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق أبدا !.. كيف كان يتأتى له أن يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى الملل بعد خمسة اشهر ؟ !

فقال فهمى وقد قلق لاقحام ابيه في الحديث :

— حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في الطبيعة البشرية ، فالحل الذى تبشر به .. (هم بأن يقول : بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون اكثر منطقية فقال) .. بعيد عن الدين ..

فقال ياسين الذى كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جدى لأوامره ونواهيه :

— الدين يؤيد رايى ، وآى ذلك انه سمح بالزواج من اربع غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصـور الخلفاء والأغنياء ، فقد فطن اذن الى أن الجمال نفسـه — اذا ابتذلته العادة والألفة — مل واسقم وقتل ..

فقال فهمى باسما :

— كان لنا جد يمسى مع زوجة ويصبح مع اخرى فلعلك أن تكون وريثه ..

فتمتم ياسين متنهدا :

— لعلى .

على أن ياسين — حتى ذاك الوقت — لم يكن اقدم على تحقيق حلم من احلامه المتمردة ، حق انه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة ، قبل أن ينزلق الى زنوبة أو الى غيرها . وما الذى جعله يفكر ويتردد ؟.. ربما لم يخل من احساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لرأى الدين في « الزوج الفاسق » الذى توكد لديه انه غير رأيه في « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا أن خيبة أقوى أمل تردد في جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق ، على أن واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا أنه وجد اغراء لا يصمت في سيرة أبيه التى استحوذت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها في ذهنـه بامرأة أبيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه ، أجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امرأة أبيـه الى حياتها ، فيثب هو مثل وثبات أبيه الموفقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة ، بذاك — وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمع اية امرأة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنسى ؟!.. لا شىء ! ..

انهن حيوانات اليفة كالحيوانات الأليفة ينبغى أن يعاملن ،أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة ان تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها أن تنتظر في البيت حتى نفرغ لمداعبتهـا ، ان اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحـد وطعم واحـد ، خلاصتها في النهاية عـدد محدود من الحركات والأصوات لاتزال تتكرر وتتكرر.. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلاكلا ، ما لهذا تزوجت.. أن قيل انها بيضاء، ألست ذا مآرب في السمراء ، بل والسوداء.. وان قيل انها مدملجة فما عزائى عن النحيلة والجسيمة ، أو انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهـل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟!.. الى الأمام .. الى الأمام .. »

- ٥١ -

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزى ، فراى امراة تشتغل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره في ترحاب طال تشوقه اليه، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ،فأقبلت المراة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذى فاضت عنه أعطافها وهى تلقى اليـه بتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلما جاءته « « زبونة » تستحق التكريم ، فان الجو الذى غشى ركن

الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لهـا في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفحى الأنف العظيم من ناحية اخرى ، كهرباء خفية صامتة الا أن نورها الكامن كان متحفزا في انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا ..كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض احساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جارا ــ لا صديقا ــ ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المراة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الا أن عاطفته نحو زبيـدة ، كان أدركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها ، فلاقت المراة منه ــ على خلاف الزيارة السابقة ــ ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا .. على أن خاطرة ثقيلة ــ أن تكون الزيارة بريئة ــ مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند منها في الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على أن يتلمس سبيله كخبير قديم .. فقال لها برقة باسما :

ــ خطوة عزيزة ..!

فقالت في شىء من الارتباك :

ــ الله يكرمك ، كنت راجعـة الى البيت فمررت بالدكان فتراءى لى أن آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجىء ولكنه أبى أن يصدقه فأن يتراءى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا ان لم يكن وراءه دافع ، لا سيما وانهـا تدرى بالبداهة والفريزة أن

مجيئها بعد « مقـدمات » الزيارة القديمة خليق بأن يثير في نفسه الريب ، وأن يبـدو لعينيه « تمحكا » غير خافي الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

ـ فرصة طيبة لأحييك ولأكون في خدمتك ..

فشكرته في اقتضاب أصـغى اليه بنصف انتباه اذ شـغل بالتفكير في الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل : هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟.. لكل طريقة لذتها .. بيد انه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الأول :

ـ بل فرصة طيبة كي أراك ..!

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحيـاء أو الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها الى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على انه رأى في حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعهـا الى زيارته اكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه في نغمة رقيقة قائلا :

ـ أجل فرصة طيبة كي أراك ..

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ـ لا اظن انك تعد رؤيتى فرصة طيبة .. !

فوقعت لهجة العتاب من صـدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ـ صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له « هيهات أن يؤثر في مثل هذا الكلام » وقالت :

ـ ليس ظنا فحسب ، انى أعنى ما اقول ، انك رجل لا يعوزك

الفهـم ، وانا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع أن صدور هـذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الأعذار لهـا ـ الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى ـ قائلا لنفسـه : ما أحرى صبرها على مرضـه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شـعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الأسى :

ـ غاضبة على ؟!.. يا له من حظ سيىء لا أستحقه .

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد :

ـ قلت لنفسى وانا في الطريق اليك « ما ينبغى أن تذهبى » .. فلا يحق لى الآن ان ألوم الا نفسى !

ـ بعض هـذا الغضب يا ست !.. انى أسائل نفسى عمـا جنيت ..؟!

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

ـ ما عسى أن تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى بأسوأ منها ؟!

فأدرك من توه أنها تشير الى ما بدا منها في الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة .. وقال مجاراة لأسلوبها الرمزى :

ـ لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر ..

ـ انه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجـة المذنب اذا أنشأ يعترف :

ـ لعله لم يردها حياء أو تقوى ..

فقالت بصراحة أعجبته وهزت فؤاده :

— اما الحياء فلا حياء له ، وأما سائر الأعذار فمن أين للقلوب الصادقة أن تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر الى جميـل الحمزاوى الذى بدا منهمكا فى العمـل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

— لا أحب أن أعود الى الملابسات التى قست على وقتذاك ، على انه لا يجوز لى أن أيأس ما دام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت في انكار ؟

— من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع في تجويدها عاما بعد عام :

— تجرعته طويلا والله شهيد ..

— والتوبة ؟

فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة :

— ان ترد التحية بعشر أمثالها !

فتساءلت في دلال :

— ومن ادراك بأن ثمة عفوا ؟

فقال بلباقة :

— أليس العفو من شيم الكرام !

ثم في نشوة مسكرة :

— العفو كثيرا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة ..

ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها :

— الجنة التى اعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين، ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء ، والا حارس لها ..!

وفطن الى أن حارس الجنة السماوية سـمى « المرحوم » الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه اليهـا ، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المراة قد فطنت الى نفس

الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله في سره . وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه ، فأقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما في خطبة مريم ابنة هذه المراة ، ثم كيف الهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد انه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فتاة الا على مثال امها ؟.. وأى أم ؟.. امرأة خطيرة ..! قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين ، ولكنها في البيوت مأساة دامية ، ترى اى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا ؟.. كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما خفى عليه شيء ، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والأيمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبة ــ استحوذت عليه اول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب ــ وهى أن يحول بين المراة المستهترة وبين بيته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيئا ــ لاتصاله المنتظر بها ــ لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحى لهـا بقطع أسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له من اعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المراة التى باتت أقرب ما تكون الى فؤاده وابعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة !.

ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

— الى اللقاء ..

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

— نحن في الانتظار ..

غادرته أوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت

له أيضـــا هما لم يكن ، هما جـديرا بأن يحتل مكانا بارزا من
مشاغله اليومية ، سوفيتساءل من الآن فصاعدا عن آمن السبل
للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما
فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوى سعد ،
اجل جد جديد من السـعادة يجر وراءه ـ كالعادة ـ ذيلا من
الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذى
يحظى منه بأسعد سعاداته ، لهان عليه هجر العالمة بعد ان بلى
حبه وذوت ازاهره واغرقه الشبع في مستنقع آسن ، ولكنه
يشفق دائما من ان يترك وراءه قلبا حانقا أو نفسا حاقدة ، وكم
يود كلما ضيق الملل انفاسه لو يبداه الحبيب بالهجر من ناحيته
فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا ، وكم يود ان تنتهى علاقته
بزبيدة كما انتهت أخوات لهامن قبل ، بكدر عابر تغسله هدايا
الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صداقة وطيدة ، فهل تتقبل
زبيدة ـ التى يظن انها ليست دونه شـبعا ـ اعتذاره بقبول
حسن ؟.. وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر ؟.
هل تثبت انها امراة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة
مثلا ؟. هـذا ما ينبغى أن يفكر فيه طويلا وأن يهيىء له انجع
الذرائع . وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيـا
لا يدوم ليكفى القلب متاعب الأهواء ثم شرد به الخيال طاويا
النهار فتراءى له وهو يدب في الظلماء متلمسا سبيله الى البيت
الموعود ، والمراة تنتظر بيدها سراج ..

- ٥٢ -

اعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون ان تطلبها أو تقبلها
الأمة المصرية ، فهىحماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هىضرورة
من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها .

كان فهمى يملى الكلمات ، كلمة كلمة ، في اناة وبصوت واضح
النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء
الجديد الذى انكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه في الفاظه من
دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا او خطأ . لم يكن غريبا
أن يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا في الاملاء أو غيرها في
جلسـة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جـديدا حتى للأم
وزينب ، أما ياسين فنظر الى اخيه مبتسما وقال :

ـ أرى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله
عليك باملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية ينفتح
لها المغلق من ابواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح رأى اخيه قائلا :

ـ هى من خطبة سـعد امام أساطين الاحتـلال في جمعية
الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

ـ وكيف كان ردهم عليه ..؟

فقال فهمى بانفعال :

ـ لم يجىء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه في حيرة وقلق ،
انها غضبة مزمجرة في وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم او العدل ..

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

ـ كان لا بد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ، وبعد ان استقال رشدى باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته ..

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى اخيه وهو يقول :

ـ ليست الخطبة كل ما عندى ، اقرا هذا المنشور الذى يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان ..

فتناول ياسين المنشور وراح يقرا :

ـ « يا صاحب العظمة ..

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى ان يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحرية والعدل اساسا للصلح واعلنوا ان الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها اخذنا على عاتقنا السعى في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها امام مؤتمر السلام ما دام ان الحق الاقوى قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد اصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن في الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى ان مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحماية حرية الأمم الصغرى ، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه بأننا انما نعبر عن رأى الأمة كافة .. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة ، ولما لم

يستطع دولته ان يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع احد في مصر ان يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين ، لأن في ذلك متابعة للطامعين في اذلالنا وتمكينا للعقبة التى ألقيت في سبيل الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضى بحكم الأجنبى علينا الى الأبد .

قد نعلم ان عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية ان تقبلوا عرش ابيكم العظيم الذى خلا بانتقال اخيكم المغفور له السلطان حسين ، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شانه ان يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير ان حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين اظهرا احترامهما لارادة الامة لا يمكن ان يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم ، والاعتداء بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الامة في هذا الظرف العصيب وهى انما تطلب منكم ـ يا ارشد أبناء محررها الكبير محمد علي ـ ان تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها ، مهما كلفكم ذلك . فان همتكم ارفع من ان تحددها الظروف ؛ كيف فات مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه ؟!.. كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة .. ولكن الأمر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار

غير منفعة الوطن الذى انت خادمه الأمين . ان لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئوليةعنها ، وفيه أكبر رجاء لها ، واننا لا تكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه ان يتعرف راى امته قبل ان يتخذ قرارا نهائيا في أمر الأزمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد في رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا ان نرفع لسدته شعور أمته التى هى الآن اشد ما تكون رجاء في استقلالها واخوف ما تكون من ان تلعب به أيدى حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه ان يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها .. وانه على ذلك قدير .. »

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه ذهول وفي قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد انه هز راسه قائلا :

ــ يا له من خطاب !.. لا احسبنى أستطيع ان اوجه مثله الى ناظر مدرستي دون ان ينالنى العقاب الرادع !

فرفع فهمي منكبيه استهانة وقال :

ــ الأمر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن ..!

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور . فلم يتمالك ياسين ان يقول ضاحكا :

ــ احفظت المنشور !.. ولكنى لا اعجب لهذا ، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى اليها بكل قلبك ، ولعلى لا أخلو من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا اقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور .. خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الأحكام العرفية ..

فقال فهمي في فخار :

ــ انى لا احتفظ بها فحسب ، ولكنى اقوم بتوزيعها ما سمح الجهد ..!

فاتسعت عينا ياسين في قلق وهم بالكلام .. ولكن الأم كانت أسبق اليه منه فقالت بانزعاج :

ــ لا اكاد اصدق اذنى ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء ؟!

لم يدر فهمي كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج ، لم يكن اشق عليه من محادثتها في هذا الأمر ، كانت السماء اقرب اليه من اقناعها بأن تعريض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوى في نظرها قلامة ظفر ، بل قد بدا له أن اخراج الانجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب اخراجهم او اغرائها ببغضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة « لماذا تكرههم يابنى !.. اليسوا اناسا مثلنا لهم أبناء وامهات ؟! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له « لا عليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : «لا حياة لقوم اذا حكمهم أجنبى» فقالت له في استغراب «ولكنا لا نزال أحياء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا في ظل حكمهم !..انهم يا بنى لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال امة محمد بخير ! » فقال الشاب يائسا « لو كان سيدنا محمد حيا ما رضى أن يحكمه الانجليز » فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟.. كان الله يعينه بملائكته .. » فهتف بها حانقا « سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كأنما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يا بنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت في توزيع

المنشور خطرا يتهدده ؟.. لم يسعه الا ان يركن الى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :

ـ ما أردت الا المزاح فلا تنزعجى للاشىء ..

فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

ـ هذا ما اومن به يا بنى ، هيهات ان يخيب ظنى في ارشد الراشدين ، مالنا نحن وهذه الأمور ! اذا راى باشواتنا ان يخرج الانجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .

بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول أن يتذكر أمرا ذا بال ، فما بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

ـ مدرس العربى قال لنا بالأمس ان الامم تستقل بعزائم ابنائها ..!

فهتفت الأم ساخطة :

ـ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، الم تحدثنى يوما بأن عندكم تلاميذ قد طرت شواربهم ؟

فتساءل كمال بسذاجة :

ـ واخى فهمى أليس تلميذا كبيرا ؟

فقالت الأم بحدة على غير مالوفها :

ـ كلا ليس أخوك كبيرا ، انى اعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه أن يتحدث اليكم في غير الدرس !.. اذا شاء ان يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى ابنائه في البيت لا الى ابناء الناس !..

كاد الحديث يحمس ويستمر لولا ان سنحت كلمة عابرة فغيرت مجراه ، ارادت زينب أن تتودد الى الأم بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرس العربى ونعتته بأنه « مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلا ذا شأن في غفلة من الزمان » .. ولكن ما أن سمعت الأم هذه الاهانة توجه الى « المجاور » حتى افاقت من انفعالها وأبت ان تسكت عنها رغم انها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى

عليه نفسها من اجلال لذكرى ابيها فتحولت الى زينب وقالت بهدوء :

ـ انت يا ابنتى تحقرين اشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء الرسل ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الا ليته قنع بأن يكون مجاورا وشيخا !..

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجىء ، فبادر بالتدخل ليمحو الأثر الذى تركه دفاع زوجته البرىء ..

- ٥٣ -

ـ انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا ان الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد احمد لم يكن في حاجة الى مزيد من النظر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، واصحابه يخوضون في الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الأصدقاء والزبائن ، أجمع الكل على ان سعد زغلول وصفوة اصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول في القاهرة او خارجها ، قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

ـ لا تشكوا في صحة الخبر فان لأخبار السوء رائحة تزكم الانوف .. الم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟.. او بعد رده على الانذار البريطانى بذلك الخطاب الجبار الى الوزارة الانجليزية ..؟!

فقال السيد بوجوم شديد :

ـ يعتقلون الباشوات الكبار !.. يا له من حدث مخيف ، ترى ما عسى أن يصنعوا بهم ؟

ـ الله وحده يعلم ، البلد يختنق في ظل الحكم العرفي ..

ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا :

ـ اما سمعتم بآخر الأنباء ؟!.. مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

ـ النفى الى مالطة ، لم يعد احد منهم بيننا ، نفوا سعدا وأصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع في نفس واحد :

ـ نفوهم !..

أثار « النفى » في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابى باشا ونهايته ، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع : ايجرى نفس المصير على سعد زغلول وصحبه ؟.. اينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد ؟.. أتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال في مهد الأزهار ؟.. وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن ثقيل غليظ شاع في صدره كما يشيع الغثيان ، فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة ، ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ، وفي الريق مرارة واحدة ، ثم جاء في أثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبأ ، آملين في أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر في نفوسهم ، فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم .

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحر أحد جوابا ، ولبث المتسائل يقلب عينيه في الوجوه دون جدوى ، لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان أبت أن تسلم جهارا بما يميتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن

هل يعود سعد ولو بعد حين ؟.. وكيف يعود سعد ؟. اية قوة تعيده ؟. لن يعود سعد ، فأين تذهب هذه الآمال العراض ؟.

لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم ان يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

ـ ولكن اليس ثمة أمل في ان يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يعر احد القائل التفاتا في حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لأنه لم يقصد بقوله في الحق الا تلمس مهرب ـ ولو وهمى ـ من اليأس الخانق .

ـ اسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

ـ رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى .

ـ كالحلم .. وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى ..

وهتف هاتف بصوت أبحه الألم :

ـ الله موجود !..

فهتفوا بصوت واحد :

ـ نعم .. وهو أرحم الراحمين .

ذكر اسم الله فكان كالقطب المغطس ، جذب اليه شواردهم وجمع افكارهم التى شتتها اليأس . وفي مساء ذلك اليوم ـ ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد ـ بدا مجلس الاخوان مجافيا للهو والطرب يغشاه الوجوم ، وتتجه احاديثه جميعا الى الزعيم المنفى ، نهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلا ، فقد غلب الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيد انه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ، وما لبث أن ركبهم قلق خفى وشى بحكة الادمان التى تئن في أعماقهم فبدوا

وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

ـ آن لنا أن نعود الى بيوتنا ..

لم يكن يعنى ما يقول ،ولـكن كأنما أراد أن ينذرهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى أمامهم الا أن يعودوا الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :

ـ أنعود الى البيوت دون كأس تخفف من بلوى هذا اليوم !

فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجراح في أهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله .. نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة في الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما أثلج صدره من ارتياح:

ـ نشرب في مثل هذا اليوم ؟!

فحدجه السيد احمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهكما :

ـ دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن .. الكلب.

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما اراد السيد ان يعتذر عن هذا السلوك فقال :

ـ ان اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمنوا على قوله ، كانت اول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد ان قال متأثرا بمنظر القوارير :

ـ انما ثار سـعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد أن الليلة لم تهنأ بصفاء خال من الكدر ، حتى وصـفها السيد فيما بعد بأنهـا « ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر ! » .

* * *

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى في جو من الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمى في حديث ثورى طويل والدموع في عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الأم أن تبدد الكآبة أو تخفف البلوى ولكنها اشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن ان انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته وزوجته الى منفى بعيد ، قال ياسين :

ـ امر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول .. مشردون بعيدا عن الوطن ..

فقال فهمى بانفعال شديد :

ـ يا لهم من اوغاد هؤلاء الانجليز !.. نخاطبهم باللغة التى كانوا يستعطفون بهـا الناس فى محنتهم فيجيبون بالانذارات العسكرية والنفى والتشريد ..

لم تطق الأم أن ترى ابنهـا منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

ـ ارحم نفسك يابنى ، ربنا يلطف بنا !

ولكن هـذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون أن يلتفت اليها :

ـ اذا لم نقابل الارهاب بالغضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر ..!

فقال ياسين متفكرا :

ـ من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين ، انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه ..

فقال فهمى بحدة :

ـ والآخرون ..؟ اليس وراءهم رجال ايضا ؟.. انها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها ..

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفا ولكن المراتين

لاذتا بالصمت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه، ومن المؤكد انهم لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد في نفيهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، أرادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو اليهـا ، ومهما يكن من امرهم فماذا يبعث فهمي على هذا الغضب الجنوني كأن سعدا ابوه أو أخوه ؟!. بل ماذا يبعث ياسين ـ وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر ـ على هذا الأسف ؟!. أيحزن حقا من كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس ؟!.. كأن حياتها في حاجة الى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت تفكر في هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له : «ان كنت صادقا حقا في حزنك فلا تذهب هذا المساء ـ هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت أحكم من أن تلقى بأفكارها الباردة في هذا التيار النارى ، في هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت أعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان رأسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من اسف على أفندينا ، أجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعانى في نفسها ، بل لعلها خلت من الأمل الجذير بأن يداعب شخصا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها ـ كما اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه ـ باليأس من العودة ، والا فأين افندينا ؟.. ومن أجدر منه بالعودة الى وطنه ؟.. ولكن أيظل فهمي على حزنه ما امتد النفى بسعد . ترى أى نحس في هذه الايام يأبى الا ان يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل أمنهم وكدر صفوهم ؟! كم تتمنى أن يعود السلام الى

ربوعه ، وأن تطيب هـذه الجلسة كما طابت العمـر كله ، وأن تنبسط أسارير فهمي ويلذ الحديث ، كم تتمنى ..

ـ مالطة ..! هذه هي مالطة !

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسـه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجاب الى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره الى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء ، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على أسنة الرماح فانه لم يسعه أن يتصوره الا محمولا على أسنة الرماح ، لا متألما أو صارخا كما يتوقع في مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه أخوه أيضا في مرحلة أخرى من الحديث ، وكم ود لو يستطيع أن يسائل أخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على أسنة الرماح كالطود ، ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبته الى فرصة أنسب ، وأخيرا ضاق فهمي بمجلسه بعد أن أيقن أن ما يصدره من عاطفة أكبر من أن تروح عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذى يقف من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار ، نازعته نفسه الى الاجتماع باخوانه في قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم في قراراتها من الاحساس والرأى ، هناك يسمع أصداء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بايحاءاته الجسورة الملتهبة في جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة ، مال الى أذن ياسين وهمس :

ـ الى قهوة أحمد عبده .

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدأ يتساءل وهو من
الحرج في غايته - عن وسـيلة لبقة لينسحب بها من المجلس ،
ليمضى الى سهرته ، دون أن يزيد من غضب فهمى اشتعالا ،
لم يكن مابه من أسف تصنعا ، أو لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ
الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ،
ولما فرض على أعصابه ما فرض من تكلف مجاراة لفهمى ومجاملة
له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل،
غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبى اليوم ما بذلت من
جهد في سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا » .

- ٥٤ -

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمى
عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، في شبه ظلام الا ما لاح من
نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترامى الى أذنيه همس أنفاس
كمال المترددة فعطف رأسه الى فراشه القريب ، ثم انثالت عليه
ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق
سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدرى ان كان
يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبدا ، لا يدرى
ولا أحد يدرى ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص
في أركانها ، يا للعجب ، ها هى أمه تعجن كعهدها منذ قديم ،
وها هو كمال يغط في نومه ويتقلب في احلامه ، وذاك ياسين يدل
وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش
أما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وها هو
نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه في رقة بالغة ، كل

شيء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب
راسا على عقب ، كأن الرصاص لا يعزف باحثا عن الصدور
والرءوس .. كأن الدم الزكى لا يخضب الأرض والجدران ، وأغمض
الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر
بما يحمل من في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وايمان،
حقا لقد حيى في الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها
عهد من قبل ، أو أنه لم يعرفها الا اطيافا في أحلام اليقظة ، حياة
طاهرة رفيعة ، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء
باهر أثمن منها وأجل ، تتعرض للموت بلا مبالاة ، وتستقبله بعناد،
وتهجم عليه باستهانة ، واذا أفلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة
أخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى
نور رائع عنه لاتحيد ، مدفوعة بقوة لاقبل لها بها ، مسلمة مصيرها
لله وهى تشعر به محيطا لها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت
الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كغاية حتى وسعت
السماوات والأرض ، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة في خدمة
أمل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء ، لو ان الانفجار
الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة
سيرها الهادىء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لا بد من
انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن
أبخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على
ميعاد فألقى بنفسه في خضمها .. متى حدث هذا ؟.. وكيف
حدث ؟.. كان راكبا ترام الجيزة في طريقه الى مدرسة الحقوق
فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتنافسون ملوحين بقبضاتهم ،
نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما أن يعود سعد ليواصل جهاده
واما أن ننفى معه ، وانضم الراكبون من الأهالى اليهم في الحديث
والوعيد حتى الكمسارى أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يالها
من ساعة !.. فيها أشرق بنفسه الأمل من جـديد بعد ليلة من

الحزن واليأس قاتمة ، فأيقن أن هذه النار المتقدة لن تخمد ولن تبرد ، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى أحدهم مناديا بالاضراب !.. شيء جديد لم يسمع من قبل ، بيد أنهم هتفوا بالاضراب وهم يتأبطون كتب القانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب أن صعد شاب منهم الى أعلى السلم المفضي الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، انصت الى الخطيب بجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه يتابع دقاته في سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوي للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباه حماسي حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا في نفس واحد (يحيا الاستقلال) ثم تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين « لتسقط الحماية» ووالى الاصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على أسنانه ليحبس الدمع الذى زفره جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شيء جديدا بدا ذلك اليوم ، بيد انه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كأنه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف في صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم ما يدرون الا والمستر ايموس

نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية .. لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لآبائهم ، هناك تصدى له أحدهم قائلا :

ـ أن آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون ..

وتعالى الهتاف من أعماق القلوب كهزيم الرعـد فانسحب الرجل مسرعا . ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ما تنثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الأمور سراعا ، دعا الداعى الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فهرع طلبتها اليهم هاتفين كأنهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الاهالى وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون في كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت في مظاهرتهم المتنفس ، تساءل ـ ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه ـ « كيف حدث هذا كله !؟ » .. لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذى شهد قنوطه وانهزامه ، ها هو الآن ، قبيل الظهر ، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع أن يسير الى النهاية ، فأى سرور سروره ، وأى حماس حماسه !.. لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الابرياء من ظنون ، وفي

ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزى تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار ، والأرض تضطرب تحت وقع السنابك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم في ذهول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ، وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتنهد في عصبية ولوح بيده هاتفا ، أحاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يغرق بين رءوسها المشرئبة ، ثم ترامى اليهم أن البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد ..

على أن ذلك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالى لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانه ، وألقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : « الانجليز ! » وما لبث أن فرقع الرصاص مغطيا على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم في حماس جنونى ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، وكان هو ضمن الآخرين ، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيا كل شيء الا حياته ، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه

حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد رأسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد الى بيته فيما يشبه الذهول ، وفي وحدته الحزينة تمنى لو كان من الذاهبين أو في الأقل من الثابتين ، وفي وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتفكير ، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التفكير متسعا وقريبا.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين ، أيام متشابهات في أفراحها وأحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا ، وألقى بنفسه في خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى آفاق بعيدة من الاحساس النبيل ، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين . ان قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون في منفاهم ، لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادى النيل ..

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجين مرة أخرى مقلبا ناظريه في أركان الحجرة التى أخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة . أمه تعجن !.. ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في اعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال ، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، أليست أم على هامش الحياة هى التى أنجبته والأبناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الأبناء ، الحق ان ليس ثمة شيء تافه في الحياة .. ولكن الا يجىء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة منذ خمسة أيام ؟.. الا ما أبعد هذا اليوم !.. ثم جرت على

شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ماعسى أن يصنع والده اذا علم «بجهاده» المتواصل يوما بعد يوم ؟.. ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الحنون ؟ » .. ابتسم في حيرة وهو يعلم أن المتاعب التى قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه اذا نمى سره الى السلطة العسكرية نفسها .. ثم ازاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم « سيان أن أحيى أو أن أموت ، الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض .. »

— ٥٥ —

لم يعد أحد يستطيع الادعاء بأن الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا في ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارىء ثقيل ضاق به كل الضيق وأن لم يستطع له دفعا ، ذلك أن الأم امرت ام حنفى بأن تتبعه في ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ أو مطاوعة نزوات الطيش ، دار رأس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذلك الزمن أياما كالحات ملأتها هلعا وجزعا فودت لو تستبقى ابنيها الى جانبها حتى تثوب الأمور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد أن وعد فهمى — وهو من ثقتها في «عقله» لا تتزعزع — انه لايشترك في الاضراب بتاتا ، وبعد ان رفض الأب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بأن

المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الاضراب . سلمت الأم بذهاب الأخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة أم حنفى وهى تقول له : «لو كان بوسعى أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسى» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لأنه أدرك بالبداهة ان هذه الرقابة التى لن تخفى عن أمه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به في الطريق من الوان العبث والشطارة ، وانها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، اشد الامتعاض من السير في الطريق مصطحبا هذه المرأة التى ستلفت الأنظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه لم يسعه الا أن يذعن لرقابتها سيما بعد أن أمره ابوه بقبولها ، قصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره أنه كان ينتهرها كلما تدانت منه ، وانه حتم عليها أن تتأخر عنه مسيرة أمتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل اغا صباح الخميس وهو خامس أيام المظاهرات في القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفى من البواب وسألته تنفيذا للأمر اليومى الذى تلقته في البيت :

— هل يوجد تلاميذ في المدرسة ؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث :

— منهم من يدخل ، ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لأحد ..

كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كان مهيأ النفس لسماع الاجابة التى باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهى «التلاميذ مضربون» فيعودان الى البيت حيث يمضى سحابة النهار في حرية حببت الى قلبه الثورة من بعيد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا :

— انا ممن يذهبون ..

وابتعد عن المدرسة والمرأة في اثره ، بيد أنها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لأول مرة في حياته — أن تقول لأمه أن التلاميذ مضربون ، وزيادة في الرجاء والتودد دعا لها — وهما يمران بجامع الحسين — بطول العمر والسعادة الا أن أم حنفي لم تستطع الا أن تصارح الأم بالحقيقة كما سمعتها فأنبته الأم على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به الى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة والغدر ، لم يجد في المدرسة الا لداته .. ذوى الأسنان الصغيرة ، اما من عداهم ، وهم الأغلبية الساحقة ، فكانوا مضربين ، والقى في فصله ، الذي كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول — نحوا من ثلث التلاميذ ، بيد ان المدرس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه اضراب في الواقع . فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتع بالفراغ الذي جادت به هذه الأيام العجيبة بلا حسبان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل ، وهفا خياله الى أولئك المضربين في الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيرا ما تساءل عن حقيقة أمرهم ، أهم كما تدعي أمه « متهورون » لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم الى التهلكة أم هم كما يصفهم فهمي أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟!.. وكثيرا ما مال الى رأى امه لحنقه على التلاميذ الكبار — فئة المضربين — الذين خلفوا في نفسه ونفوس اضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم في فناء المدرسة بضخامة اجسامهم وقحة شواربهم ، بيد انه لن يستسلم الى هذا الرأى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الاقناع في نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به ، لن يسعه أن يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطلع من مكان

آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شك ، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات الى الاشتباك بالجنود ؟!. وأى جنود ؟!.. الانجليز ؟... الانجليز الذين كان يكفي ذكر اسمهم لاخلاء الطرقات !.. ماذا حدث للدنيا وللناس ؟! ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنقش عناصره الجوهرية في نفس الغلام بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء . المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية في أعماقه وان وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته ان آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة واحيانا متناقضة ، فبينما يجد فهمي ثائرا يحمل على الانجليز بحنق قاتل ويحن الى سعد حنينا يفجر الدمع ، اذا بياسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، أما أمه فلا تكف عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفي قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التي أفزعتها الأحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بأنه سبب هذا الشر كله ، وانه « لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » .. لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يغيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد أو قريب ، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل أغا الى الاضراب — لأول مرة — فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كثب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر الى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية في دهشة ممزوجة بسرور

خفى ، لعل مبعثه الفوضى التى نشبت في كل شيء فعصفت بالروتين اليومى الثقيل بلا رحمة . أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت ، وسيبقى مغلولا في هذه الجلسة المملة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل ، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا في الأذن ، ولكى يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق ، انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم ، انها أصوات مندمجة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشتد يمكن أن تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة !.. » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب. وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع أذنيه الأسماء التى ملأت ذهنه طوال الايام الماضية . سعد .. الاستقلال .. الحماية ، وتدانى الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وأيقنوا أن الطوفان لا بد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبيانى تنكب عن تقدير العواقب في حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون : « اضراب .. اضراب .. لا ينبغى أن يبقى احد » .. وفي لحظات وجد نفسه غائصا في موج مصطخب يدفعه أمامه دفعا يعطل

كل مقاومة وهو من الاضطراب في غاية ، تحرك في بطء شديد تحرك حبوب البن في فوهة الطاحونة لا يدرى أين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا أجساما متلاصقة في ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدرى الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقا حتى ألصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها الحديدى الى ما فوق العتبة بقليل ، فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام في الداخل رأى عم حمدان الذى كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره الى جدار القائمة التى تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

ـ ازهريون ، طلبة ، عمال ، أهالى .. جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع أن تحمل كل هؤلاء البشر ..

احدى المرأتين بدهشة :

ـ كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟!

المرأة الأخرى بحسرة :

ـ ربنا الهادى ، كلهم أبناء ناس يا ولداه ..

فقال عم حمدان :

ـ لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..

تفجر الهتاف في الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينا عن قرب كأنه يدوى في الدكان . وحينا عن بعد في ضوضاء شديدة غير متمايز كهزيم الريح ، وتواصل بلا انقطاع ، في حركة بطيئة

مستمرة دل عليها تفاوت درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن انه انقطع جاء غيره حتى بدا وكأن لا نهاية له . تركزت حياة كمال في اذنيه وهو يرهف السمع في اضطراب وقلق ، بيد أنه لما تتابع الوقت دون وقوع مكروه استرد أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة ، ثم وسعه أخيرا أن يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث ان يزول فتساءل متى يجد نفسه في البيت ليروى لأمه ما وقع له ؟. « اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا اول لها ولا آخر ، وما أدرى الا وتيارها الزاخر يحيط بى ويجرفنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف: ليحيى سعد ، لتسقط الحماية ، ليحيا الاستقلال . وما زلت انتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص » .. ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق أنه حي يرزق وستتلو آيات كثيرة وهي ترتجف .. « ومرت رصاصة جنب راسى ما زال عزيفها يطن في أذنى ، وتخبط الناس كالمجانين، وكدت أهلك مع الهالكين لولا أن جذبنى رجل الى دكان .. »

انقطع حبل أحلامه على صياح عال غير منتظم ووقع اقدام متدافعة في اضطراب ، فخفق قلبه ونظر في وجوه من حوله فرآهم محملقين في الباب كمن يتوقع ضربة على أم رأسه ، واقترب عم حمدان من الباب وانحنى حتى نظر من الفرجة في اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب :

ـ الانجليز ..!

وصاح كثيرون في الخارج « الانجليز .. الانجليز » ونادى آخرون « الثبات .. الثبات » وهتف غيرهم « نموت ويحيا الوطن » .. ثم سمع الغلام لأول مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعدت أوصاله ، وما أن ندت عن المراتين صرخة فزع حتى أفحم في البكاء ، وجعل

عم حمدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله .. الله .. » ولكن الغلام شعر بالخوف ، باردا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه . وتوالت الطلقات ، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيل ، تتابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأنين ، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرا في حضرة الموت .. ثم حل صمت مخيف كالاغماء الذى يعقب تبريح الألم ، تساءل كمال بصوت متهدج مبحوح :

ـ ذهبوا ؟!..

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » .. وتلا آية الكرسي ، فتلا كمال في سره ـ اذ خانته قدرته على الكلام ـ « قل هو الله أحد » لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت في الظلام . على أن الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم اطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كغريق عثرت يده على اداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عرفه هتف به :

ـ كمال ؟!. اين كنت في أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج ، بيد انه أجابه بقوله :

ـ كنت في دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء ..

فقال له بعجلته ولهوجته :

ـ اذهب الى البيت ولا تقل لأحد انك قابلتنى .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

ـ الا تعود معى ؟!

فقال باللهجة نفسها :

— كلا .. ليس الآن .. سأعود في موعدى المعتاد ، لا تنس انك لم تقابلنى قط ..

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبحا واقفا وسط الطريق يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

— هذا الدم الزكى يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا ..

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون ..

— ٥٦ —

كانت امينة تتلمس طريقها الى باب الحجرة خلال ظلمة السحر ، في حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترامى الى اذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق اذنيها في هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد في الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » أما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت في تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذى تستطيع معه

رؤية ما يجرى تحتها ، بيد أن اللغط ازداد ارتفاعا ، وازداد في الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها في الظلام الذى أخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، واشياء على هيئة أهرام صغيرات ، وأخرى كأنها الأشجار القصار ، فارتدت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال ، ثم ترددت ، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك الى حين استيقاظه؟!. ثم أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة بحب الاستطلاع الى النافذة فأطلت منها . بدأ وشى الشروق ناشبا في غلالة السحر واضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب ، فأمكنها ان ترى الطريق في كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الأشباح التى راعتها في الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمى وأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا في فراشه وهو يتساءل منزعجا :

— مالك يا أماه ..؟

فقالت وهى تلهث :

— الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رءوس الطرق التى تتفرع عنده ، يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلى الخيام اقيمت البنادق اربعا اربعا ، كل مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما

رأى في الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش ، ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه !.. ولكنه ما لبث ان استسخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذى لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذى لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا ، وهى أن الحى الذى أتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا للجنود والخيام والبنادق واللوريات وقلبه يخفق في رهبة وحزن وحنق ، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

— انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات في منابتها ..

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يقول في سره حانقا « هيهات .. هيهات » حتى سمع أمه تقول :

— سأوقظ والدك لأخبره بالأمر ..

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كأن السيد — الذى يحل لها جميع مشكلات حياتها — كفيل أيضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الأمان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :

— دعيه حتى يستيقظ في وقته ..

فتساءلت المرأة في رهبة :

— ماذا نفعل يا بنى وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا ؟..

فهز فهمى رأسه في حيرة قائلا :

— ماذا نفعل ؟!.. — ثم بلهجة أكثر ثقة — لا داعى للخوف ، ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين ..

قالت وهى تزدرد ريقا جافا :

— اخاف أن يعتدوا على الآمنين في بيوتهم ..

ففكر قليلا في قولها ثم تمتم :

— كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين حتى الآن ..

لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجده أوفق ما يقال ، وعادت أمه تسائله :

— وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد أجابها :

— من يدرى ؟!.. انهم ناصبون الخباء فلن يرحلوا سريعا ..

تنبه الى انها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها في عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتقعتين ، وفكر لحظة في مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا اذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر والده تدعوه بطبيعتها الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية ابيه الخفية ، وسمعا وقع اقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر ، وصاح الشاب الذى بدا منتفخ العينين مشعث الشعر :

— أرأيتم الانجليز ..؟

وهتفت زينب :

— انا التى سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سى ياسين ..

وواصل ياسين الحديث قائلا :

— لقد نقرت على باب والدى حتى استيقظ واخبرته ولما رآهم بنفسه أمر بالا يغادر البيت احد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم فاعلون ؟.. وما عسى أن نصنع ؟.. الا توجد في البلد حكومة تحمينا ؟..

فقال له فهمى :

— لا اظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

ولكن حتى متى نظل محبوسين في بيوتنا ؟! .. ان البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟

فغمغم فهمى في ضيق :

ـ سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..

وهتفت زينب في عصبية ظاهرة .

ـ لم نعد نسمع او نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على أولاد الحرام ..

عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا في المجتمعين فى حجرته على غير انتظار ، ثم جلس في فراشه وتطلع الى امه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

ـ ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رأت ان تبلغه الخبر في احسن صورة ممكنة فقالت برقة :

ـ لن تذهب اليوم الى المدرسة ..

فتساءل بابتهاج :

ـ بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمى في شيء من الحدة :

ـ الانجليز يسدون الطريق !

شعر كمال بأنه ادرك سر تجمعهم فقلب عينيه في الوجوه مذهولا ، ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول باضطراب :

ـ البنادق أربع اربع ..

ونظر الى فهمى كالمستغيث وتمتم في خوف :

ـ سيقتلوننا ..؟

ـ لن يقتلوا احدا ، جاءوا لطاردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ما اجمل وجوههم ..

فسأله فهمى ساخرا :

ـ هل اعجبوك حقا ؟..

فقال كمال بسذاجة :

ـ جدا ، كنت أتخيلهم كالشياطين ..

فقال فهمى بمرارة :

ـ من يدرى ، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم ..!

لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولأول مرة تبسط السيد احمد في الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون في منع المظاهرات وانهم لهذا احتلوا الأحياء التى تكثر بها المظاهرات وانه راى ان يمكثوا يومهم في البيت حتى تتضح الأمور ، استطاع الرجل ان يتكلم بثقة وان يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذا لأحد يتسرب منه الى القلق الذى تفشى في باطنه مذ هب من فراشه على نقر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة راى ابيه فقال بأدب :

ـ ولكن يا والدى قد تظننى المدرسة اذا مكثت في البيت من المضربين !

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال :

ـ للضرورة أحكام ، أخوك موظف وموقفه ادق من موقفك ولكن العذر واضح ..

لم تواته شجاعته على مراجعة ابيه خشية ان يغضبه من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى ـ وجد في أمره بمنع مغادرة البيت

عذرا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء أمثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، وما لبثت الأم وزينب ان اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمسا ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الأخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين. ووجد كمال في خص الدجاج تسلية وأى تسلية فانتقل اليها ، وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة التى تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة في جنبات الوادى من أقصى شماله الى أقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتى لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو ، ثم قال الشاب بحرارة :

— هذه الثورة حقا ؟.. فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيتهم فلن يزيدنا الموت الا حياة ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجبا :

— ما كنت أتصور أن في شعبنا هذه الروح المكافحة ..

فقال فهمى وكأنه نسى كيف أشفى على اليأس قبيل شبوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :

— بل انه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التى تشتعل في جسده الممتد من أسوان الى البحر الأبيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد الى الأبد ..

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة :

— حتى النساء خرجن في مظاهرة ..

فتمثل فهمى بأبيات من قصيدة حافظ في مظاهرة السيدات:

خرج الغواني يحتججـ ـن ورحت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :

— ما كان أجدرنى أنا بحفظها ..

وفكر فهمى في خاطر طارىء ثم تساءل بحزن :

— ترى أترامت أنباء ثورتنا الى سعد في منفاه ؟.. أعلم الشيخ الكبير بأن تضحيته لم تذهب هباء أم تراه غارقا في يأس المنفى ؟..

- ٥٧ -

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطاني الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخا وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين في خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون في طابور على نداء النفير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب بيت القاضى مما دل على قيام مظاهرات في الأحياء القريبة ، وكان فهمى يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد ..

وأخيرا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وآويا الى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمى على كتبه يراجع ما فاته في الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و «غادة

كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذى توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات ــ بوليسية وغيرها ــ اشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه أحب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبيله ، يفهم ما يسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر ان يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا أقله ، أو يتصور له معنى لايمت الى حقيقته بسبب ، أو لا يدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى داب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتاب واقحم عليها من الألفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذى قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من أسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد أن يلم بها في رفق ، وفي الأوقات القصيرة التى تسبق خروجه الى سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد بأسا في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة ، أو يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروى له ما قرأ مستلذا باقبال الغلام على الاصغاء بذلك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتى تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا ، وقد قرأ أبياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة قطرة ، لاعنا الانجليز من أعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة أخرى ، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وأرزا واتمت

اطباقها ــ التى حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت ــ بجبن وزيتون ومش ، وأحضرت عسلا أسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد ان الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ ان الأم لم يسعها ان تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه ، ولبث ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون في جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمال فغودر الزوجان منفردين . « ما عسى أن أصنع من الآن الى ما بعد منتصف الليل ؟ » .. أزعجه هذا السؤال الذى ألح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق في الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة احمد عبده ، يحسو الشاى الأخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذى يستهوى شعوره بقدمه ويسائر خياله بحجراته المطمورة تحت انقاض التاريخ . قهوة احمد عبده احب المقاهى الى قلبه ، ولولا الغرض ــ والغرض مرض كما يقولون ــ ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبه فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى اغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة سى على بالغورية لوقوعها أمام بيت زنوبة العوادة ، فهو يبدل المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له ، أين الكلوب المصرى وأصحابه ؟.. اين قهوة سى على ومعارفها ؟.. من حياته

ذهبوا ، ولعله لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرب منه ، والدور
الآن على قهوة أحمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه
الغد من مقاهي وأصدقاء . على أنه لم يكن يمكث بقهوة أحمد عبده
طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكي أو بالأحرى
الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو
له أن يدعوها .. أين منه «العادة» هذا المساء الكالح ؟!. وسرت
في بدنه لتذكر حانة كوستاكي رعدة شهوة ، ثم مالبث ان لاحت
في عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين . بدا البقاء في
البيت حسرة طويلة زاد من حدة المها ما طاف بمخيلته من صور
الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ، فعذبته الاحلام
وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى
الخمر الباطنية ولعبها بالراس ذلك اللعب المدغدغ الحار السار
السائل بهجة وافراحا ، فلم يدرك قبل ذلك المساء انه اعجز من أن
يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه
وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذي جر عليه التعاسة لأهون
الأسباب ، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها ، ولم
يذكر من بواعث ألمه الا الحصار الذي شده الانجليز حول البيت ،
وانه يحترق ظما ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة
الى زينب فوجدها تتفرس في وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة
« مالك شاردا ، مالك واجما ، أليس لوجودي أى أثر في التسرية
عنك ! » .. أدرك معناها كله في لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما ،
ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين ، وبالعكس لعله أحنقه واثار
ثائرته ، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على اضطراره للبقاء معها
طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التي
يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر
ويتساءل في غرابة أليست هي هي !.. أليست هي التي خلبت
لبي ليلة الزفاف ؟!.. أليست هي التي شغفتني هياما ليالي

وأسابيع ؟!. فمالها لا تحرك في ساكنا !.. أى شيء طرأ عليها !.
مالي أتململ برما وسأما فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغريني عن
سكرة تأجلت ! ومال — كما فعل مرات من قبل — الى رميها
بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة
والشطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه في المعاشرة الدائمة،
فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعـة الدوم ، ولم يكن تعلقه
باحداهما بمانعه من التنقل اذا سنحت دواعيه وقد ذكر لحظات
حيرته هذه وافكاره عنها بعد كرور اعوام طوال فعرف من نفسه
ومن الحياة عامة ما لم يجر له في خاطر . وانتبه على تساؤلها :

— لعلك غير مرتاح الى البقاء في البيت ..؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها
التهكمي من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع
قائلا بصراحة مؤلمة واصرار :

— بلى ..

ومع أنها تحامت النقار من بادىء الأمر الا أن لهجته آذتها
أشد ايذاء فقالت بحدة :

— لا ذنب له في هـذا ، أليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن
سهرتك ولو ليلة واحدة ..

فقال متسخطا :

— دليني على شيء واحد يجعل البيت محتملا ..

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منذرة بالبكاء :

— سأخلي لك المكان لعله يطيب لك ..!

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه
« يا لها من حمقاء لا تدرى أن القدرة الالهية وحدها هي التي
تبقي عليها في بيتي » . ومع ان الشجار نفس عن حنقه قليلا
الا أنه كان يفضل الا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم
يكن يعجز عن استرضائها لو اراده ولكن عقله الفتور الذي ران

على مشاعره جميعا . غير انه لم يمض دقائق حتى شمله هدوء نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها في أذنيه فأقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعثوره فجأة على ثمالة حب لها في زوايا قلبه ولكن لحرصه على الا يشذ في معاملتها عن حد الأدب — ربما اكراما لأبيها أو خوفا من ابيه ، حتى في فترة الانتقال العصيبة التى اخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة بالحزم . واعتذر عن اسرافه بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب في هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى ألوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه الى مصالحة زوجه بل قال لنفسه « هى التى استثارت غضبى .. ألم يكن بوسعها أن تخاطبنى بلهجة أرق ! » .. انه يحب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية . اشتد ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان الى السطح. وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى . وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى اذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل أنفاس تتردد بين لحظة واخرى فحملق في الظلام متعجبا وهتف متسائلا :

— من هنا ..؟

فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية :

— انا نور يا سيدى ..

تذكر من توه أن نور جارية زوجه تأوى ليلا الى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ، ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم في مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء في الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة الصدر ، عبلة الأرداف ، ذات وجه لامع ، وعينين براقتين ، وشفتين ممتلئتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته . وفجأة ، وعلى حين غرة ، تفجرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفى ليلة زفاف عائشة ، انبعثت في وجدانه الخامد حياة فوارة ، وانتشر القلق في دمه حتى تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى ، كل أولئك في لمح البصر . ودب النشاط في مشيته وفكره وخياله ، وكف وهو لا يدرى عن قطع السطح من اوله الى آخره مقصرا خط ذهابه وايابه الى الثلثين ثم الى النصف ، وكلما مر بهـا اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء ..؟ خادم ؟.. وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما أن تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغنى كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقيها . بل الدمامة نفسها — ما دامت قد ركبت على امرأة — اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند أم حنفى أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على أية

حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى ـ لا شك ـ ملمسه بالفتوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء . وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت اعصابه واسترسل قلبه في دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض في جو من الحذر أن تكون ـ كأم حنفى ـ بلهاء فتتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم في خطوات وئيدة محملقا صوبها ، يود بكل ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ـ رغم الظلمة الفاشية ـ الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه أعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع قد وقع عفوا ، غير ان رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته في الغيبوبة التى تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الافاقة النسبية في نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند عن صاحبته من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتيابها في امره فاستدار مصمما على اعادة الكرة . أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها ـ لم يخطئه إحساسه هذه المرة ـ ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الثدى الأحرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتى بلا شك ، بل لعلها أدركتها فند عنها ما يوحى بأنها ارادت ان تنتحى جانبا ولكنها إبطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على اى حال لم تتقينى باليد ، ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب ، لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتثاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة

بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلاما أو بلادة أغرقت ثمالة وعيه في تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

ـ أهذه أنت يا نور ..؟!

فقالت الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها :

ـ نعم يا سيدى ..

أراد أن يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كالملاكم الذى يلوح بقبضته في الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها :

ـ لم لم تذهبى الى حجرتك ..؟

فقالت الجارية التى تعثرت في نطاق حصاره :

ـ كنت اشم الهواء قليلا ..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس في اذنها وهو يلصق خده بخدها :

ـ هلمى الى الحجرة ..

فتمتمت في ارتباك :

ـ عيب يا سيدى ..

رنت نبراتها النحاسية في الصمت رنينا ازعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها ـ فيما بدا ـ لا يتأتى لها الهمس أو ان من طبع همسها الرنين ولو في اخفض درجاته ، على انه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية ولخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ـ تعالى يا حلوة ..

فسلست ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفى نشوة السرور جعل يقول :

ـ ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أى احتجاج :

ـ عيب يا سيدى ..

فقال وهو يبتسم :

ـ ما أرق ممانعتك ، زيدينى منها ..

ولكنها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ـ عيب ياسيدى .. (ثم كالمحذرة) .. الحجرة ملأى بالبق..

فدفعها وهو يهمس في قفاها :

ـ أنام على العقارب من اجلك يا نور ..

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لا دور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم اعاد اصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها أن تجلس فرددت قولها « عيب يا سيدى » الذى بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث أن وجد لذة جديدة في ترددها بين السلبية والاذعان فجد فيطلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعانالفعلى فنسى الزمن . ثم خيل اليه أن الظلام من حوله يتحرك أو ان مخلوقات غريبة في طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث ان كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدرى كم لبث ، أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة في رأسه تولد من ارتطامها في بصره انوار وهمية ، ولكن مهلا ، ان جدران الحجرة تتماوج . ناضحة

بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الأسرار ، ورفع راسه محملقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه في الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

ـ نمت يا نور ؟!.. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفة يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكيبها ، ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باك :

ـ أنت السبب يا سيدى ، ماذا افعل الآن ..؟!

فلكزها في كتفها بقسوة حتى امسكت ، وحدق في الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ـ بدافع لا شعورى ـ الى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد في موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب ، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف :

ـ نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا أن تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين :

ـ نعم يا ستى ..

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

ـ ما أسرع ان تنامى يا شيخة !.. الم ترى سى ياسين ؟.. سيدى الكبير أرسل في طلبه فبحثت عنه في الدور التحتانى والفناء وها أنا لا اجده فوق السطح ، هل رأيته ..؟

وما اتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب ، ثم بحركة فزيزية التفتت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق

بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزى والهوان ، التقت عيناهما لحظة قبل أن يغض بصره ، ومرت لحظة أخرى في صمت قاتل ، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

— يا فضيحتك السوداء .. انت !.. انت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « انفضحت وما كان كان » ولبث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه فغادر الحجرة الى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزه . لم يدر ماذا يصنع ولا الى أى مدى تذاع الفضيحة ، أتنحصر في شقته أم تنتقل الى الشقة الأخرى ؟.. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود ، ثم تساءل وهو في أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟.. هل يسعفه الحزم هنا أيضا ؟. ربما لو لم يتسرب نبأها الى أبيه . وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة ، ثم هرولت نحو باب السطح ومرقت منه ، هز كتفيه استهانة ، وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك انه نسى أن يرتدى الفانلة فعاد الى الحجرة مسرعا ..

— ٥٨ —

في الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابل السيد احمد واخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بابلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الإنجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين

وان عليه ان يفتح دكانه ، وعلى التلميذ ان يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ، وحذره من حجز التلاميذ ان يظنوا من المضربين لافتا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب، بذلك استرد البيت نشاطه الذى يستقبل به الصباح ، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام . قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن اما داخله فهى طين ووحل »، اجل قضت اكثرية اهل البيت ليلة نكراء احاطت بها الفضيحة ومزق اوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذى تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها ان يصمد للمنظر المروع الذى راته عيناها في حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدا ان يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا .. وكانت الفضيحة . قصت عليه كل شيء متشجعة بانفعالها الجنونى الذى لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال احد من الناس . انتقمت بذلك لكرامتها الذبيحة ، وللصبر الطويل الذى تجرعته حينا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحايين : « جارية ! خادمة ! في سن امه ! وفي بيتى ! ماذا عساه يفعل في الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكى غيرة ، او لعل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على ان تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ماكان ، اجل هجرت مخدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال ، يقظى اكثره تهذى هذيان المحمومين ونائمة اقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا . اصبحت وهى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حميها نفسه ان يفعل ؟.. لن يستطيع ان يمنع المنكر بعد ان وقع ، ولن يسعه

مهما يكن جبروته ان ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها ، اقصى مايراه ان يزجره ، ان يصب عليه غضبه ، وسينصت ــ الفاسق ــ خافض الراس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة !.. هيهات . لقد رجاها السيد ان تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر او العفو . جارية سوداء فوق الأربعين !.. كلا . ستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستفضى الى ابيها ببثها كله ، وستبقى في كنفه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه او فلتذهب هذه الحياة كلها ــ بخيرها وبشرها ــ الى الشيطان . اخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق انه غلبها الجزع من بادىء الأمر فبثت همها الى امها ، ولكن الام اثبتت انها امراة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب الى الأب ، واوصت ابنتها بالصبر قائلة ان جميع الرجال يسهرون ــ كوالدها مثلا ــ وانهم ايضا يشربون ، وانه حسبها ان بيتها عامر بالخير ، وان زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . اصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها ايما اجهاد متجملة بالصبر ولم تال ان تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من احلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين في بطنها مبشرا بالأمومة المرموقة . ربما كمن التذمر في اعماقها بيد انها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمها تارة وطورا بامراة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عما يمكن ان يفعل زوجها في سهراته الخمرية ، وحدث ان افضت الى امها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه . ولكن الأم الحكيمة افهمتها ان ذلك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع في خاطرها ، انه « شيء طبيعي » وان الرجال جميعا لديه سواء ، وانها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها تجارب العمر ..

على انه حتى لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟.. هل ترضى بهجر بيتها لأن زوجها يلم بغيرها من النساء ؟.. كلا ، والف مرة كلا ، لو تخلت كل امراة عن مكانها لسبب كهذا لاقفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امراة او اخرى ولكنه يعود دائما الى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن في ازواجهن اخريات، اليس طيش زوجها ــ ان صح ــ خطبا اخف من سلوك اولئك ؟!. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصيره ان يعقل فيثوب الى بيته ويشغل بذريته عن الدنيا جميعا ، ومعنى هذا انه ينبغى لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟! رددت المراة هذا ، وغيره مما يجرى مجراه ، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد ان واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ..

ومع ان السيد لم يفطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا ان غضبته كانت اشد من ان تمر بسلام ، وقد احسنت الجارية صنعا بفرارها . اما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعجا في العاصفة التى تتربص به ، حتى ترامى الى اذنيه صوت ابيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائسا في مكانه ، وما يدرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدما لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثب منه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه راسا متصلبا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما اراد بصمته ان يعبر له عما يجد نحوه مما يعيى الألفاظ حمله ، او انه اراد ان يرمز به الى ماكان يود ان يؤدبه به من مبرح الركل

واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع
الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا
« انت تتحداني تحت سمعي وبصري !.. فلتذهب انت وخزيك
الى جهنم .. دنست بيتي يا وغد ، هيهات ان يتطهر هذا البيت
ما دمت فيه .. كان لك قبل الزواج عذر واه فأي عذر لك الآن؟!»
.. « لو اصاب كلامي حيوانا لأدبه ولكنه ينصب على حجر .. ان
بيتا يضمك خليق بأن تستنزل عليه اللعنات» .. نفس عن صدره
المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن
صامت خافض الراس كأنه يوشك ان يذوب في الظلام ، حتى اجهد
الرجل الزعق فولاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن اباه وامه،
ومضى الى حجرته يفور بالغضب فورا . في ثورة الغضب راى زلة
ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر ان
ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين ، وانه لايزال دائبا
على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب ابناؤه فصار
منهم الأزواج والزوجات . لا لأنه في ثورة الغضب ينسى حقا ، ولكن
لأنه يحل لنفسه ما لا يحل لأحد من ذويه ، له ان يفعل ما يشاء
وعليهم التزام الحدود التي يريدهم على ان يلتزموها فلعل غضبه
على مافي ذنب ياسين من «تحد» لارادته و « استهانة » بوجوده
و «تشويه» للصورة التي يحب ان يتصوره بها ابناءه ،كان اضعاف
غضبه على الذنب نفسه ، على ان غضبه ــ كما هي عادته ــ لم
يستمر طويلا ، ما لبث ان خبا لظاه وخمد توقده فعاوده الهدوء
رويدا وان شاب مظهره ــ مظهره فقط ــ الوجوم والأسى ، عند
ذاك امكنه ان ينظر الى «جريمة» ياسين من اكثر من زاوية واحدة،
امكنه ان يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى
ساخرة تسلي بها عن وحدته الاضطرارية . اول ما ابتدر ذهنه ان
يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا في التسامح فانه يكره التسامح في
بيته ، ولكن ليتخذ من ذلك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن

ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان ابنى لم يشق عصا الطاعة ..
هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » .. ولكن هل يلتمس له العذر
عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟.. كلا .. ان الشباب
عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز لفهمي
بل لكمال ان يتماديا في استهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند
رجولته ، هذه الرجولة التى تحل له ان يستقل بنفسه عن ارادته
ولو شيئا ما وتعفيه هو ــ السيد ــ من تحمل مسئولية فعاله ،
كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتي ، هيهات ؛ ولكنه
بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتي » .. وغنى
عن القول انه يأبى ان يعترف امامه بهذا الحق ولن يعفو عنه ولو
تجاسر على المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيما بينه وبين
نفسه الا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبررا للخروج على
ارادته ، ولم ينس حتى في تلك الحال ان يذكر نفسه ــ التماسا
للمزيد من الطمأنينة ــ بأنه ادبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه
من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الأبناء ..
وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها اى عطف ،
لقد واساها اكراما لأبيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن ان الفتاة
جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة ان تفضح زوجها
ــ مهما تكن الظروف ــ على النحو الذى فضحت به ياسين !..
لشد ما اعولت !.. لشد ما صرخت !.. ماذا كان يصنع هو
ــ السيد ــ لو ان امينة فجأته يوما بمثل هذا التصرف ؟!..
ولكن اين هى من امينة ؟!.. ثم كيف قصت عليه ما رات دون
حياء !.. اف ! اف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق
لياسين ان يؤدبها بل لما رضي هو ان تمر هذه الواقعة دون عقاب
زاجر ، لقد اخطأ ياسين ولكنها اخطأت خطأ اكبر . ثم عاد الى
ياسين سريعا فراح يفكر ــ بباطن مبتسم ــ في الطبيعة الواحدة
التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن

يدرى لعلها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل الا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى سمعه صوت كمال وهو يغني « يا طير يا للي على الشجر» !؟.. تأخر لحظتذاك وراء الباب ــ لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب ــ ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن اليه احد ،كم يلذه ان يرى نفسه مترعرعة من جديد في حياة ابنائه على الأقل في ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا .. ان لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، او انه لاتجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعي المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان اعمى .. ينقض مرة على ام حنفي ويضبط اخرى مع نور ، يتمرغ في التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! اجل انه يدرك مقدار الضيق الذى الم بياسين لاضطراره الى قضاء الليلة في شبه سجن، يدرك لأنه كابده هو ايضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه في بستان السطح ــ كما فعل الفتى ــ فصادف جارية ــ ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه ــ اكان يقدم على المغامرة ؟.. كلا . مؤكد كلا ، ولكن اى وازع كان يشكمه ؟.. لعله المكان ؟ الأسرة ! ولعله العمر الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه ، وخيل اليه انه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معا !.. مهما يكن من امر فالطبيعتان مختلفتان ، لم يكن السيد ــ كابنه ــ مغرما بالمراة بلا قيد ولا شرط ، امتازت شهوته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة . كان مغرما بالجمال الأنثوى في لحمه وتبختره واناقته ، فلم تخل جليلة او زبيدة او مريم وعشرات غيرهن من ميزة او اكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا

بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن الى هواه فتهيىء له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورود والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك في هالاته الاجتماعية اللألاءة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ويلذ له ان ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من احوال توجب التستر والكتمان كحال ام مريم ، على ان هذا الحب «الاجتماعي» لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال ، فالجمال والصيت ــ في هذا المجال ــ يسيران جنبا لجنب كالشيء وظله ، وغالبا مايكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق اشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ماجعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « ام حنفي ! .. نور !.. يا له من حيوان» انه برىء من هذا الشذوذ بيد انه ليس في حاجة الى ان يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المراة التى انجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته اما هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الحضيض. وقد عاوده في الصباح التفكير « الجدى » في المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كي يصفي ما بينهما ــ وما بينه وبين كليهما ــ من حساب ، ولكن ارجأ ذلك الى متسع من الوقت انسب من الصباح ، ولما ساءل فهمي ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة اجابه مقتضبا « شيء تافه سوف احدثك عنه فيما بعد » وظل فهمي جاهلا سر غضب ابيه على اخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كله . شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين ان يرفعوا بصرا صوب الجنود والأم من وراء خصاص المشربية تدعو الله ان يقيهم من كل سوء . ولم تشأ امينة ان تقحم



نفسها في «واقعة» السطح فنزلت الىحجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر ان تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا اثار استياءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امراة قط ؟.. »

لا ريب ان ياسين قد اخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه اخطأ في حق ابيه وحرمته لا في حقها هي .. الست ملاكا بالقياس الى هــذه الفتاة ؟!.. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية. فصعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على اثر ، ومضت من حجرة الى حجرة وهى تنادى حتى فتشت البيت ركنا كنا ، ثم ضربت كفا بكف وهى تقول : رباه .. هل ارتضت زينب ان تهجر بيتها ؟!.. »

- ٥٩ -

لم تنج امينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعرض الجنود لأحد من رجالها في ذهابه او ايابه لم يكد يفارق راسها. وكان فهمى اول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها راته متجهما فسألته :

ـ ماذا بك يا بنى ؟

فهتف فهمى متأففا :

ـ اكره ان ارى هؤلاء الجنود ..

فقالت المراة باشفاق :

ـ لا تبد لهم الكراهية ، ان كنت تحبنى لا تفعل ..

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على ان يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى ان ينحرف

بصره الى أحدهم ، ومضى الى البيت متسائلا فى سخريه عما كانوا يفعلونه لو انهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم فى شبه معركه ، او انه وزع فى مطلع اليوم عشرات المنشورات التى تحرض على قتالهم . جلس يستعرض مالاقاه فى يومه مستحضرا أقله مما وقع وأكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا كان رأيه ان يعمل نهارا وان يحلم مساء . تحدوه فى الحالين اسمى العواطف وأفظعها ، حب قومه من ناحيه والرغبه فى التقتيل والابادة من ناحية أخرى ، أحلام يسكر بها وقتا يطول او يقصر ثم يفيق منها على حسره لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها . أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه ، هزيمة الانجليز . خطبة خالدة فى ميدان الأوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر . عودة سعد من المنفى ظافرا ، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم . مريم بين شهود الافتتاح التاريخى ، أجل كانت أحلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها ـ طوال تلك الأيام ـ فى ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب أبان العاصفة . وما يدرى الا وأمه تقول له وهى تشد المنديل حول رأسها فى ارتباك :

ـ ذهبت زينب الى بيت أبيها غضبانة ..

آه .. كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته فى الصباح ، الآن تأكد اليه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى أمه حياء أن تقرأ ما يدور بخلده خصوصا وأنه أيقن باطلاعها على جلية الأمر ، ولم يستبعد أن تفطن الى ادراكه له أو فى الأقل أن ترجحه ، فلم يدر ما يقول لا سيما أنه لم يعتد فى محادثتها ان يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، فقنع بأن يتمتم قائلا :

ـ ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس أمينة بكلمة كان اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جمله اخبارية واخرى دعائية فى معالجته ، وما لبث فهمى أن دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ أدرك أن أمه تكابد مثل شعوره وانها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه أحيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الاقنعة ، على أن ارتباكهما لم يطل فما هى الا دقائق حتى رايا ياسين مقبلا نحوهما . خيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد فى البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيرا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة ان ياسين غلبه شعور باهر بانه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته الى حين جل متاعبه . كان فى طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كأنما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به أو فى الأقل اهانة جارحة على مرأى من أصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندى كأنما يستأذنه فى المرور :

ــ من فضلك يا سيدى ..

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يبتسم ــ اجل يبتسم ــ فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه أن يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن يتصور أن جنديا انجليزيا يبتسم على هذا النحو، أو اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر ــ أن يبتسم له أحدهم فيما يشبه الأدب ، فاستخفه سرور أربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندى العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقد بادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندى مادا له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

ــ أشكرك ..

لم يكن أفاق من أثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملأه الامتنان والزهــو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت أساريره وكأن عبارة « ثانك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا أنها ضمنت له أن يذهب ويجىء أمام المعسكر آمنا ، وما كاد الرجل يبدى أول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من أعماق فؤاده :

ــ حظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمترنح من الفرح . اى حظ سعيد ظفر به هو !.. انجليزى ــ لا استرالى ولا هندى ــ وابتسم له وشكره!. انجليزى اى رجل يتمثل فى خياله كأنموذج لكمال الجنس البشرى ، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا انه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره ..! وقد اجابة اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا أستحق عليه الشكر ... كيف يصدق ما ينسب اليهم من الأعمال الوحشية !!. لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله ؟! غير ان حماسه فتر بمجرد أن وقع بصره على الست أمينة وفهمى واستطاع ان يقرأ نظرتهما ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى أنه يواجه مرة اخرى المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

ــ لماذا لا تجلس معكما ؟.. الا تزال غضبانة ؟

فتبادلت أمينة مع فهمى نظرة ثم تمتمت بارتباك :

ــ ذهبت الى ابيها ..

فرفع حاجبيه دهشة أو انزعاجا ثم سألها :

ــ لماذا تركتها تذهب .. ؟

فقالت امينة وهى تتنهد :

ــ تسللت دون أن يشعر بها أحد ..

شعر بأنه يجب أن يقول قولا يرضى كرامته أمام أخيه وأمه فقال باستهانة :

ــ الى حيث ..

وقرر فهمى أن يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم أخاه بأنه لم يطلع على سره وبالتالى أن ينفى شبهة اذاعته هذا السر عن امه فسأله ببساطة :

ــ ما الذى دعى الى هذا النكد .. ؟ !

فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كأنما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال

ــ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .

ثم ناظرا الى ست أمينة :

ــ أين هن ستات الأمس .. ! ؟

نكست أمينة رأسها حياء فى الظاهر ، وفى الحق لتدارى ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الآن ، صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه ، والصورة التى ضبط بها مساء أمس فوق السطح ، على أن انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذى سمح له الموقف بأن يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته الزوجية لم يفكر لحظة فى قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذا مستقرا ورعاية الى ما بشرت به من أبوة وشيكة رحب بها أيما ترحيب ، تمنى دائما أن تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية العام الى وطنه ، ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه ثم بينه وبين السيد عفت، الى ما يلابس هذا كله من فضيحة ستفوح رائحتها حتى تزكم الأنوف .. بنت الكلب ! .. لشد ما كان مصمما على أن يستدرجها

الى الاعتراف بأنها أخطأت خطأ أكبر من خطئه ، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فأقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت .. قلبت خططه رأسا على عقب .. وضعته فى مأزق غير يسير . بنت الكلب !.. وانتزع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمى وامه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة انه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت أعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه : أنعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت أمينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمى :

ــ انه قريب .. لعله فى طريق بيتنا ..

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :

ــ ألا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق ..؟

وهرع الى المشربية والآخران فى أثره ، بيد أن الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن احاط بها من المارة واصحاب الحوانيت ، على انهم عرفوها لأول وهلة وهتفوا معا :

ــ أم حنفى ...

وتساءلت أمينة التى كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة:

ــ مالى لا أرى كمال معها ؟!. وماذا يوقفها هكذا كالجماد.!

ــ كمال .. رباه .. اين كمال ..؟

ثم مدفوعة بشعور غريزى ؟!

ــ هى التى كانت تصرخ .. عرفت الآن صوتها .. أين كمال ؟. أغيثونى ...

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة ، استغرقهما تفحص الطريق

عامة والمعسكر الانجليزى خاصة حيث رأوا أنظار المتجمعين ـ وفى مقدمتهم أم حنفى ـ تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى ان أم حنفى هى التىصرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبداهة بأنها كانت تستغيث لأن ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفهـا فى الانجليز ، ولكن أى خطر هو ؟ .. وأين كمال ؟.. ماذا حـدث للغلام ؟.. ان الأم لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة الى من يسكن خاطرهما .. أين كمال ؟.. ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشأنه كأن شيئا لم يقع وكأن أحدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمى فى كتفه :

ـ الا ترى هـؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين . أن كمال يقف بينهم . انظر ...

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة :

ـ كمال بين الجنود .. ها هو يا ربى .. رباه .. اغيثونى .

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الأذرع ، وقد مرت عينا فهمى اكثر من مرة دون أن تعثرا على ضالتهما ، فى هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل اليه انهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه ، انساه خوفه على اخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ـ سأذهب اليه مهما تكن العواقب ..

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصـوت حازم « قف » .. ثم خاطب الأم بصوت هادىء باسم قائلا :

ـ لا تخافى .. لو انهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما ترددوا .. انظرى اليه الا يبدو منهمكا فى حديث طويل ؟!. ثم ما هذا الشىء الأحمر الذى بيده ؟!.. أراهن على أنها قطعة من الشيكولاتة !..

هدئى روعك .. انهم يتسلون به و « متنهدا » شد ما أفزعنا على لا شىء .

سكن روع ياسين ، وما لبث ان تذكر مغامرته السعيدة مع الجندى فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ، ثم رأى أن يدعم قوله ويثبته فى فؤاد الأم الملتاع فأشـار الى أم حنفى التى لم تزل فى موقفها قائلا :

ـ الا تريان أن أم حنفى لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعيا له . هاهم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة ..

فغمغمت أمينة بصوت مرتعش :

ـ لن يطمئن قلبى حتى يعود الى ..

وتركزت أعينهم فى الغلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة واخرى، غير أن الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا الى عدول كمال عن التفكير فى الهرب ، فبدا الغلام بكامل هيئته ، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه واشارات يديه التى استعان بها على الافصاح عن أفكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟.. هذا ما لم يستطع احد أن يخمنه ، بيد أنهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الأم نفسها استطاعت أخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

ـ الظاهر أننا غالينا فى التشاؤم حينما ظننا أن احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى .

ومع أن فهمى بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا انه لم يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحول عيناه عن الغلام :

ـ ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال .. لا تغل فى تفاؤلك ..

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامراته السعيدة ، ولكنه أدرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثارة أخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

ــ ربنا يخلصنا منهم على خير ..

وتساءلت امينة فى لهفة :

ــ الم يئن لهم أن يدعوه مشكورين ..؟

ولكن بدا عن دائرة كمال أن ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبى فوضعه أمام كمال ، وما لبث الغلام ان وثب الى الكرسى فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله ــ دون شعور منه فى الغالب ــ كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز .. ما خطبه ؟.. ماذا وراء هذه الوقفة ؟.. لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عـــزيز عينى   بدى أروح بلدى

يا عـــزيز عينى   السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون اليه فاغرى الأفواه ضاحكى الأسارير تلاحق أكفهم ترديده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الأغنية فراح يهتف « أروح بلدى .. أروح بلدى » .. فتشجع كمال بما حظى من سرور سامعيه وأقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلى من صوته ، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . أجل شاركت الأسرة فى الاستحسان بعد أن شاركت ــ بقلوبها أيضا ــ فى الغناء ، تتبعنوه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل او النشاز كأنما يغنى بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته ، وكأن كرامتهم

ــ افرادا ومجموعة ــ امست متعلقة بنجاح الغناء ، نسيت أمينة فى لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمى لم يكن يفكر فى اثناء ذلك الا فى الغناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الأعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل أن يطرأ طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الأرض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الأسرة من المشربية الى الصالة لتكون فى استقباله . أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطلق عيناه وأساريره وحركات أعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والفوز ، أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه الا أن يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيهـا ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه .. ولكن الفرح أعماه فهتف بهم :

ــ عندى خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه ..

فقهقه ياسين متسائلا فى سخرية :

ــ أى خبر يا عزيز عينى ؟!

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شعشع فجأة فى الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصـة ادهاشهم بحديثه العجيب فأغرق فى الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

ــ أرأيتمونى حقا ..؟!

عند ذاك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بنبرات متشكية :

ــ كان الأفضل أن يروا تعاستى !.. علام هذا الفرح كله بعد أن سيبت مفاصلى ؟ .. حادثة أخرى كهذه والله يرحمنى .

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كركيبة فحم منتفخة ، يعلو

وجهها الشحوب والاعيـاء وتلوح فى عينيها نظرة استسـلام غريبة .. فسـاءلتها امينة :

ـ ماذا حدث ؟.. ماذا دعاك الى الصراخ ؟.. لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئا مفزعا ..

فأسندت أم حنفى ظهرها الى ضلفة الباب واخذت تقول :

ـ حدث ما لن أنساه يا ستى .. كنا عائدين واذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير الى سيدى كمال ليذهب اليه ففزع سيدى وجرى الى درب قرمز . ولكن جنديا آخر اعترض سبيله فانحرف الى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبى من الخوف وجعلت استغيث بأعلى صوتى وعيناى لا تفارقانه وهو يجرى من جندى الى جندى حتى أحاطوا به .. كدت أموت من شدة الخوف وزاغ بصرى فلم أعد أرى شيئا ، وما ادرى الا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم أكف عن الصراخ حتى قال لى عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام .. وحدى الله .. انهم يلاطفونه .. » .. آه يا ستى لقد حضرنا سـيدنا الحسين ودفع عنا الشر ...

قال كمال معترضا :

ـ لم أصرخ أبدا ..

فضربت أم حنفى صدرها بكفها قائلة :

ـ لقد ثقب صراخك اذنى حتى جننتنى ..

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

ـ ظننتهم يريدون قتلى ، ولكن احدهم جعـل يصفر لى ويربت على كتفى ثم أعطانى (وهنا جس جيبه) شيكولاتة فذهب عنى الخوف ..

زايل أمينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التى يجب الا تغيب عنها هى أن الفزع ركب كمال دقائق ، وانه يجب أن تدعو ربها طويلا كى ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى فى

الفزع مجرد شعور عابر ، كلا .. انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تأوى اليها العفاريت كما تأوى الخفافيش الى الظلام، فاذا أحاط بشخص ـ خصوصا الصغار ـ مسه بضر سيىء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا ، قالت بحزن :

ـ أفزعوك ! .. قاتلهم الله ..

وقرأ ياسين ما يدور فى خاطرها .. فقال مداعبا :

ـ الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع .. (ومخاطبا كمال) .. هل دار الحديث بالعربى ؟

رحب كمال بالسؤال لأنه فتح له مرة اخرى ابواب الخيال والمغامرة ، منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت أساريره انبساطها :

ـ كلمونى بعربى غريب ! .. ليتك سمعته بنفسك ..

وراح يحاكى طريقتهم فى الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى امه ابتسمت ... فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه :

ـ ماذا قالوا لك ؟

ـ كلاما كثيرا ! .. ما اسمك اين بيتك ، اتحب الانجليز ؟!

فهمى ساخرا :

ـ وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟ !

فرمق أخاه كالمتردد .. ولكن ياسين أجاب عنه قائلا :

ـ طبعا قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد أن يقول .. ؟

على أن كمال استطرد يقول متحمسا :

ـ ولكنى قلت لهم ايضا أن يعيدوا سعد باشا .

فلم يتمالك فهمى أن ضحك عاليا .. وسأله :

ـ حقا ! .. وماذا قالوا لك ؟

فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك اخيه :

ـ امسك احدهم باذنى وقال لى « سعد باشا نو .. »

فعاد ياسين يتساءل :

ــ وماذا قالوا لك أيضا ؟

فقال كمال ببراءة :

ــ سألونى .. الا يوجد بنات فى بيتنا .. ؟

فتبودلت نظرة جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمى باهتمام :

ــ وماذا قلت لهم ؟

ــ قلت لهم ان أبلة عائشة وأبلة خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى نينة فقلت ! ....

رمى فهمى أخاه ياسين بنظرة كأنما يقول : « أرأيت كيف ان سوء ظنى فى محله ! » .. ثم ساخرا :

ــ لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله ..

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :

ــ ليس ثمة ما يدعو الى القلق ..

وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال :

ــ وكيف دعوك الى الغناء ؟

فقال كمال ضاحكا :

ــ فى أثناء الحديث انطلق احدهم يغنى بصوت منخفض ، فاستأذنتهم فى أن أسمعهم صوتى .. !

فقهقه ياسين قائلا :

ــ يا لك من فتى جرىء ! .. الم يعاودك الخوف وانت بين أرجلهم ؟ ...

فقال كمال فى مباهاة :

ــ أبدا .. (ثم بتأثر) .. ما أجملهم !.. لم ار أجمل منهم من قبل . عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم أبلة عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعد زغلول ثبتت فى الجدار الى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

ــ انهم أجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمى رأسه كالآسف وقال :

ــ يا لك من خائن .. ! اشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت أم حنفى قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن .. وأخذت أمينة تهيىء القهوة للجلسة التقليدية ، عاد كل شىء الى أصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة ، على حين انتحى كمال جانبا واخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا أن تعنيف فهمى ضاع فى الهواء اذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

ــ ٦٠ ــ

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد . وما يدرى السيد أحمد الا ومحمد عفت قادم عليه فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل ان يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

ــ يا سيد أحمد .. جئتك برجاء ، يجب ان تطلق زينب اليوم قبل الغد ان أمكن ..

بهت السيد ، أجل قد ساءه سلوك ياسين أكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور ان يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة

بالطلاق . لم يتصور ان تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال أن تجىء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدا ، فخيل اليه ان الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، وأبى أن يصدق أن محدثه جاد فى طلبه فقال بلهجته اللطيفة التى طالما استأسرت قلوب أصدقائه :

— ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفنى بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الى .. باسم صداقتنا أمنعك من أن تجرى للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس فى وجهه ليسبر أثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدا يستشعر الخطورة والتشاؤم .. دعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة . عنيد شديد المراس اذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته أسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

— وحد الله .. ولنتحدث فى هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذى توهج به خداه :

— صداقتنا فى حرز ، فلندعها جانبا .. ابنك ياسين لايعاشر، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شىء ، كم تصبرت المسكينة !.. حضنت همومها طويلا ، أخفت عنى كل شىء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، أهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل ؟ ! .. أن تضبطه فى بيتها مع خادمتها ! (وبصق على الأرض) .. جارية سوداء ! .. بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، انت اعرف الناس بمنزلتها عندى ، كلا .. ورب السموات ، لا كنت محمد عفت اذا سكت على هذا ..

قضة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله ان ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا » !.. أعرف طريق الحانة أيضا ؟ ! .. متى ؟.. كيف !.. آه ليس فى الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج ، ليخفف انفعاله كله . الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس ، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر .. قال بنبرات أسيفة :

— ان ما يحزنك يحزننى أضعافا ، ومن سوء الحظ أن سوأة من السوءات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال ، اللهم الا الحادثة الأخيرة وقد أدبته عليها تأديبا لا يستبيحه لنفسه أب غيرى ، ما عسى أن أصنع ؟ .. لقد أخذته بالتأديب العنيف مذ كان صبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر الى المكتب :

— لم أجىء لأوجه اليك لوما أو أحملك تقصيرا ، أنت كأب مثال يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهى أن ياسين كان غير ما أردت له أن يكون ، وانه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد فى عتاب :

— رويدك يا سيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رايه :

— على أى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على علاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهذا .. انت أدرى الناس بمنزلتها عندى ..

ادنى السيد راسه من راس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما يدارى ابتسامة :

— ليس ياسين بين الأزواج بنادرة ، فكم منهم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة .. وقال بجفاء :

ــ ان كنت تشير الى جماعتنا أو الى أنا خاصة ، فالحق انى اسكر واعربد واعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! .. جارية سوداء ! .. أهذه التى قضى على ابنتى بأن تتخذها ضرة ؟!.. كلا .. كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

ادرك السيد أحمد ان محمد عفت ــ ربما كابنته سواء بسواء ــ مستعد لأن يعفو عن امور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل . ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد قال له ، « اصيلة بنت اصيل ، محمد اخونا وحبيبنا ، ابنته ابنتنا ، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس أبيها .. هل فكرت فى أن محمد عفت لا يتسامح من ذرة غبار اذا مست لها ظفرا ؟ ! » .. لكنه رغم هذا كله تعذر عليه أن يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بأن محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

ــ رويدك ، الا ترى أن مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟ . جارية سوداء أو عالمة .. أليست كلتاهما امراة . ؟ !

فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائلا :

ــ أنت لا تعنى ما تقول !.. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا لا تعشق الخادمات اذن ؟!. لم يشابه ياسين اباه ، انى آسف لكون ابنتى حبلى ، كم اكره أن يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة .. !

وخزته الجملة الأخيرة فغضب ، ولكنه استطاع أن يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به أصدقاءه وأحبابه ، حلم بين الاصدقاء لا يعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

ــ أقترح عليك ان نؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

ــ أرجو أن تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحية أخرى . أليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليصل ما انقطع من المودات والزيجات ؟!.. فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟ ! .. أين حلمه ؟.. أين كياسته ؟ .. أين لباقته ؟

ــ لقد أصهرت اليك لأوثق أسباب الصداقة بيننا .. فكيف اقبل أن أعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

ــ صداقتنا فى حرز ! .. لسنا اطفالا ، ولكن كرامتى لا يمكن ان تمس ..

فقال السيد برقة :

ــ ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الاول ؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

ــ لن يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة أخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكأن استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطى استياءه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء

يستوهبه اياه باسم الصداقة التى لا شفيع له غيرها ، فاذا قال فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا أو كرها .. ولكن تمسى الصداقة القديمة فى خبر كان ، أما اذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من العسير أن يتذرع بكل أولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق وان يكن هزيمة الا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما أن اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض الشىء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على ما فرط فى حقه .. فقال بلهجة ذات معنى :

— لن يكون طلاق الا بموافقتى .. أليس كذلك ؟ .. بيد أننى لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التى لم ترع لها حقا فى مخاطبتى ..

فتنهد محمد عفت .. اما ارتياحا للنهاية المنشودة أو احتجاجا على عتاب صديقه أو للاثنين معا . ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

— قلت ألف مرة ان صداقتنا فى حرز ..! انك لم تسىء الى قط ، على العكس من ذلك فانك تكرمنى بتحقيق رجائى وان كرهته ..

فردد السيد قوله محزونا :

— نعم .. وان كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل : ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة فى حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ .. آه ، لم يكن ليضن بنفيس فى سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية .. لكنه العناد التركى ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره .. قال له بغضب وازدراء :

— كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له ..

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :

— خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك .. ثم انجلى تعبى كله عن ماذا ؟.. سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات فى بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ما كنت أتصور أن يخرج من حضانتى أبن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى أن أصنع بك ؟.. لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها انت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الأسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان .. !

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل فى القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبح جماح امرأة ، ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التى لم ينج هو نفسه من هوانها من جزاء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، اما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، انى أفعل ما أشاء ولكنى أظل السيد احمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التى ألهمتنى ان أنشىء الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لمما يشق ان ينهجوا نهجى ويحظوا فى نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن وا أسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية !

— وهل وافقت يا أبى .. ؟

تردد صوت ياسين كالحشرجة .. فأجابه بخشونة قائلا :

— نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولأنه أوفق حل فى الوقت الحاضر على الأقل .

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط فى حركة آلية عصبية ،

كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعر بهوان لم يشعر بمثله الا فيما كابد من سلوك أمه ، حموه يطالب بالطلاق !.. أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقل توافق عليه !.. أيهما الرجل وأيتهما المرأة ؟! ليس عجيبا أن ينبذ الانسان حذاء أما أن ينبذ حذاء صاحبه !!. كيف رضى أبوه له بهذا الخزى الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟!.. حدج أباه بنظرة حادة وأن عكست ما يعتلج فى صدره من انات الاستغاثة ، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على ان ينقيها من أى أثر للاحتجاج أو الاعتراض ، كأنما يريد بها أن يذكره بما عسى أن يكون أنسب :

ـ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فأدركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور فى نفسه .. فقال له :

ـ أعلم ذلك .. ولكنى اخترت أن تكون من الكرماء ، محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست الأخيرة ، ليست النهاية ، لم أغفل مصلحتك وان كنت لا تستأهل خيرا ، دعنى أتصرف كما أشاء ..

كما تشاء !.. منذا يرد لك مشيئة ؟!. تزوجنى وتطلقنى .. تحيينى وتميتنى ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمى ياسين .. الكل واحد ، الكل لاشىء ، انت كل شىء .. كلا .. لكل شىء حد ، لم أعد طفلا ، رجلا مثلك سواء بسواء ، أنا الذى أقرر مصيرى ، أطلق أو أودعها بيت الطاعة ، تراب حذائى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ..

ـ مالك لا تتكلم ؟ ..

فقال دون تردد :

ـ أمرك يا أبى ..

أى عيشة وأى بيت وأى اب ، زجر وتأديب ونصائح ، ازجر

نفسك .. أدب نفسك .. انصح نفسك ، أنسيت زبيدة ؟ .. وجليلة ؟ . والغناء والشراب ؟ . ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام وسيف أمير المؤمنين ، لم أعد طفلا ، اعتن بالقصر ودعنى وشأنى، تزوج .. أمرك يافندم .. طلق .. أمرك يافندم .. ملعون أبوك .

- ٦١ -

خفت حدة المظاهرات شيئا ما فى حى الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فأمكن للسيد احمد ان يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين ، أمكنه أن يصطحب أبناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة .. عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التى لا ترتاح الى تحرك القافلة فى نهاية كل أسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها انهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما أن أفضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا ، بيد أنه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التى نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر » .

وكان فهمى يلبى دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر ، مطيعا فى ذلك ـ قبل ارادة أبيه ـ عاطفة دينية صادقة ، تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه .. لذلك

كان الوحيد فى الأسرة الذى يقف من ايمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك ، وان أبت عليه دماثة خلقه ان يجهر بتشككه أو يعلن استهانته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولى عبد الصمد الذى يجىء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهرى . أما ياسين فكان يلبى دعوة ابيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد ، لعله لو ترك لشأنه ما فكر يوما فى أن يدس جسمه الضخم فى زحمة المصلين ، لا عن تزعزع فى العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا .. لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته فى شىء من التذمر ، ثم يسير وراء ابيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره رويدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدى الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق فى أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا فى اللذات التى يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى . كان يعلم علم اليقين ان التوبة واجبة ، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها ، ولكنه كان يرجو أن تجىء فى الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين ، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد فى النهاية الظروف التى تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن — عند الحساب — أن تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من أوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدى غيرها فريضة ..

اما كمال فلم توجه اليه الدعوة الا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها فى زهو وخيلاء وفرح ، شعر شعورا غامضا بانها تتضمن اعترافا بشخصه ، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وابيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص أن يسير فى ركاب ابيه آمنا اى دون ان يتوقع من ناحيته شرا ، وأن يقف فى الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام

واحد ، بيد انه كان يستغرق فى صلاته اليومية — فى البيت — إستغراقا لا يظفر بمثله فى صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من إرتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر ، ولاشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس أبيه ، الى أن شدة شعوره بالحسين — الذى يحبه أكثر من نفسه — وهو فى مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغى للمصلى ..

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يحثثون الخطى الى بيت القاضى ، السيد فى المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهم فى الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبة الى المنبر فى صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطنى ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ احق بالرحمة ، فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا .. على أن الخطبة جبهته بمعاصيه ، أخلت ما بينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان النافذ حتى خيل اليه انه يعنيه بالذات . وانه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا : « يا أحمد ازدجر .. تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فألم به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه — كابنه ياسين — لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان معا فى أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم يتصور ان يرى الحياة بغير العين التى يراها بها ولا ان تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به ، فاذا الح عليه القلق

والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقى دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك اعلم بقلبي وايماني وجبي ، اللهم زدني استمساكا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير ، اللهم ان الحسنة بعشر أمثالها ، اللهم انك انت الغفور الرحيم » .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا .

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق او انه لم يشعر قط بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة . قرعت اذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطني سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية ، ان الله أرحم من ان يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذي احدا من عباده ، ثم هنالك التوبة ! .. ستأتي « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة الى أبيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادي الى الخطبة ؟.. أهو يعاني العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع ؟ .. كلا .. لا هذا ولا ذاك .. انه مثله — ياسين — يؤمن برحمة الله الواسعة ، لو أن الأمر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار ابوه احدى السبيلين ، استرق اليه نظرة اخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين الى المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، لم يعد للحنق اثر في نفسه ، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمي قائلا : « لقد خرب أبوك بيتي وجعلني أضحوكة بين الناس » الا انه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من ابيه .. بل هو على وجه اليقين أمعن في الضلال ، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب في قهوة احمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين .. بالله في السماء وبالغلمان في

الأرض ، انه من طراز حساس ترف عينه وهو في الحسين اذا تأوه غلام في القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذاك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد الجندي في الخنادق المحفورة في الخطوط الأمامية التي على العدو ان يقتحمها قبل ان يصل اليه .

ثم دعا الداعي الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد اجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد المحمل في النحاسين . واتصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة ، وترددت التلاوات الهامسة في همهمة شاملة حتى أذن بالسلام .. عند ذاك انتثر سلك النظام ، استردت الحرية انفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث او تريث حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم ايما اختلاط كالموجة الكبيرة تندفع نحو الشاطيء وهي آخذة في النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوى كالشلال فتنفجر وتنساب في شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر أيما انتشار ، أزفت الساعة السعيدة التي منى كمال نفسه بها .. ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفسه وانابة عن امه كما وعدها ، بدا يتحرك ببطء في ركاب أبيه .. ومايدرى الاوشاب ازهري يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نذر الغضب من صفحته المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين ، على حين بدا ياسين أشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبه

أناس الى المشهد فركزوا فيه انظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع
وعند ذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا في استياء :
ـ مالك يا أخى تنظر الينا هكذا ؟..
فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :
ـ جاسوس !..
نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاص فدار راسها وحملقت
أعينها وجمدت في أماكنها ، على حين جرت التهمة على الألسن
فرددتها في فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم
تشتبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ ، وكان السيد
أول من ثاب الى وعيه، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله..
الا انه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :
ـ ماذا تقول يا سيدنا الشيخ ؟.. أى جاسوس تعنى ؟
ولكن الشاب لم يأبه للسيد ، فأشار مرة اخرى الى ياسين
وصاح :
ـ حذار أيها الناس ، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس
الانجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم ينقلها الى سادته المجرمين.
ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به
غير متمالك نفسه :
ـ أنت تهرف بما لاتعرف ، فاما أن تكون مجرما أو مجنونا.
هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهـذا
الحى يعرفنا كما نعرف انفسنا .
فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابى :
ـ جاسوس انجليزى حقير ، رايته بعينى رأسى مرارا وهو
يناجى الانجليز عند بين القصرين ، عندى شهود على ذلك ، ولن
يجرؤ على تكذيبى . انى اتحداه .. ليسقط الخائن .
وتجاوبت في اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا
وهناك «ليسقط الجاسوس» .. وصاح غيرهم «فليؤدب الخائن»

..ولاحت في اعين القريبين نذر الوعيد تترصد بادرة او اشارة
كى تنقض على الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد
المؤثر الذى وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من
اذى ، ودموع كمال الذى اغرق في الانتحاب . اما ياسين فقد
وقف بين السيد وفهمى فاقدالوعى من الاضطراب والوجل ،
وجعل يقول بصوت متهدج لم يسمعه احد :
ـ لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صدق
قولى شهيد .
ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة
المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس »
شرا ، على ان صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا :
ـ تمهلوا يا سادة .. هذا ياسين افندى كاتب مدرسة
النحاسين ..
فانطلقت اصوات كالهدير :
ـ مدرسة النحاسين او الحدادين فليؤدب الخائن ..
وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم
لا يقهر .. فما بلغ الصف الأمامى حتى رفع يديه وهو يزعق :
« اسمعوا .. اسمعوا » .. ولما هدات الأصوات قليلا قال وهو
يومىء الى السيد أحمد :
ـ هذا السيد احمد عبدالجواد من أهل النحاسين المعروفين
.. ولا يمكن أن يضم بيته جاسـوسا ، فتريثوا حتى تنجلى
الحقيقة ..
ولكن الأزهرى صرخ حانقا :
ـ لا شأن لى بالسيد احمد أو السيد محمد ، هذا الشاب
جاسوس مهما يكن من أمر ابيه ، رايته يضاحك الجلادين الذين
زحموا القبور بأبنائكم ...
وما عتم ان صاح اناس لا حصر لهم :

— ليضرب بالأحذية ..

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة ، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء ، والتصق السيد وفهمى بجانب ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخا كاد يغطى على أصوات الثائرين .

كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذى لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لاتخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمى أباه في الموقف المثير لأول مرة في حياته .. فاستفزه غضب شديد أذهله عما يحدق بهم من خطر ، فدفع الأزهرى في صدره دفعة قوية ردته الى الوراء فصاح به متوعدا :

— حذار أن تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه :

— ادبوهم جميعا ...

عند ذاك علا صوت قوى يقول بلهجة آمرة :

— انتظر يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فاتجهت الأنظار الى الصوت ، فاذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنه وزيه ، تقدموا في خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم ، حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين «بوليس ؟ بوليس ؟ » بيد أن التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة . ثم سأل الأفندى الأزهرى بنبرات حاسمة :

— أين هذا الجاسوس ؟ ..

فأشار الشيخ الى ياسين بازدراء وتقزز ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل أن ينبس بكلمة تقدم فهمى خطوة الى الأمام كأنما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر .. وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا :

— أنت ...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

— هذا الجاسوس أخى ..!

فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلا :

— أأنت متأكد مما تقول ؟ ..

فبادره فهمى قائلا :

— ربما صدق في قوله .. انه رآه يحادث الانجليز ولكن أساء التفسير أيما اساءة ، ان الانجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرضون لنا في الذهاب والاياب فنتورط أحيانا في محادثتهم على كره .. هذا كل ما هنالك ..

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته باشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

— هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق .. اخلوا سبيلهم .

لم ينبس أحد بكلمة ، انسحب الأزهرى بلا تردد ومضى الناس يتفرقون . صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل به من الناس ، ويؤكدون له انهم لم يألوا جهدا في الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لايدرى متى جاءوا ولا كيف

دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الأبناء في صمت ثقيل ...

- ٢٦ -

في الطريق استرد أنفاسه. فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا في «الحادث» ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شيء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذى يسير فيه شيئا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره في ذاته — ذاته الجريحة — وسرعان ما فار بالغضب. كان احب الى ان تنتهى الحياة من ان اقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسير بين طغمة من اللئام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة . لم يرع لى حرمة سن أو مهابة ، لم أخلق لهذا ، ليس «انا» الذى يهان بتلك الكيفية ، وبين أبنائى .. لا تعجب .. أبناؤك هم أصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبه ابدا . فقس الفضائح في بيتى وأوقع بينى وبين أعز الأصدقاء، ثم توج عامنا بالطلاق .. لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لابد أن يسامر الانجليز جهارا كى ادفع انا الثمن للسفلة المتهجمين ، اذهب بهم اليها كى يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والاستراليين.

— يبدو لى اننى لن أخلص العمر من متاعبك ؟.

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته في تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذى يرثى لها ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه ؛ حسبه الآن ما حاق به ؛ ليس

وحده الذى يتحفه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلتؤجل همه حتى تفيق من متاعب الثور ؛ ثور في البيت ؛ في الحانة .. ثور أمام ام حنفى ونور ، اما في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا أولاد الكلب !.. الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت ، آه .. لماذا تسوقنى قدماى الى البيت ؟!. لم لا اتناول لقمتى بعيدا عن الجو المسموم ؟!. ستولول هى الأخرى اذا علمت بالخبر، لست في حاجة الى مزيد من القرف ، الى الدهان .. سأجد حتما صديقا اقص عليه رزيتى وأشكو اليه همى .. كلا .. لدى متاعب اخرى لا تقبل التأجيل اكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة يجب ان تجد لها علاجا ، الى الغداء المسموم ، ولولى .. ولولى .. ولولى .. ملعون ابوك أنت الاخرى .

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده ، فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا ان يغمغم قائلا :

— جاء دورك ...

فتساءل فهمى متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظة اخيه :

— ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين — اجل وسعه اخيرا ان يضحك — وقال :

— انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين .. !

لشد ما تمنى ان تغيب النعوت التى نعته بها صديقه في الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تغب ، هاهو ياسين يرددها ، ولا شك ان اباه يدعوه من أجل مناقشتها . تنهد فهمى من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفي عينيه نظرة تنم عن تفكير كئيب ، فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة في خضوع وامتثال ، ورد الرجل تحيته بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق اكثر مما تدل على التحية ، وكأنما تقول له : «انى ارد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة ولكن ادبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على» .. ثم حدجه بنظرة

متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كأنه مصباح كشاف يفتش عن مختبىء بالظلام وقال بحزم :

ــ دعوتك لأعرف كل شيء ، أريد ان اعرف كل شيء ، ماذا قصد صديقك بقوله انك من « الأصدقاء المجاهدين » وانكما تعملان في لجنة واحدة ؟ . صارحني بكل شيء دون تردد ..

ومع أن فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطارا شتى ، حتى الطلقات النارية الف أزيزها ، الا أنه لاقى تحقيق أبيه بقلب ماقبل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بأنه لا شيء ، وتركز تفكيره في تحاشي غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وأدب :

ــ الأمر بسيط جدا يا بابا ، لعل صديقي بالغ في قوله كي ينتشلنا من ورطتنا ..

فقال السيد وقد نفد صبره :

ــ الأمر بسيط جدا .. عال .. ولكن أي أمر هو ؟.. لا تخف عني أي شيء .

وكان فهمي يقلب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصح قوله وتؤمن مغبته .. قال :

ــ سماها لجنة وهي لا تعدو ان تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا في الشئون الوطنية .

فهتف السيد مغيظا محنقا :

ــ الهذا استحققت لقب المجاهد .. ؟ !

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه أن يحاول ابنه اللعب به .. وارتسم الوعيد في تجعدات عبوسته ، فسارع فهمي ــ دفاعا عن النفس ــ الى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع أباه بأنه امتثل أمره كالمتهم الذي يتطوع بالاعتراف طمعا في الرأفة .. قال فيما يشبه الحياء :

ــ يحدث احيانا أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية ...

فتساءل السيد بانزعاج شديد :

ــ المنشورات ! .. هل تعني المنشورات ؟ !

ولكن فهمي هز رأسه سلبا ، خاف ان يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسمية بأقسى العقوبات ، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

ــ ليست الا نداءات تحث على حب الوطن ..

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لا يتمالك نفسه من الانزعاج :

ــ أنت من موزعي المنشورات ! .. أنت ! ..

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات! .. من الأصدقاء المجاهدين !.. كلانا يعمل في لجنة واحدة ! .. هل بلغ الطوفان مرقده ؟ !.. طالما راعه فهمي بأدبه وبره وذكائه ، لولا أن الثناء في نظره مفسدة وأن الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء ، كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا يعمل في لجنة واحدة ؟!.. انه لا يحتقر المجاهدين ، هو أبعد مايكون عن ذلك ، طالما تابع أنباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته أخبار الاضراب والتخريب والمعارك أملا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من ابنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة وأعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامه وحياة ابنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة أدب ، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما في وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه ــ فيه ــ بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز ، انه يترحم ليل نهار على

الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التى يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من ابنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟. كيف ارتضى ـ وهو خير ابنائه ـ أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه فى مأزق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه احد مفتشى البوليس الانجليزى :

ـ الا تعلم ما جزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات ..؟!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية ـ بين جملة من اسئلة أخرى ـ وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الظرفين اللذين القى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيد أنه أجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين :

ـ انى اقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولاشأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة او خطر ..

فهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب :

ـ ان الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد أمرنا سبحانه بالا نعرض انفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا

لا يغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه ما يدرى الا وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

ـ ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ما داراه من استمساك برايه ! .. لعله احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى ان اباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجراة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جراته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب ان يجد لمأزقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك أن يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

ـ ذاك كان جهادا فى سبيل الله ..

اعتبر فهمى جواب ابيه قبولا للمناقشة والمحاجة ، فتشجع مرة أخرى قائلا :

ـ جهادنا فى سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله ..

آمن السيد بقوله فى قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه ، هو ما جعله يرتد الى غضبه دون ابطاء .. بيد انه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن أيضا لاشفاقه من أن يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه ، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

ـ أحسبتنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ما تنطوى عليه كلمات أبيه من نذير ، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه .. أما السيد احمد فعاد يقول بحدة :

ـ لا جهاد فى سبيل الله الا ما اريد به وجه الله وحده ـ أى

الجهاد الدينى ـ لا جدال فى هذا ! .. والآن اريد ان اعرف الا يزال أمرى مطاعا ؟

فبادره الشاب قائلا :

ـ بكل تأكيد يا بابا ..

ـ اذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة .. ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة أصدقائك !

ان قوة فى الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطنى ، لن يتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبعث من أعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده ، كل هذا حق لا شك فيه ، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة الى ارضاء أبيه وتحامى غضبه ؟!.. انه لا يستطيع أن يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة أمره ، أجل استطاع أن يثور على الانجليز وأن يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا ، ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا أما أبوه فرجل مخيف ومحبوب ، وهو يعبده بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعصيان ، وثمة احساس آخر لا سبيل الى تجاهله هو أن وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، أما وراء التمرد على أبيه فليس الا الخزى والتعاسة ، وماذا يدعو الى هذا كله ؟!.. لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء ؟!.. لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية ، ولم يكن فى وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة فى ظل الأب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين انفسهم ، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج ، وهل كان فى نية الأم يوم تسللت فى غيبة السيد الى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها ؟ .. وهل كان فى وسع ياسين أن يسكر ، وهو آن يحب مريم ، وكمال أن يتفقرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟!.. ليس الكذب

مما يتورع عنه أحد منهم ، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

ـ أمرك مطاع يا بابا ..

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد أحمد انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

ـ أقسم لى على هذا الكتاب ..

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليه فى غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه !

ـ الا تريد أن تقسم ؟!

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد :

ـ أكنت تكذب على .. ؟

ـ لم يطرأ على فهمى تغير الا انه غض بصره فرارا من عينى أبيه ، ووضع السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوفا تهوى على خديه :

ـ انت تكذب على يا بن الكلب !.. انا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقنى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك !.. انت

حشرة خبيثة مجرمة ، بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا ، لن انقلب امرأة على آخر الزمن ، سامع ؟!. لن أنقلب امرأة على آخر الزمن ، حيرتمونى يا اولاد الكلب وجعلتمونى أضحوكة الناس ، انا أسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟!. بنفسى يا بن الكلب ، الكلمة هنا كلمتى أنا ، أنا أنا أنا .. (ثم متناولا الكتاب مرة أخرى) اقسم .. آمرك بأن تقسم ..

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون أن تريا شيئا ، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانية أمعن فى الصمت واليأس ، لم يبق له الا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة ، ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق :

ـ أتوهمت انك رجل ؟.. أتوهمت انك تستطيع أن تفعل ما تشاء ؟!.. لو اشاء اضربك حتى اكسر راسك ..

لم يملك فهمى عند ذلك الا ان يبكى ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى أذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد انه وسعه أخيرا ان يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية أخرى ، فاسترسل قائلا فى ضراعة وزجاء :

ـ سامحنى يا بابا ، أمرك مطاع فوق العين والراس ولكنى لا استطيع ، لا استطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا أرضى ولاترضى لى ان انكص واتخلف عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال اجل كالاشتراكات فى المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون ، لست خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا هتاف فيها الا

للوطن ، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتى ؟.. وما حياة أى انسان ؟.. لا تغضب يا بابا وفكر فيما أقول .. وأكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى الصغير ... !

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا . كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع ..

- ٦٣ -

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى فى بيت القاضى بأحد أقرباء أمه ، فاقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :

ـ كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك ..

حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمه التى أورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور :

ـ خير ان شاء الله .. ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى :

ـ والدتك مريضة ، مريضة جدا فى الواقع ، أصابها المرض منذ شهر أو أكثر ولكنى لم أعلم به الا فى هذا الأسبوع ، وقد ظنوه بادىء الأمر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء أنه ملاريا شديدة ..

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كأنه يتوقع حدثا عن طلاق او زواج أو شجار وما شاكل ذلك ، أما المرض فلم يقع

له فى حسبان ، تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شــدة اعتلاجها :

ــ وكيف حالها الآن .. ؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

ــ حالها خطيرة ! .. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأحرى ازدادت الحال سوءا ، وقد أرسلتنى اليك كى أصارحك بأنها تشعر بدنو أجلها ، وأنها ترجو أن تراك دون تأخير ..

ثم بلهجة ذات معنى :

ــ يجب أن تذهب اليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله غفور رحيم ..

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، ها هو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضى الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم فى ذكريات الظلام المرتعشة والى الأمام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن أنه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده اليها .. الا الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقا ؟ ! .. قلبى يخفق ، ألما ؟ .. حزنا ؟ .. لا أدرى الا أنى خائف ، اذا ذهبت فلن أعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيغشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف .. وحانق على هــذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة ارغد وبال أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت سأودع أما بقلب ابن .. أم وابن اليس كذلك ؟ .. لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد أن الموت زائر جديد على لم اشهد محضره من قبل ، وددت لو كانت النهاية بغيره ، ســنموت جميعا .. حقا ؟! يجب الا أستسلم للخوف ، أن أنباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هــذه الأيام ، فى شــارع الدواوين والمدارس والأزهر . وهنالك فى أسيوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابنه أمس ، ما عسى أن يصــنع أهل الشهداء ؟ .. أيقضون العمر بكاء ؟ .. انهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، أف .. يخيل الى أنه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى فى البيت فهمى وعناده وأمامى أمى فما أبغض الحياة ! واذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى خير وعافيــة ؟ ! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من ثروة ؟ .. واذا دخلت البيت التقى بذلك « الرجل » هنالك ؟ .. لا أدرى كيف أقابله .. ســتلتقى عينانا فى لحظــة رهيبة ، الويل له ، اتجاهله أو أطرده هذا هو الحل ، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصوز أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن دامع العينين .. حتم وقتذاك أن تدمع عيناى .. اليس كذلك ؟ .. لن يكون فى وسعى أن اطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شىء ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون على .. هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم .. أمى تقول لك ..

فتحت له الخادم الباب ــ نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فأنكرته ــ فتطلعت اليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء لمعــة كأنمــا تقول له : « آه .. أنت الذى تنتظر » ثم افسحت له وهى تومىء الى حجرة عن يمين الداخل قائلة :

ــ تفضل يا سيدى .. لا يوجد أحد ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فادرك ان امه اخلت له الطريق . اتجه الى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخـل . وقعت عيناه على عينى أمه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما اوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه أدركه من التغير فوق ما ادرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صـورة للرثاء والفناء . وقف ذاهـلا منكرا كأنه لا يصدق ان ثمة قوة فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنـه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد اباه أيما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لايقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما فى نبرات أسيفة :

ــ لا بأس عليك .. كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ــ فى أحوال نادرة ــ ظاهرة مرضـية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجىء .. كأنه يلقى أم طفولته التى أحبها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ــ وعيناه مرسلتان الى الوجه الفانى ــ بهذا الشعور المستجد الذى رده اعواما طويلة الى الوراء ــ الى ما وراء الالم ــ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخـاف عليها احساسا باطنيا يوشـك الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تتهدده ، وان دل تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى اعماق الأعماق منذرة اياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون

فخلط بشعوره الصادق ما يفسده من مشاعر اخرى . واخرجت المراة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا :

ــ كما ترى ، صرت خيالا ..

فغمغم :

ــ ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت ..

فندت عن رأسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا يسمع منك » .. وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت ــ بقـوة جديدة استمدتها من محضره ــ تقول :

ــ فى أول الأمر كانت تنتابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا مصيبا ، نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى ، ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا .. أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لا تدعنى حتى اكون قد اشفيت على الهلاك ، وتمر بى أوقات اجد جسمى باردا كالثلج ، وأوقات اخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صمم س ... (امسكت عن النطق بالفاعل منتبهة فى اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذى كانت ستقع فيه) .. اخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقدم بى العلاج خطوة واحدة نحو الصحة ان لم يكن تأخر خطوات ، لم تعد ثمة فائدة ترجى ..

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

ــ لا تيأسى من رحمة الله ، ان رحمته واسعة ..

فافتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

ــ يسرنى ان اسمع هذا ، يسرنى ان اسمعه منك انت قبل

الناس جميعا ، انته عندى أغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت
إن رحمة الله واسعة ، طالما ساءنى الحظ ، لا انكر الهفوات
والأخطاء ، العصمة لله وحده ....

آنس ــ جزعا ــ من حديثها ميلا الى ما يشبه الاعتراف ،
فانقبض صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه
أمورا لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير .. فتوترت
أعصابه حتى أوشك ان تبدل حالا بعد حال ، قال بتوسل :

ــ لا تتعبى نفسك بالكلام ..

رفعت اليه عينيها باسمة وهى تقول :

ــ مجيئك رد الى الروح ، دعنى اقل لك انى لم اقصد فى
حياتى سوءا بانسان ، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال
فيعاندنى الحظ العاثر ، لم أسىء الى احد ولكن كثيرين إساءوا
الى ..

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب .. وأن
عاطفته الصافية تعانى أزمة من التنغيص .. فقال بلهجة التوسل
السالفة :

ــ دعى الناس بخيرهم وشرهم ، صحتك الآن أهم من أى
شىء آخر ... فربتت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق
بها ، ثم همست :

ــ فاتتنى أشياء ، لم أؤد الى الله حقه ، وددت لو طال عمرى
حتى أستدرك بعض ما فاتنى .. بيد أن قلبى كان دائما مفعما
بالايمان والله شهيد .

فقال وكأنه يدفع عن نفسه وعنها معا :

ــ القلب هو كل شىء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ..

فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :

ــ وعدت الى أخيرا ! .. لم أجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى
المرض الى ما ترى ، داخلنى شعور بأننى أودع الحياة فلم أطق أن

أفارقها قبل أن أملأ عينى منك ، فأرسلت اليك وبى من الخوف من
رفضك أكثر مما بى من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك
وأقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبله ..

اشتد التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ، تثاقلت
الكلمات الحنونة فى فيه متعثرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما
أراد توجيهها الى المرأة التى ألف مجافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد فى
يده أداة تعبير طيعة حساسة ، فضغط على راحتها مغمغما :

ــ ربنا يكتب لك السلامة ..

وجعلت تدور حول المعنى الذى أفصحت عنه جملتها الأخيرة ،
مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس
معناها طورا آخر .. وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد
ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد أنفاسها ، مما دعاه مرات
الى أن يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تبتسم لمقاطعته
ثم تعود الى مواصلة الحديث ، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها
اهتمام طارىء كلما تذكرت شيئا ذا بال ... وقالت :

ــ تزوجت ... ؟

فرفع حاجبيه فى شىء من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها
أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :

ــ لا عتاب .. حقا كنت أود أن أرى عروسك وذريتك ، ولكن
بحسبى أن تكون سعيدا ..

فما ملك أن قال باقتضاب :

ــ لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ..

لأول مرة لاحت آى الانتباه فى عينيها ، لو كان فى الامكان أن
يلتمعا لالتمعا .. ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم
الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمتمت :

ــ طلقت يا بنى ! .. ما أحزننى .. !

فابتدرها قائلا :

— لا تحزنى ، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) أخذت الشر وراحت . . .

ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

— من الذى اختارها لك . . هو ام هى ؟ !

فقال بلهجة نمت عن رغبته فى قفل باب هذا الحديث :

— اختارها الله ، كل شيء قسمة ونصيب . . !

— أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ . . امرأة أبيك ؟

— كلا أبى الذى اختارها ، ولا غبار على اختياره فهى من أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت . .

فقالت ببرود :

— القسمة والنصيب واختيار ابيك . . هذه هى . . !

ثم بعد وقفة قصيرة :

— حبلى ؟

— نعم . . .

وهى تتنهد :

— الله ينكد عيشة ابيك . . !

تعمد الا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلها تسكن . . فشملهما صمت ، وأغمضت المرأة عينيها كأنما انهكها التعب ، بيد أنها فتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهى تسأله بصوت رقيق لا اثر فيه لانفعال :

— ترى هل يمكن أن تنسى الماضى ؟

فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لا تقاوم ، ثم قال برجاء :

— لا تعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة . .

لعل قلبه لم يعن ما يقول ، ولكن لسانه قال ما ينبغى أن يقال . . أو لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك ، تلك اللحظة التى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل

قوله : « فليذهب الى غير رجعة » . . قد وقع من مسمعه — ومن قلبه — موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التشبث بها من بادىء الأمر . أما أمه فعادت تسأله :

— وهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

— احبها وأدعو لها بالسلامة . .

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الذاوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة أشاعت فى الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم أغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرة أخرى ؟ . . وبأى قلب يلقاه ان عاد ؟ ! . . لا يدرى ، لا يحب أن يتصور المضمر فى علم الغيب ، يود أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، وأحاط به شعور الخوف والقلق ، عجبا ! . . لقد ركبته رغبة فى الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه انه ارتاح الى نومها كل الارتياح ولكنه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف . . خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر . . هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح ! . . لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة للخوف والقلق

هكذا ، يجب أن يضع حدا لآلامه ... غدا أو بعد غد تكون تهنئة
أو تعزيه .. تهنئة أو تعزية ؟ ! .. أيهما أحب الى نفسه ؟!..
يجب أن يقف عن الحركة . تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغى أن
أسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا أن نفترق الآن
لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لأسوأ حياة ، أما اذا مد الله
فى عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان — فى الجهة
المقابلة — التى عكست صورة الفراش فرأى جسم أمه مطروحا
تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها
التى أخرجتها عند استقباله فحملق برفق وأدخلها تحت الغطاء ثم
ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر!
ربما عكست هذه المرآة غدا فراشا خاليا عاريا ! .. ليست حياتها
— حياة أى انسان ... لم لا ؟ — بأرسخ دواما من هذه الصور
الوهمية ! .. فأشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه « يجب أن
أضع حدا لآلامى .. يجب أن أذهب » ، بيد أن بصره تحرك تاركا
المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول
عنقها كالثعبان فثبت عليها فى دهشة وانكار سرعان ما حل مكانهما
شعور هائج بالتقزز والغضب .. ذلك الرجل ! .. هو بلا ريب
صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين
الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا
وأمه تروح له على الجمرات .. آه ترى أين هو الآن ، فى مكان
بالبيت أم فى الخارج ؟ .. هل رآه من حيث لم يره ؟ .. لم يعد
أحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر مما بقى فألقى نظرة على وجه أمه
التى وجدها مستغرقة فى النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار الى
الباب ، ولما التقى بالخادم فى الردهة الخارجية قال لها :

— ستك نامت ، سأعود غدا صباحا ..

والتفت اليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجى قائلا :

— غدا صباحا ..

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ،
مضى الى حانة كوستاكى رأسا . شرب كعادته ولكنه لم يطلب
بالشراب نفسا . أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع أن
أحلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا أنها لم تستطع
أن تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء . ولما عاد الى
البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه فى انتظاره بالدور الأول
فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :

— أمى .. ؟!

فأخفت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت :

— جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة . العمر
الطويل لك يا ابنى ..

— ٦٤ —

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة
متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين فى جامع
الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه
« صغير » ، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية ، ولكى يتفادى من
منعهم اياه بالقوة كان يمضى الى المعسكر رأسا بعد عودته من
المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة الى
منعه الا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لا سيما وأنه
يمرح فى المعسكر تحت أعينهم متقبلا فى كل موضع بالترحيب
والتكريم ، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا فى

التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرد يلهو في غابة من الوحوش » ...

ـ قولوا لسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت أم حنفى مرة وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها ـ بسبب الصداقة اللعينة ـ ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقبتهم » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة ، فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلهم لم يخلوا من رجاء فى ان يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل ان يتعرضوا له من عبث أو أذى فى الذهاب والاياب ! أسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر ، لم يكن جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه ، كان يصافح الأصدقاء ويشد على ايديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية للآخرين . وربما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا ان يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس فى الأمر تجاهل أو غضب الا من اغراق الآخرين فى الضحك . ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الانذار ، هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، ويتحرك لورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق فيمضون اليه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم ، بات يدرك من المنظر الذى أمامه أن مظاهرة قامت في جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وأن قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الأوقات الا أن يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وأن يملأ

منهم عينيه كأنما يودعهم ، وأن يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة !.. على أنه لم يكن يقضى فى المعسكر أكثر من نصف ساعة كل أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة؛ يقف حيال أهرام البنادق طويلا متفحصا أجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت .. يقف على بعد لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها أو على الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاى فكان يمضى مع أصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه في نهاية طابور « الشاى » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاى باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرابهم وينشد الجنود اغانى جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فى الغناء . تركت حياة المعسكر فى نفسه اثرا عميقا بثفي خياله وأحلامه يقظة شاملة ، أثرا نقش على صفحة قلبه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنياها الساحرة ، والأطياف والرؤى التى تتخايل له فى أحلام اليقظة وراء اغصان الياسمين واللبلاب وأصص الزهور ـ فوق السطح ـ عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العدة والعدد ؛ اقام خيامه بالمناديل والأقلام ، وأسلحته بعيدان الخشب ، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر . وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبا ، يأخذ فى محاكاة الغناء

الانجليزى ثم يجىء دور الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة » أو « ياعزيز عينى » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن .. تسقط الحماية .. يحيا سعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة ، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا أزيز اللورى ، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرة أخرى صـوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين !.. ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدئها ووسطها ، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة « صادقة مشوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى اليها ، هنالك يجد نفسه فى موقف حائر ، أى جانب ينتصر ؟.. فى جانب أصدقاؤه الأربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفى الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمى !.. فى اللحظة الأخـيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقلة من الجنود بينهم الأصـدقاء الأربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاى ومختلف الوان الحلوى !.. وكان جوليون أعز أصدقائه ، امتاز الى جماله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسـبية فى التكلم بالعربية ، وهو الذى جعل دعوته الى الشاى حقا ثانيا كما بدا أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا الى غناء « يا عزيز عينى » فيتابعه باهتمام ثم يغمغمُ فى تشوق وحنين :

ــ أروح بلدى .. أروح بلدى !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له الفة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله على مخرج من كربه :

ــ ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم .. !

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظر وعلى العكس طلب اليه ــ كما فعل من قبل فى ظرف مشابه ــ الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا : « سعد باشا .. نو ! » وهكذا فشل ــ على حد تعبير ياسين ــ أول مفاوض مصرى ! .. وما يدرى يوما الا واحد « الأصدقاء » يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه « صورتى !؟.. ليست هذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيه للواقفين حوله فألفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه أن يتقبله بسرور فجاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

ــ رباه .. لم تترك عيبا الا أبرزته ! .. الجسم النحيف الصغير ، الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، الرأس الضخم ، العينان الصغيرتان :

ثم ضاحكا :

ــ الشىء الوحيد الذى يبدو أن « صديقك » يضمر نحوه اعجابا هو بدلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك فى ذلك وانما الفضل لنينة التى لا تترك شيئا فى البيت الا هندمته !

ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

ــ بان السر الذى حببك اليهم ! .. انهم يتسلون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة ، يعنى بالعربى لست الا « قره جوز » فى نظرهم .. ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟!.. ولكن كلام فهمى لم يحدث أثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم ! .. وجاء يوما المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام الى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه

لها معنى بيد انه توقف عن التقدم ملبيا احساسا غريزيا خفي عنه معناه ، ثم اغراه حب الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسللا الى ما وراء جوليون وأن يمد بصره الى الهدف الذى يتطلع اليه ، هنالك رأى كوة فى جناح بيت آل رضوان الذى يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجـه مريم واضحا باسما مستجيبا !. وقف يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كأنما يأبى ان يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة ؟ ! .. كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهى تبتسم !.. اجل هاهى الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها !.. وها هما عيناها يستغرقهما النظر اليه حتى انها لم تفطن بعد الى وجوده هو ! وندت عنه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى اغرق فى الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى ذعر بين . راح يتطلع الى الجندى فى ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الأمر كله غموضا فى غموض . سأله جوليون متوددا :

ـ تعرفها ؟..

فأحنى راسه بالايجاب ولم ينبس . غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم :

ـ اذهب بها اليها ..

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز راسه يمنة ويسرة فيعناد . لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع انه شعر بخطورتها من بادىء الأمر الا انه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصة فى مجلس القهوة مساء . استوت امينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيهـا ولا هى تضعه علي الصينية علي حين غادر فهمي وياسين

الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين الى الكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدقان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت امينة وهى تزدرد ريقها :

ـ ارايت هذا حقا !.. الم تخدعك عيناك ؟!

وتأفف فهمى :

ـ مريم ؟!. مريم ؟!. امتأكد انت مما تقول ؟!

وتساءل ياسين :

ـ اكان يشير اليهـا وكانت تبتسم اليه !.. ارايتها تبتسم حقا ؟!..

واعادت امينة الفنجان الى الصينية فأسـندت راسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ كمال ! الكذب في مثل هذا الأمر جريمة لا يغفرها الله .. راجع نفسك يا ابنى .. الم تعد الحق في شىء ؟!

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمى بيأس ومرارة :

ـ انه لا يكذب ، ليس في وسع عاقل ان يتهمه بالكذب فيما قال ، الا تدركون ان اختراع مثل هذه القصة هو ابعد ما يكون عن تصور واحد في سنه ؟!..

فتساءلت الأم بصوت حزين :

ـ وكيف يسعنى أن اصدقه !

فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه :

ـ اجل كيف يمكن تصديقه ! .. (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع .. وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح الا في حاشية احلام يقظته ، ولكن الطعنة التى اصابت سمعتها نفذت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لا يدرى ان كان نسى ام لم ينس ، يحب ام يكره ، يغضب للكرامة

ام للغيرة .. ورقة شجر جافة في مهب زوبعة متناوحة ..
— كيف يسعنى ان اصدقه ؟.. طالما كانت ثقتى في مريم كثقتى في خديجة او عائشة ، امها من الفضليات ، ابوها طيب الله ثراه كان من الاكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..
قال ياسين — الذى بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير — بلهجة لم تخل من سخرية :
— علام تعجبون ؟.. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار اشرارا .
فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر :
— يشهد الله انى لم الاحظ عليها ما يسوء قط ..
فقال ياسين بحذر :
— ولا احد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو أفطن منك ومنى !
فهتف فهمى متألما :
— من اين لى ان اطلع على الغيب ؟! انه امر يشق تصوره .
وحنق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جميعا بغضاء ، الانجليز والمصريون على السواء .. الرجال والنساء — والنساء خاصة — انه يختنق .. هفت نفســه الى الاختفاء ليتنشق في وحدته نسمة راحة بيد انه لم يبرح مكانه كأنما شد اليه بحبال غلاظ ..
اتجه ياسين الى كمال متسائلا :
— متى رأتك ؟
— عندما التفت الى جوليون ..
— ثم فرت من النافذة ؟
— نعم ..
— هل رأت انك رأيتها ؟

— التقت عينانا لحظة ..
ياسين ساخرا :
— مسكينة !.. انها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هـذا وحديثنا ذا الشجون !
— انجليزى !..
هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :
— بنت السيد محمد رضوان !..
غمغمت امينة متنهدة وهى تهز راسها عجبا ..
فقال ياسين متفكرا :
— مغازلة انجليزى ليست بالمسألة الهينة على فتاة ، هذه درجة من الفساد لا يمكن ان تظهر طفرة ..
فسأله فهمى :
— ماذا تعنى
— اعنى انه لا بد ان تسبقها درجات من الفساد !
فقالت امينة برجاء :
— استحلفكم بالله ان تمسكوا عن هذا الحديث ..
فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :
— مريم بنت سيدة لها في التبرج فنون بشهادتكن انت وخديجة وعائشة ..!
فهتفت امينة بصوت ملؤه العتاب والزجر :
— ياسين !..
فقال ياسين كالمتراجع :
— اريد ان اقول اننا اسرة تعيش في حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا عما يدور حولها ، قصارى جهدنا ان نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا مريم اعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق !..

وربت على رأس كمال ضاحكا ، ولـكن أمينة عادت تقول بتوسل حار :

ــ استحلفكم بالله ان تغيروا مجرى الحديث ..

ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعد فهمى يتحمل البقاء بينهم فاستجاب الى الصوت الباطنى الذى يستصرخه ملهوفا على الفرار .. بعيدا عن الأنظار والأسماع ، هنالك يستطيع ان يخلو الى نفسه ، ان يعيد عليها الحديث من الفه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ، جملة جملة . ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر اين يكون موضعه ..

- ٦٥ -

كان الليل قد جاوز منتصفه عند ما غادر السيد احمد عبد الجواد بيت ام مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى كله ــ كما امسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل مذ عسكر الانجليز فيه ــ غارقا في النوم متدثرا بالظلام ، لامقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه اثر للحياة او النور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع ان احدا من الجنود لم يتعرض له بسوء في الذهاب او الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر في طريقه الى البيت خاصة وانه يعود ــ آخر الليل ــ على حال من الاعياء والاسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير في السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظر الى الديدبان حتى دخل اشد مناطق الطريق خطورة .. تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده

الاحساس الذى يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لأى صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضى الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك اذنيه صوت اجش غليظ يزعق وراءه راطنا فأدرك على جهله رطانته ــ من عنف اللهجة واقتضابها ــ انه رماه بأمر لايقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه مرتاعا فراى جنديا ــ غير الديدبان ــ يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟. ايكون الرجل ثملا ؟. ام لعله اذعن لنزوة اعتداء طارئة ؟. ام هو يبتغى السلب والنهب ؟. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من راسه . وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا ــ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ــ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به او كى يعرف على الأقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد باشارته الى بين القصرين ان يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه انه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز راسه في نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب ، ثم بدا انه ضاق به فقبض على منكبه واداره بقوة فدفعه فى ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم ــ ومفاصله تكاد تسيب ــ الى المقادير ، جاوز في مسيره المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض امواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لا منظر يرى الا اشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكى رهيب كأنهما يعدان الدقائق الباقية له في الحياة ، ولعلها ثوان ، اجل كان يتوقع



في اية لحظة ان ينقض عليه بخبطة تهوى به الى النهاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى اسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دائرة من الضوء تذهب وتجيء فأدرك انها شعاع من بطارية اضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد انفاسه بعد ان تخفف من الذعر المباغت ولكنه لم يكد يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول ، خوف الموت الذى يساق اليه ، فعاد يترقب حتفه بين لحظة واخرى كأنه غريق توهم في تخبطه انه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له ان ما راى اعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكد تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط به . الى اين يسوقه ؟، لو يستطيع ان يراطنه فيسأله !، يبدو انه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة باب النصر ، لا اثر لانسان ولا لحيوان ؛ اين الغفير ؟، وحيد تحت رحمة من لايرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ الكابوس .. اجل انه الكابوس ، كابده اكثر من مرة خلال نوم مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو احيانا من بارقة امل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعانيه حلم لاحقيقة وبأنه سينجو من شره الآن او بعد حين ، هيهات ان يجود الدهر بمثل ذلك الأمل ، انه صاح لا نائم وهذا الجندى الشاكى السلاح حقيقة لاخيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسره شيء ملموس مخيف لا وهم ، عذابه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؛ ان اقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح براسه .. لا سبيل الى الشك في هذا ايضا ، قالت له ام مريم وهى تودعه « الى الغد » .. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟!، سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات السونكى الحاد

المدبب ، قالت له ايضا وهى تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك ان تسكرنى » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شيء في الحياة .. الآن العذاب هو كل شيء .. وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة ؟!.. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق فراى بطارية تتحرك في يد جندى آخر يسوق بين يديه اشباحا لم يتبين عددهم !.. تساءل ترى هل صدرت الى الجنود اوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا ؟!.. والى اين يسوقونهم ؟.. واى عقاب سيقضون به عليهم ؟ تساءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد ان رؤيته للضحايا الجدد ادخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الأقل وحيدا كما كان يظن، وجد في بلواه انداداً يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال فى مفازة الى اصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن امنية اعز على نفسه آنئذ من ان يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف او غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال أبرياء وهو برىء ففيم القبض عليهم ؟، فيم القبض عليه هو مثلا ؟، لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسية ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الافئدة ويحاسبون على المشاعر ؟.. او تراهم يعتقلون افراد الشعب بعد ان فرغوا من اعتقال الزعماء ! ، لو كان يعرف الانجليزية فيسأل آسره ؟.. اين فهمى ليحادثه نيابة عنه ؟.. وخزه الالم والحنين ، اين فهمى وياسين وكمال وخديجة وعائشة وامهم ؟ هل يمكن ان تتصور اسرته ما آل اليه حاله من هوان وهى التى لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟، هل تتصور ان جندى دفعه

بعنف حتى اوشك ان يطرحه ارضا وانه يسوقه كما تساق السائمة ؟. وجد لذكر آله الما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف اصحابها ، ومقاه كان يوما ــ خاصة عهد الصبا والشباب ــ من سمارها ؛ فأحزنه ان يمضي بها اسيرا دون ان تنهض لنجدته او حتى ترثى لحاله ، شعر حقا بأن احزن صنوف الهوان ما حاق به في حيه ، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون ان يجرى له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من ان ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من انفاس الشراب وعرق الغرام ، وما لبث ان تضاعف خوفه من ان يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، او ان يلقى مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشى صدره تطير وكآبة ، واشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترامى الى الصمت الذى لا يؤنسه الا وقع الأقدام اصوات مبهمة فأرهف السمع محملقا في الظلام ــ وهو يتقدم بين الخوف والرجاء ــ فتناهت الى اذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان او حيوان ، غير انه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك ان قال لنفسه في لهفة « اصوات آدمية ! » ، ومال مع الطريق فلاحت لعينيه اضواء متحركة حسبها بادىء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل راى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف ما يراد بى ، لم يبق الا مسيرة خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الأهالى من شتى انحاء الحى ؟ عما قليل اعرف كل شيء ،كل شيء كل شيء ؟ فلأستعذ بالله ولأسلم اليه امرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان في العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. أانضم الى سجل الشهداء ؟ اأصبح نبأ من انباء الثورة يتناقله محمد عفت

وعلى عبد الرحيم وابراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار في سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ رحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد ما يبكونك ، وسيذكرونك طويلا ، ثم تنسى ، ما اشد اضطراب قلبى ؛ سلم امرك للذى خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما ان اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه في الأعماق مخلفا وراءه في الأضلع الما حادا ، ترى هل آن له ان يتوقف ؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة ..

ادخل ..

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما رأى جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الأتربة في مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف الى الجنود الانجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :

ــ افعل كما يفعل الآخرون ...

ثم همسا :

ــ اسرع حتى لا يصيبك اذى ..

كانت هذه الجملة اول تعبير « انسانى » يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :

ــ هل يطلق سراحنا اذا تم العمل ؟

فأجابه بنفس الصوت :

ـ ان شاء الله .

تنهد من الأعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بأنه يولد من جديد ؛ رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم في الحياة ؛ وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :

ـ انت وقعت أيضا !..

ـ قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت في ذهابي وايابي اتبع طريقا يميل اليك رويدا رويدا حتى جاورتك .

ـ اهلا .. اهلا ، أليس ثمة أحد من أصدقائنا ؟

ـ لم أعثر على غيرك ..

ـ قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل .

ـ قيل لى ذلك أيضا ، ربنا يسمع منك ..

ـ سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..

ـ لم تعد لى ركب على ما أظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة ..

ـ ما أصل هذه الحفرة ؟

ـ يقال ان فتوات الحسينية حفروها أول الليل ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضا أن لوريا وقع فيها !

ـ ان صح هذا فقل علينا السلام !

وعندما تجاورا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى انهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب .

فهمس السيد باسما :

ـ أرجو أن يعطونا أجرا مناسبا !

ـ أين قبض عليك ؟

ـ أمام البيت .

ـ طبعا !..

ـ وأنت ؟.

ـ كنت بالعا منزولة ، ولكنى أفقت تماما ، الانجليز أقوى من الكوكايين !

ـ أقوى من القيء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل ، أثاروا التراب حتى انتشر في فراغ القبة خالقا جوا خانقا فعلاهم البهر وتصبب العرق من جباههم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم أشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ؛ آى ذلك انهم جردوا من سلاحهم .. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنى يتدلدل من أحزمتهم ، اصبر .. اصبر لعل هذه الغمة ان تنكشف ، هل كنت تتصور انك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة انك ستحمل التراب وتسخر في سد الحفرة ؟ لا تريد الحفرة ان تمتلىء ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولمن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليلة وعبثها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيطة

أن تنظر فيها ، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيذ المنام ،كنت أستطيع أن اغسل راسى ووجهى واشرب شربة روية من القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هـذه المشاركة في جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائر ..كل يوم ..كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار شيء اما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ، هنيئا لكم أيها النائمون في أسرتكم ، اللهم احفظنا ؛ لست لها .. لست لها ، اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى أى خطر يتهدده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، قال لى : «لا» لأول مرة في حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ؛ لم أقل لأمه ، لن اقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ أاستعين بضعفها بعد أن اخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شيء ، يقول انه لا يعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته ابدا ؛ اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ، لن يقتلونا أمام الخلق ، الصباح ؟.

ـ بصقت على الأرض كى أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرمانى أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر راسى !

ـ لا تبصق ، تشبه بى ، لقد بلعت من التراب قدرا يكفى لسد هذه الحفرة !.

ـ لعل زبيدة دعت عليك ؟

ـ لعلها ...

ـ الم يكن سد حفرتها أطيب من سد هذه الحفرة ؟

ـ بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

ـ انقصم ظهرى يا هوه ..

ـ مثلك ، عزاؤنا اننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم .

ـ ما رايك ان ارمى بالمقطف في وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى « يحيى سعد » ؟!

ـ اشتغلت المنزولة من جديد ؟

ـ يا للخسارة !.. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاى مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود في بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وانا اقول لنفسى « الولية الآن تنتظرك لأفلح من خيب لها رجاء» حين طلع على ابن القرد وساقنى من قفاى ...

ـ ربنا يعوض عليك ..

ـ آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى «العمال» . القى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور او كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها في حركة لاتنقطع وانوار المشاعل تضيء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال . الكثرة بركة وأمان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البريء بالمذنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ اين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن ان اخوانا لهم وقعوا في الحفرة التى حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعدا أو يخرج الانجليز من مصر ! لأنقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمأمون ، كيف يكون طعم الحياة ؟ لا طعم للحياة في ظل الثورة ، الثورة .. اى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى أصلها ؟ صداع ؟.. بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة .. لا أطمع في مزيد ! بهيجة في سابع نومة ، امينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات ان يخطر لكم ما حاق بأبيكم ، رباه أن التراب يملأ انفى وعينى ، يا سيدنا

الحسين ، امتلئى .. امتلئى .. اما كفاك هذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه .. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم !.. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى انا ، هل يعسكرون امام البيت حتى تنتهى الثورة ؟

ـ الم تسمع الديكة ؟

أرهف السيد اذنيه .. ثم غمغم :

ـ الديكة تصيح ! الفجر ؟

ـ نعم .. ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح ..

ـ الصباح !

ـ المهم انى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى اسفل فشعر بأنه محصور ايضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

ـ وانا كذلك ..

ـ والعمل .. ؟

ـ ما باليد حيلة ..

ـ انظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول امام دكان على الزجاج !...

ـ آه ...

ـ اخراج شوية بول أهم الآن عندى من اخراج الانجليز من مصر كلها ...

ـ اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا أولا من النحاسين .

ـ رباه .. انظر .. لا يزال الجنود يأتون بالناس !

راى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة ..

- ٦٦ -

استيقظ السيد احمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل ـ رغم جدية الامر ـ من فكاهة وتهويل حتى أثار شتى التعليقات . كانت امينة أول من سمع القصة ، القاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا انه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم امثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه أن يغفل الجانب انفكاهى من الحادث حتى غلب على ما عداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته . وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانى فيما عدا الأم التى شغلت مع أم حنفى بتهيئة القهوة والأشربة . شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الأم التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمانينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم في الأيام الخوالي . على أن الطمانينة لم

تستقر بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم ، أقبلوا عليه واحدا في اثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين . ومع أن السيد اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة الا انه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألهما في رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق ان كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلما هلت . كان ينعم في اثنائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها الا تفكيره في النهاية المتوقعة . ودائما كان يجىء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين ــ ابراهيم أو خليل ــ اذا تمطى أو تثاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » أمرمطاع لا يرد ، لم تتكرم احدى شقيقتيه ــ ولو مرة واحدة ــ بأن تجيبه قائلة مثلا « اذهب أنت وسألحق بك غدا » ! بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه و وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجىء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أنيقول متمنيا «لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره أمه قائلة « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد ان أعجب ما صادفه في حياتهما الزوجية كان ذاك التغير العجيب الذى طرأ على البطن .. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير ، وفدت على حافظته ألفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قيء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة ... ثم ما شأن بطن عائشة ؟.. متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟. وهذا بطن خديجة بدأ ــ فيما يبدو ــ يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحمت على الطين فعلى أى شيء توحم خديجة ؟!.. غير ان خديجة لم

تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع !. وتقول أمه ان بطن عائشة ــ وبطن خديجة بالتالى ــ سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه .. ولكن : أين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش . وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا يرى ؛ وكيف وجد . ومن أين جاء ؟!.. على أن هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف أمه .. لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام :

ــ متى يخرج الطفل ؟

فأجابته ضاحكة :

ــ اصبر لم يبق الا قليل ..

فتساءل ياسين :

ــ أظنك في شهرك التاسع ؟

فأجابته :

ــ نعم ولو ان حماتى تصر على انى في الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

ــ أصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل ما هنالك !

ــ ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا .

وقالت عائشة :

ــ أود ان اقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الانجليز عن شارعكم ..

فقالت خديجة بحماس :

ــ أجل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب

والسعة ، فيقيم بابا ونينة عند عائشة لأنها في الدور الأوسط ، وتقيمون انتم عندى ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم على التحريض :

ـ من يقول لبابا ؟

ولكن فهمى قال وهو يهز منكبيه :

ـ انكما تعلمان حق العلم ان بابا لا يمكن ان يوافق ..

فقالت خديجة بأسف :

ـ ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين !.. ساقوه في الظلام وحملوه التراب !.. آه . راسى يدور كلما تصورت هذا ..

فقالت عائشة :

ـ كنت انتظر دورى لتقبيل يده وانا اتفحص جسمه جزءا جزءا لأطمئن عليه ، كان قلبى يدق .. وعيناى تغالبان الدمع .. لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب !..

فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه

ـ لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا أصدقاء ..؟

فقال فهمى متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا ان يعلم ان الجندى الذى قبض عليه ايلا ما هو الا صديق من اصدقاء كمال ..

فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

ـ الا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا :

ـ لو عرفوا انه ابى ما تعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا ان ضحك ضحكة عالية حتى انه غطى فمه بيده وهو ينظر في حذر الى السقف كانما خاف ان يترامى صوت ضحكته الى الدور الأعلى .. ثم قال ساخرا :

ـ الأحرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصرى ما صبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة :

ـ دع هذا الكلام لغيرك انت ..! اتنكر انك من اصدقائهم كذلك ؟ !

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

ـ اتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على ان تصلى الجمعة في سيدنا الحسين ؟

ففطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الأسف :

ـ يحق لك أن تتطاولى على مادمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين ..

ـ ألم يكن لى هذا الحق من قبل ؟!

ـ الله يرحم أيام زمان ..! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح !..اسجدى شكرا للأولياء ..ولتعاويذ وأقراص أمحنفى.

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

ـ يحق لك أنت أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت في عداد الملاك .

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الأمر شيئا :

ـ أخى في عداد الملاك !.. ما اجمل أن أسمع هذا !..أانت غنى حقا يا سى ياسين ؟!

فقالت خديجة :

ـ دعينى أعد لك أملاكه ، اسمعى ياستى : دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

ـ ومن شر حاسد اذا حسد ..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :

ـ وما خفى من الحلى والنقود المخبأة أعظم ..

فهتف ياسين في أسف صادق :
ـ اختفت كلها وحياتك ، سرقت ، سرقها ابن الكلب . جعلت أبى يسأله عما اذا كانت تركت حليا أو نقودا فقال اللص « ابحثوا بأنفسكم ، علم الله أنى كنت أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبى الخاص » .. اسمعوا يا هوه .. جيبه الخاص ابن الغسالة ..
فقالت عائشة بتأثر :
ـ يا ولداه !.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل طامع في مالها !.. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد .
فتساءل ياسين :
ـ من دون أن يحزن عليها أحد ؟ !
فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :
ـ وهذا البابيون الأسود ؟! .. أليس آية على الحزن ؟!
فقال ياسين جادا :
ـ لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم تكن تصافينا في آخر لقاء ؟ الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..
فخفضت خديجة راسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :
ـ احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن حزن شديد ؟!
فرماها بنظرة مغيظة قائلا :
ـ ما قصرت في واجبى نحوها والحمد لله ، أقمت لها مأتمين استمر ثلاث ليـال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفـواكه .. أم تريدينى أن الطم وأعـول وأحثو التراب على رأسى !. ان للرجال حزنا غير حزن النساء .

فهزت راسها كانما تقـول « افدتنى افادك الله » ثم قالت متنهدة :
ـ آه من حزن الرجال !.. ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !!
فقال متأففا :
ـ صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..
ـ من قائلهذا ؟ ..
أجابها باسما :
ـ حماتك ! .
فضحكت عائشة ، وضحك فهمى وهو يسأل خديجة :
ـ الم تتحسن العلاقات بينكما ؟
فأجابته عائشه بالنيابة عنها قائلة :
ـ سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينهما ..
فقالت خديجة بحنق لأول مرة :
ـ امراة قوية ، ربنا عليها ، والله أنا بريئة ومظلومة ..
فقال ياسين متهكما :
ـ نصدقك يا أختى بلا قسم ، هذا شىء نشهد به أمام الله في يوم العذاب !
فعاد فهمى يسأل عائشة :
ـ وانت كيف حالك معها ؟
فقالت عائشة وهى تلحظ خديجة باشفاق :
ـ على ما يرام ..
فهتفت خديجة :
ـ آه من أختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطاطىء الرأس .. اتفوخص ..
فقال ياسين متصنعا الجد :

— على اى حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة !

فقالت بسخرية :

— التهنئة الحقة لك انت قريبا ان شاء الله حين تزف الى عروسك الثانية !.. أليس كذلك ؟..

فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :

— ربنا يسمع منك ..

فتساءلت عائشة باهتمام :

— حقا ؟ ..

ففكر قليلا .. ثم قال في شيء من الجد :

— المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الغد ؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة ..

فهتفت خديجة :

— هذا ما أتوقعه ، الله يرحم جدك !

فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت أسيف :

— مسكينة زينب !.. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..

— كانت ..! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها — مثل أبى — لا يطاق .. لو رضيت بمعاشرتى كما أحب ما فرطت فيها أبدا .

— لاتعترف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لاتشمت بك خديجة ..

قال باستهانة :

— نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها.

فغمغمت عائشة :

— ولكنها حبلى يا ولداه !.. اترضى لوليدك بأن ينمو بعيدا عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟!..

آه ، أصابت مقتلا ، ينمو في حضانة امه كما نما أبوه من قبل . ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه أو لأبيه ، تعاسة على أى حال . قال عابسا :

— ليكن حظه كحظ ابيه ، ما باليد حيلة .

وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :

— وانت يا ابله متى يخرج الطفل ..؟

فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :

— انه لا يزال في سنة اولى .

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس في وجهها :

— نحفت جدا يا ابله وصار وجهك قبيحا ..!

ضحكوا جميعا وهم يغطون افواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك ، اما خديجة التى لم يكن الاستياء من كمال مما تستطيعه فقد مالت الى ان تجارى التيار فقالت ضاحكة :

— اعترف لكم بأنى خسرت في ايام الوحم كل اللحم الذى تعبت ام حنفى اعواما في جمعه ولمه ، نحفت وبرز انفى وغارت عيناى وخيل الى ان « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها اليه !..

ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :

— الحق ان زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشامى على المغربى ..

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومىء الى عائشة :

— كلاهما — زوجى وزوجها — في الغباء سواء !. لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، اما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت في الأعياد ، واما زوجى فلا تراه الا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى ..

قالت عائشة كالمعتذرة :

— الأعيان لا يعملون !

فقالت خديجة هازئة :

ـ العفو !.. يحق لك ان تدافعى عن هذه الحياة ، الحق ان الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما في الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبى يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجىء امام المرآة ..

تساءل ياسين :

ـ لم لا ما دامت ترى منظرا حسنا ..؟!

وقبل ان تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا :

ـ خبرينى يا اختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟

كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة :

ـ سيجىء باذن الله شبيها بأبيه او جده او جدته او خالته، اما .. ثم ضاحكة :

ـ اما اذا ابى الا ان يجىء شبيها بأمه فالنفى يكون احق به من سعد باشا !.

ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :

ـ الانجليز لا يهمهم الجمال يا آبلا ، انهم يعجبون كثيرا براسى وانفى ..

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :

ـ يدعون صداقتك وهم يعبثون بك !.. ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

ـ كم يسر دعاؤك بعض الناس .. .

فابتسم فهمى مغمغما :

ـ كيف اسر ولهم في بيتنا اصدقاء مغفلون ؟

ـ يا خسارة تربيتك له ..

ـ من الناس من لا تنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

ـ الم ارج جوليون ان يعيد سعد باشا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ في المرة القادمة حلفه براسك الذى يعجب به ..

شعر فهمى اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد أن ذلك لم يجد شيئا في التخفيف من الاحساس بالغربة الذى يغشيه طوال الوقت. هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة او الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين اناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الأمر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين ، عائشة .. هانئة وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شىء حتى بتعبها ، خديجة .. مترثبة ضاحكة ، ياسين .. صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيام !. من منهم يهمه بقى سعد ام نفى ، جلا الانجليز ام مكثوا !. انه غريب، او غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع ان هذا الاحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا، ربما كان ذلك لما عاناه في الأيام الأخيرة . كثيرا ما توقع ان يسمع عن زواج مريم ،كان ذلك همه وكربه بيد أنه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يألفه بكرور الأيام ، الا ان حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لا مطمع لها في الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه المغازلة ؟. هل تصدر الا عن متهتكة ؟. مريم متهتكة ؟. وفيم كانت احلامه الماضية ؟.ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه ان يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، واين كان موقف الجندى ، واين كان موقفه هو ؛ وهل هو متأكد من ان مريم نفسها

التى كانت في الكوة ؟ وانها كانت تنظر حقا الى الجندى ؟. وهل
رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعض على
اسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت في خوف
حين وقعت عيناها عليك ؟. ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر ،
موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ؛ ويتخيل الابتسامة طويلا حتى
كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة
وصاحبتهما تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت .

ـ يبدو ان نينة لن تجالسنا اليوم .

قالته عائشة بصوت يدل على الأسف .

فقالت خديجة :

ـ الزوار يملأون البيت ..

ياسين ضاحكا :

ـ اخاف ان يشتبه الجنود في كثرة القادمين فيظنوا ان
اجتماعا سياسيا ينعقد في بيتنا ..

خديجة في مباهاة :

ـ ان اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس ..

فقالت عائشة :

ـ رأيت السيد محمد عفت نفسه على راس القادمين ..

فأمنت خديجة على قولها قائلة :

ـ كان صديقا حميما لبابا من قبل ان نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز راسه :

ـ اتهمنى بابا ظلما بأننى قطعت ما بينهما .

ـ الا يفرق الطلاق بين اعز الأصدقاء ؟!

ياسين باسما :

ـ الا اصدقاء ابيك !

عائشة بفخار :

ـ من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا ؟. والله ما في الدنيا
كلها نظير له ..

ثم وهى تتنهد :

ـ كلما تصورت ما وقع له امس شاب شعر راسى .

اخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على ان تعالجه
بطريقة مباشرة بعد ان اخفقت ـ فيما رات ـ الطرق غير
المباشرة ، فالتفتت اليه متسائلة :

ـ ارايت يا اخى كيف ان ربنا اكرمك يوم لم يأذن بتحقيق
رغبتك نحو .. مريم ؟!

نظر فهمى اليها بين الدهشة والحياء ، سرعان ما تركزت فيه
الأبصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن
شعور مكبوت طال في الصدر تجاهله او اخفاؤه حتى افصحت
عنه خديجة بجراة فتطلعوا الى الشاب في صمت المنتظر للجواب
كأنما هو نفسه الذى طرح السؤال ، غير ان ياسين راى ان ينهى
الصمت قبل ان يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور:

ـ اصل اخيك ولى والله يحب اولياءه ..

وكان فهمى يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب :

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

ـ لم يكن سى فهمى وحده الذى خدع بها ، كلنا خدعنا بها..

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ـ بأقصى ما في وسعها ـ
تهمة الغفلة :

ـ على اى حال انا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى
مع اعتقادى ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمى يقول متظاهرا بالاستهانة :

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى
.. سيان ، دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في « مسألة » مريم ..
مريم ؟!.. لم يكن ينظر اليها فيما مضى — ان مرت في مجال بصره — الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها ، حتى ذاعت فضيحتها في الأسرة .. هناك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : اى فتاة هى ؟ ود لو كان ملأ عينيه منها ، تمنى لو كان سير الفتاة التى استرعت تشوق « انجليزى » .. انجليزى جاء الحى مقاتلا لا مغازلا ، لم يبد سخطه عليها الا مجاراة للحديث كلما تناولها اما في الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجود « مفضوحة » جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها الا جدار . شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى الصيد وان وقف — اكراما لحزن فهمى الذى يحبه — عند حد الشعور واللذة السلبية المجردة ، لم يعد في الحى من يستثير اهتمامه كمريم .

— آن اوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

- ٦٧ -

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاول عمله اليومى الذى يتناسى به — ولو الى حين — همومه الشخصية والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية . غدا يحب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب لأنه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا ان جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء

والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كل يوم ، فلا تخلو من ان تبعث في نفسه شيئا من الثقة الموحية بامكان عودة كل شيء الى اصله ، الى حالته الأولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟. اين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟.. حتى في هذا الدكان تجرى احاديث الدماء همسا مفجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو السنتهم ان تردد الأنباء وتندب الأحداث ، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح اسيوط والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذى انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد ان يدخل به الأزهر لولا ان سبقته المنية فانغرست في جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تقرع اذنيه بين حين وآخر في المكان الذى يلوذ به ناشدا النسيان . ما اتعس الحياة في ظل الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل أن يمتد اذاها اليه أو الى أحد من ذويه !.. انه لا يبخل بمال ولا يضن بعاطفة اما بذل الحياة فأمر آخر ، اى عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء !. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ، انها تهدد امنه في الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه «العاصى» ؛ فتر حماسه لها ، لها هى دون غايتها ، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة أو دماء أو ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن شيء وان جل من حبه للحياة : فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن فهمى ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمى العاق الذى رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ..

— هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقذوف آدمى فرفع راسه عن مكتبه فرأى الشيخ

متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققا النظر – عبثا – صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت اساريره ثم هتف بالقادم :

– تفضل ياشيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان فيوجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بينالوراء والأمام كأنه راكب جملا ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسى على يمينك ، تفضل بالجلوس» فأسند الشيخ متولى عصاه الىالمكتب وجلس على الكرسى ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

– الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

– ما اطيب دعاءك وما احوجنى اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذىكان يزن ارزا لزبون:

– لا تنس ان تهيىء لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

– من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع راسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء في هينمة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

– ابدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

– عليه أزكى الصلاة والسلام .

– واثنى بالترحم على ابيك طيب الذكر ..

– رحمه الله رحمة واسعة .

– ثم اسأل الله ان يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

– آمين .

متنهدا :

– وادعوه ان يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..

– اللهم استجب .

– وان يخرب بيت الانجليز بما اثموا وبما يأثمون ..

– سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

– اما بعد فقد رايتك في منامى تلوح بيديك فما فتحت عينى حتى صح عزمى على زيارتك ..

فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال ..

– لا اعجب لذلك فانى في مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة على بركة ..

فمال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل :

– احق ما بلغنى عن حادثبوابة الفتوح ؟

فأجاب السيد مبتسما :

– نعم .. من ابلغك يا ترى ؟

– كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى « الم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد احمد وبى ؟ » فاستوضحته منزعجا فقص على العجب العجاب .. قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه في الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات .

واصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسى . افزعت يا بنى ؟.. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لا حول ولا قوة الا بالله .. ولكنهل قنعت بالسلامة ؟. أنسيت ان الفزع لايمضى الى حال سبيله ؟. صليت طويلا وسألتالله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب ..

— كيف لا !.. يزيدنا بركة ياشيخ متولى . والأولاد وامهم ، الم يدركهم الفزع ؟

— طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ، الحجاب .. الحجاب .. وفيه الشفاء ..

— انت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجانى الله من شر كبير ، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .

مال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرة اخرى وتساءل :

— ماذا بك يا بنيعفا الله عنك ؟

فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم في ضجر :

— ابنى فهمى ..

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلا او منزعجا ثم قال برجاء :

— محفوظ باذن الرحمن ..

فهز السيد راسه بأسى وقال :

— عقنى لأول مرة والأمر لله ..

فبسط الشيخ متولى ذراعيه امامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :

— معاذ الله ، فهمىابنى ، وانا اعلمعلماليقين انه طبع على البر.

فقال السيد احمد متسخطا :

— يأبى حضرته الا ان يفعل كما يفعل الشبان في هذه الأيام الدامية ..

فقال الشيخ في دهش واستنكار :

— انت اب حازم ما في ذلك شك ، ما كنت اتصور ان ابنا من ابنائك يجرؤ على ان يرد لك امرا ...

حز هذا القول في قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ، ثم وجد من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف امام الشيخ وامام نفسه معا فقال :

— لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته الى أن يحلف على المصحف بالا يشترك في اى عمل من اعمال الثورة فبكى ، بكى من دون ان يجسر على قول لا ، ما عسى ان اصنع ؟. لا استطيع ان احبسه في البيت ولا يسعنى ان اراقبه في المدرسة ، واخاف ان يكون تيار هذه الأيام أقوى من ان يقاومه شاب مثله ، ماذا اصنع ؟.. أأهدده بالضرب ؟.. أأضربه ؟ لكن ماعسى أن يجدى التهديد مع شخص لا يبالي تعريض نفسه للموت !

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :

— وهل القى بنفسه في المظاهرات ؟!

فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :

— كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه يكتفى بالتوزيع على خاصة أصدقائه

— ماله ولهذه الأعمال !.. انه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر ، الم يعرف ان الانجليز وحوش لا تتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟.. وانهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟.. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ؛ قل له انك ابوه وانك تحبه وتخاف عليه ، اما انا فسأعمل من ناحيتى على اعداد حجاب من نوع خاص وأدعو له في صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد ..

قال السيد بحزن :

— ان أنباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما الذى اصاب عقله ؟. لقد ضاع ابن الفولى اللبان في غمضة عين فشهد مأتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى ، وما هى الا ساعة او نحوها حتى خر صريعا فيساحة الأزهر ، لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله

وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق ابوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون انه لم يمر عليهم كعادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التى لم توزع واخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء ، فجن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحذافيرها كما قصها علينا الفولى ونحن في بيته نعزيه ، علم كيف فقد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن ابيه المبرح وسمع صوات اهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير ابنائى فلله الحمد والشكر ..

فقال الشيخ متولى بصوت اسيف :

— اعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر ابناء الفولى اليس كذلك ؟.. كان جده مكاريا وكنت اكترى حماره للذهاب الى سيدى ابى السعود ، ان للفولى اربعة أولاد ولكن الفقيد كان احبهم الى قلبه ..

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة في الحديث قائلا :

— ايامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتى صغارهم ، بالأمس قال ابنى فؤاد لأمه انه ود لو يشترك في مظاهرة !

فقال السيد بقلق :

— يعملها الصغار ويقع فيها الكبار !.. ابنك فؤاد صديق ابنى كمال وكلاهما في مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسه .. الا تحدثهما نفسهما مرة بأن يسيرا في مظاهرة !؟. هه ؟.. ما من عجيبة تعد الآن عجيبة ..!

فقال الحمزاوى وقد ندم على ما فرط منه :

— ليس الى هذا الحد ياسى السيد ، على انى ادبته بلا رحمة

على تمنياته الساذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفى حفظه الله ورعاه ..

ساد الصمت فلم يعد يسمع في الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :

— فهمي ولد عاقل ، لا ينبغى ان يمكن الانجليز من نفسه العزيزة ، الانجليز !.. حسبى الله .. الم نسمع بما فعلوا فى العزيزية والبدرشين ..

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق مايقرع سمعه هذه الأيام، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

— كنت اول امس في زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين ..

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد :

— تاجر الأقطان المعروف ؟

— شداد بك عبد الحميد اكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟..

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه في التذكر :

— اذكر انى رأيته مرة في مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ، ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل افندينا ، اما من جديد عنه ..؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين . ليعود الى حديثه الأول :

— لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم في بلاد فرنسا ومعه

زوجه واولاده ، لشد ما يخاف شداد بك ان يموت قبل ان يرى ابنه في هذه الدنيا ..

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز رأسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

ــ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح ..

انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدتين والناس نيام؟ .. اليس اولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون امام البيت ؟.. بدءوا بالاعتداء على فأى خطوة تالية يضمرون ؟!..

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم استطرد قائلا :

ــ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى واهانوا النساء وجروهن من شعورهن الى الخارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدتين !.. العمدة شخصية حكومية اليس كذلك ؟.. لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما انا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى ان يصنعوا بأمثالنا ؟.. تصور امينة مجرورة من شعرها ، ايقضى على بأن اتمنى الجنون !.. الجنون ؟..

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا :

ــ واجبروا العمدتين على ان يدلوهما على بيوت مشايخ البلدتين واعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النساء اعتداء اجراميا بعد ان قتلوا اللاتى حاولن الدفاع عن انفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادروهما بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « او عرض لم يثلم » .. اين

رحمة الله ؟ اين انتقامه ؟.. الطوفان .. نوح .. مصطفى كامل . تصور ..! كيف يمكن ان تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد .! اى ذنب جنت !.. وهو بأى وجه ؟!..

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد تهدج صوته فصار بالنواح اشبه ، قال :

ــ واضرموا النار في البلدتين مستعينين بما على اسقف الدور من حطب وقش وبما صبوا عليها من بترول ، استيقظت القرى في فزع رهيب وفر اهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وعلا الصراخ والأنين ، وامتدت السنة اللهب في كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران ..

هتف السيد بلا وعى :

ــ يارب السموات والأرض !

فمضى الشيخ قائلا :

ــ وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما ان بلغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهن ويهتكوا اعراضهن ، فاذا قاومت احداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج او اب او اخ حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفت الشيخ متولى الى السيد الذاهل وضرب كفا على كف وهو يهتف .. وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن ما انزله الانجليز بهم جزاء حق على ما فعلوا، هذا ما حصل يا سيد احمد للعزيزية والبدرشين ، هذا مثل من امثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ..

وساد صمت كئيب اليم خلا فيه كل الى افكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متأوها :

ـ ربنا موجود ..

فهتف السيد مؤمنا على قوله :

ـ نعم ! (ومشيرا الى الجهات الأربع) في كل مكان ..

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

ـ قل لفهمى : ان الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما اهلك من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ..

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثم ساعده على النهوض . صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول :

ـ «غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون» .. صدق الله العظيم ..

- ٦٨ -

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت امينة بأن عائشة قد جاءها المخاض . كانت أمينة في حجرة الفرن فعهدت بالعمل الى ام حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على ام حنفى الاستياء ربما لأول مرة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، اما كان يحق لها ان تشهد ولادة عائشة ؟. لها كل الحق .. كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها في حجرها ، كل ابن في هذا البيت له امان: امينة وام حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هذه الساعة

الرهيبة !.. هل تذكرين ولادتك ؟.. وربع الطمبكشية ، كان المعلم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت في ام حسنية صديقة وقابلة معا !. ترى اين ام حسنية الآن ؟.. الا زالت على قيد الحياة ؟. ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب بين تأوهات الألم ايضا ، وهو في المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين الآن !. سيدتى الصغيرة تتألم وانا هنا اهيىء الطعام . امتلأ قلب امينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها اول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها . ها هى عائشة تتأهب لاستقبال اول مولود تستهل به امومتها ،كما استهلت هى امومتها بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التى انبثقت منها الى غير نهاية . ومضت الى الأب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة في حيائها وتهذيبها ان يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة في الانطلاق الى ابنتها غير ان السيد تلقى الخبر في هدوء ثم أمرها بالذهاب دون ابطاء !.. راحت ترتدى ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات احيانا . وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة . عائشة ام !. اليس ذلك غريبا ؟. ما وجه الغرابة فيه . كانت نينة اصغر منها يوم ولدت خديجة . هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟. ابتسامتان . هذا نذير لى ، عما قليل تلد بنت الكلب ايضا .. من تعنى ؟! زينب . آه لو سمعك بابا . عائشة ام ، وانا اب . وانا خال وعم ، ستكون انت ايضا عما وخالا يا سى كمال ، يجب ان اتخلف اليوم عن المدرسة لأذهب الى آبلا عائشة . جميل جدا ، استأذن بابا ان استطعت على المائدة !.. اوووه . نحن في حاجة الى مزيد من المواليد لنسد العجز الذى اوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عادى ، ثلاثة ارباع التلاميذ مضربون منذ اكثر من شهر.

قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول في وجهك . أوووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدا ونينة جدة ونحن أخوالا ، شيء خطير ، كم مولودا ياترى يرى نور الدنيا في هذه اللحظة ؟.. وكم انسانا يغيب عنه هذا النور في هذه اللحظة ؟.. يجب أن نبلغ جدتي . أستطيع ان أذهب الى الخرنفش لابلاغها اذا تخلفت عن المدرسة !. قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أوووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لا يلين للشعر الذهبي والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك تشرب المغات وتشعل الشموع ، ذكر أم أنثى ؟.. أيهما تفضل ؟.. الذكر طبعا ، ربما بدأت بأنثى كأمها . لم لا تبدأ بذكر كأبيها ؟. هاها ، عند ما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه . أتريد أن تراه وهو يخرج ؟. طبعا . أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت !. كان كمال أشد الجميع تأثرا بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالا . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وانه يحصي حركاته وسكناته ليبلغها أول فأول الى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الاغراء الذى يناديه للذهاب الى السكرية .
ومكث في المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه في السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه أشهرا وهو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحاد فهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوى الما وقد جحظت عيناها ، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهو يصرخ بأعلى صوته . طافت هذه الذكرى بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير انه لم يستسلم للخوف ، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا ما يكون بين الحيوان والانسان وهو

ـ في ايمانه ـ أبعد مما بين الأرض والسماء ، ولكن ماذا يحدث في السكرية اذن ؟.. ماذا طرأ على عائشة من غرائب الأمور ؟.. ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب .. ما كاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضى الى باب الحريم فلاحت منه التفاتة الى المنظرة فما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعيني والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه . تسمر في مكانه جامدا محملقا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حراكا ، ركبه شعور بالذنب لا يدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى في أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد في حديث مع شخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح في داخل المنظرة ابراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل أن يفر الى الداخل ، رقى في السلم وثبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا في الصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه الى سمعه أصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لا يعرفه ، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

ـ آبلا عائشة ولدت ؟

فرفع الرجل سبابته الى شفتيه محذرا وهو يقول :

ـ هس ..

ادرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا ، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

ـ لا ...

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له في عجلة ولهوجة:

ـ انزل يا شاطر والعب تحت ..

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة، بدأ رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، أو هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة القطة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يا لطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما في البكاء . وعند ما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها ابراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له « الحمد لله ياسيدى » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدرى ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد في أعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

ـ الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل في وجوم :

ـ الحمد لله على كافة الأحوال ..

فسأله السيد أحمد باهتمام :

ـ مالك ..؟

فقال بصوت منخفض :

ـ انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..

فتساءل السيد قلقا :

ـ المولود ..؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :

ـ عائشة !.. ليست على ما يرام ، سأجىء بالطبيب حالا..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ، ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبتسم لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :

ـ قاست المسكينة طويلا حتى أنهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما أقول ولكن ابنى بدا اليوم خوافا على غير عادته ، على أنه لا ضرر البتة من مجىء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا وهو الطبيب ..

لم يعد السيد يطيق ما يلتزم عادة من وقار وبرود أمام ابنائه فسألها في قلق غير خاف :

ـ ماذا بها ؟.. الا أستطيع أن اراها ؟

فابتسمت المراة وقالت :

ـ ستراها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب ..

كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب اشد العذاب ،كان وراء العينين الواجتين الرزينتين دمع متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟. الطبيب ؟!، لماذا تحول العجوز بينى وبينها ؟!، ابتسامة رقيقة او كلمة حنونة منى انا ، منى انا خاصة ، حقيقة بأن تخفف من آلامها ، زواج وزوج وألم ، لم تذق في بيتى مرارة الألم قط ؛ العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لأهون أذى يتهددهم ؛ فهمى .. اراه واجما متألما .. هل ادرك معنى الألم ؟.. من اين له أن يعرف قلب الأم !، العجوز مطمئنة وواثقة مما تقول ، ابنها ازعجنا بغير موجب ، اللهم استجب ؛ انت أعلم بحالى بأن تنجيها كما نجيتنى من الانجليز ، قلبى لا يطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛ وهو قادر على حفظ ابنائى من كل سوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ، لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرست في جنبى شوكة حادة ، قلبى يدعو لهم بالسلامة ، لأنه قلب اب ؛ ولأنه لا تطيب المسرات الا لخلى ، هل القى سمار الليل بقلب سعيد ؟. احب اذا ضحكت أن تنطلق الضحكة من أعماق قلبى صافية ، القلب القلق كالوتر المختل ، حسبى فهمى ؛ انه يلح على كوجع الأسنان ، ما ابغض الألم ، دنيا بلا ألم ؛ لا شيء على الله بكثير ، دنيا بلا الم ولو تكون قصيرة ، دنيا تقر فيها عينى بهم جميعا . هنالك اضحك واغنى والهو ؛ يا أرحم الراحمين ، عائشة يا ارحم الراحمين !

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما ، وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

ـ لتعلمن صدق رأيى حالما يتكلم الطبيب ..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى اعلى :

ـ عنده العفو ..

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب . ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل . ان ايمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم اليه أمره ، سيخرج الطبيب طال مكثه في الداخل ام قصر وعند ذاك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟.. لم يفكر في ذلك من قبل ، طبيب عند نفساء !.. مع الرحم وجها لوجه ، اليس كذلك ؟ ولكنه طبيب !. ما الحيلة ؟! اللهم ان ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة، وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

ـ بخير وعافية ..

ثم في شيء من الجد :

ـ جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت أن التى في حاجة الى العناية حقا هى المولودة ..

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

ـ الطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

ـ نعم ، ولكن الا تهمك حفيدتك ؟!

فقال السيد باسما :

ـ لا عهد لى بعد بواجبات الجد ..

وتساءل خليل :

ـ اليس ثمة أمل في حياتها ؟

فقال الرجل وهو يزوى ما بين حاجبيه :

— الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل ان تموت الليلة ، واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنى لا أظن انها تعمر طويلا ، في تقديرى انه لا يمكن أن يمتد بها العمر الى ما بعد العشرين ، ولكن من يعلم ؟. الأعمار بيد الله وحده ..

ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو أمه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :

— كان في نيتى أن أسميها نعيمة باسمك ..

فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :

— الطبيب نفسه قال : ان الأعمار بيد الله أفتكون أنت أضعف ايمانا منه ، سمها نعيمة ، يجب أن تسميها نعيمة اكراما لى ، وسيكون عمرها باذن الله مديدا كعمر جدتها !

كان السيد يحادث نفسه : دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب !.. يا له من أحمق . ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

— حقا الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك أن تفكر قليلا قبل أن تبادر الى احضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه ؟!

لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :

— لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب ..

- ٦٩ -

ماذا في الطريق ..؟!

تساءل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه ، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوى وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ،كان أبعد مايكون عن الهدوء ، صوته الجهير لا يخفت من الفجر الى ما قبيل الفجر ، حناجره عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى أخص الشئون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا آخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد في بادىء الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفت الحى كله قريبه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى في هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد احمد مظاهرة ثائرة كما ينبغى لرجل عاش في تلك الأيام ولكن جلجلت في طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر :

— أبلغك الخبر ؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

— كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

— سعد باشا أفرج عنه ..

فما تمالك السيد أن تساءل صائحا :
ـ حقا ؟!..
فقال شيخ الحارة بيقين :
ـ اذاع اللنبى الساعة بيانا بهذه البشرى ..
في اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثر بالسيد احمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :
ـ كان العهد به دائما أن يذيع الانذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة ؟!.
فقال شيخ الحارة :
ـ سبحان الذى لا يتغير ..
وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله اكبر ، الله اكبر ، النصر للمؤمنين ! » .
وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه في انحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع اثر الخبر السعيد في كل مكان .. في الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهانى ، في النوافذ التى تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها ، في المظاهرات التى تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، في المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، في العربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغانى الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين أو بالأحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارته الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه . وجرى نبأ فوق الرءوس الحاشدة أن الانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات ،

لم ير السيد احمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات « يا حسين .. حملة وانشالت ! » حتى أدنى جميل الحمزاوى راسه من اذنه قائلا :
ـ الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام ..
فقال له بحماس :
ـ اصنع كما يصنعون واكثر ، أرنى همتك ..!
ثم بصوت متهدج :
ـ علق صورة سعد تحت البسملة ..
فنظر اليه جميل الحمزاوى كالمتردد ثم قال محذرا :
ـ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا ان نتريث حتى تستتب الأمور ؟
فقال السيد باستهانة :
ـ مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، الا ترى ان المظاهرات تمر تحت اعين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟. علق الصورة وتوكل على الله ..
غار عهد الخوف والدماء ، اليس كذلك ؟. سعد حر طليق ولعله في طريقه الآن الى أوربا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة أو كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الأحياء منا قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ؛ فهمى ؟!. نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد لله والشكر لله ، اجل نجا فهمى ، ماذا تنتظر ؟. صل الى الله ربك . لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم مليء بالهتاف . كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتى امينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالأفراج عن سعد .

— من المشربية رأيت ما لم تر عين من قبل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟!. وأولئك النساء هل جنن !؟. لا يزال صدى ترديدهن يرن في أذنى « يا حسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :

— تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراءه ..!

نظر اليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة تتساءل :

— أرضى الله عنا أخيرا ..؟

فأجابها ياسين قائلا :

— بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظنين ؟

قال فهمى الذى بدا في فرح الأطفال :

— لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما افرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى أوروبا ثم يعود بالاستقلال ، هذا ما يؤكده الجميع ، ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ أبريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

— ياله من يوم !. اشترك الموظفون في المظاهرات علانية ، ما كنت أظن أن بى هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالى ..!

فضحك فهمى قائلا :

— وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف !.. يا له من منظر فريد !.

يوم عجيب في الأيام حقا ، اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين امواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لايكاد يصدق أنه ثاب الى رشده وانه آوى الى برج المراقبة الهادىء يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث !. جعل

يستحضر الحال التى تلبسته في المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمى حتى قال بغرابة :

— الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكأنه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمى باهتمام :

— اكنت تشعر بحماس صادق ؟

— هتفت لسعد حتى بح صوتى واغرورقت عيناى مرة أو مرتين .

— كيف اشتركت في المظاهرة ؟

— بلغنا نبأ الافراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، أكنت تتوقع غير هذا ؟. واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم أجد من نفسى ميلا الى مجاراتهم وفكرت في التسلل الى البيت ، غير انى اضطررت الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟. وجدت نفسى في بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت ان ذهلت عن نفسى واندمجت في التيار كأشد ما يكون المرء — صدقنى في هذا — حماسا وأملا ..!

فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

— شيء عجيب ..

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

— أحسبتنى فاقد الوطنية ؟! المسألة انى لا احب الزياط والعنف ، ولا أجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ..

— واذا شق التوفيق بينهما ..؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

— قدمت حب السلامة !. نفسى أولا .. الا يستطيع الوطن

أن يسعد الا بالتهام حياتي ؟!. يفتح الله ، انا لا أفرط في حياتي ولكنى سأحب الوطن ما دمت « حيا » ..

قالت امينة :

ــ هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمى) هل عند سيدى راى آخر ..؟

قال فهمى بهدوء :

ــ كلا طبعا ، انه عين العقل كما قلت ..

ولم يرض كمال ان يبقى بمعزل عن الحديث لا سيما انه كان مقتنعا بأنه لعب في يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ــ واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا مازلنا صغارا .. واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام ، ثم سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا ، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين في الخارج ..!

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

ــ ولكن أصدقاءك ذهبوا ..!

ــ في داهية ..

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى ابعد ما تكون عن حقيقة شعوره ، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولأنه اراد ان يدارى بها هزيمته أمام سخرية ياسين منناحية أخرى ، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان المهجور الذى كان يحتله المعسكر يقلب عينيه في ارجائه في صمت اليم وعيناه مغرورقتان . سوف يمضى وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاى على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذى كان يحظى به غناؤه ، والمودة التى كان يلقاها من الجنود

خاصة جوليون ، والصداقة التى ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر !. قالت امينة :

ــ سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا افندينا في زمانه ، رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لا ينصر الا المؤمنين . نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، اى فوز وراء هذا ؟!.. لقد ولد الرجل في ليلة القدر .

سألها فهمى باسما :

ــ أتحبينه ..

ــ أحبه ما دمت تحبه ..

بسط فهمى راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال :

ــ لا يعنى هذا شيئا ..!

فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

ــ كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى « ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته ؟! » على أن رجلا يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه كذلك ..

ثم متنهدة بصوت مسموع :

ــ أسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟.. كم اما لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة ..

قال لها فهمى وهو يغمز ياسين بطرفه :

ــ الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت أصبعيها في اذنيها وهتفت :

ــ اللهم انى أشهدك على ما يقول سيدى الصغير !. ام تزغرد لاستشهاد ابنها !. اين ؟!. على هذه الأرض ؟. ولا تحت الأرض في عالم الشياطين !..

قهقه فهمى عاليا ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

— نينة ..! سأبوح لك بسر خطير آن له ان يذاع ، لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه ..!

سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

— انت ؟!.. محال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست كالآخرين ..

فقال بيقين وهو يبتسم اليها :

— اقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتسامة واتسعت العينان في ذهول ، ثم رددت بصرها بينه وبين ياسين الذى حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهى تزدرد ريقها :

— رباه !.. كيف أصدق أذنى !

ثم بعد أن هزت رأسها في حيرة اليمة :

— انت !..

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس — بالنظر لمجىء اعترافه بعد زوال الخطر — الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

— ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لا داعى الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة :

— صه ، أنت لا تحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى في شيء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو يبتسم بمكر :

— أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟. رأيته وانا عائد في الطريق المقفر فنبه على بألا اخبر احدا بأنى رأيته ..

ثم نظر الى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :

— قص علينا يا سى فهمى ما لقيت في المظاهرات ، كيف كانت تقع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ ألم تطلق النار قط ..؟

فتدخل ياسين في الحديث قائلا للأم :

— ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشكر الله على نجاته ، هذا اولى بك من الانزعاج :

سألته بجفاء :

— أكنت تعلم بذلك ..؟

فبادرها قائلا :

— لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وايمانى وربى ..

ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على منكبها وقال برقة :

— اتطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان ! وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى بين يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق ..

وقال فهمى جادا :

— نينة ، رجائى اليك ألا تكدرى صفونا بحزن لا موجب له.

تنهدت .. فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم نكست وجهها لتخفى عينيها المغرورقتين ..

— ٧٠ —

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء ابيه مهما كلفه الأمر وفي صباح اليوم التالى صمم على تنفيذ عزمه دون تردد . ومع أنه لم يضمر لأبيه — طول فترة العصيان — اى احساس بالغضب أو التحدى فان ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء . حقا لم يتحده بلسانه

ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه في حجرته واعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم ارادة الرجل ، كل أولئك أحله — على حسن نيته — موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد ان يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذى يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التى لا تشوبها شائبة.

دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء ، لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذاك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟! » فتغلب فهمى على ارتباكه وتقدم من مجلس أبيه في خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير يا بابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم في نبرات نمت عن اليأس :

— انى آسف ..

صمت واصرار على الصمت ..

— آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ ..

وجد ان الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه ان يتحاشاه فأمسك ، وما يدرى الا والسيد يسأله بجفاء وتبرم :

— وماذا تريد ..؟

رحب باقلاعه عن الصمت أيما ترحيب فتنهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : أريد أن تكون راضيا عنى ..

قال السيد بضجر :

— غر من وجهى .

فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :

— عندما أنال رضاك ..

تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم :

— رضاى !.. لم لا ؟.. هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط ؟!

رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهكم عند أبيه اول خطوة نحو الصفح . غضبه الحقيقى صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كل أولئك جميعا ، التهكم اول بشير بالتحول ، انتهز الفرصة وتكلم ؛ تكلم كما ينبغى لرجل قد يعمل في المحاماة غدا أو بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لا تعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم أفعل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الأصدقاء .. وما توزيع المنشورات على الأصدقاء ؟ اين أنا ممن بذلوا الحياة رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقمت بشيء من الواجب وانا مطمئن الى انى — في الواقع — لا أخالف لك ارادة ، الخ الخ ..

— علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن أعصى لك امرا .

قال السيد بحدة :

— كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضاى قبل اليوم ..؟

قال فهمى بحزن :

— كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل .

— شغلك عن طلب رضاى ؟!

قال بحرارة :

— شغلنى عن نفسى لا عن طلب رضاك ..

ثم بصوت منخفض :

— لن استطيع ان أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لا غضبا كما تظاهر ، ولكن ليخفى الأثر اللطيف الذى بعثه كلام الشاب في نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيد صناعة الكلام حقا ، هذه هي البلاغة أليس كذلك ؟ سأعيد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره في نفوسهم ، ترى ما عسى أن يقولوا ؟ ، الولد سر أبيه .. هذا ما ينبغى أن يقال ، قديما قيل لى انتى لو أتممت مراحل التعليم لكنت أبلغ المحامين ، انى ابلغ الناس بغير التعليم والمحاماة ، الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو موظف كبير ينكمش في المجلس امامى كالعصفور ! ولا فهمى نفسه بمستطيع أن يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحكون حقا الولد سر أبيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز في نفسى ، لكن أليس من دواعى الفخر لى أنه اشترك في الثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة ، أتظنون أنه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى ؟ ، لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار الدامى ، يا سيد احمد ينبغى أن نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة .. لم نشأ أن نقول لك هذا في ابان الخطر أما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله .. أتنكر انت شعورك الوطنى ؟ .. ألم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد .. والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنه عصانى ! عصى لسانك واطاع قلبك ! الآن ما عسى أن أفعل ؟ يريد قلبى أن يهبه العفو ولكنى أخاف أن يستهين بمخالفتى !

— وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت ارادتى ، أحسبت أن الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر في ؟!

هم فهمى بالكلام ولكن أمه دخلت في تلك اللحظة وهى تقول:

— الفطور جاهز يا سيدى ..

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكأت قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت في الصمت — الذى خافت أن يكون مجيئها باعثه — ما دعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف أثره عن عينى الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيرا بصوت سلمى :

— أريد مستقبلا الا تصر على حماقتك وأنت تخاطبنى ..

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة :

— أظنك حاسب نفسك على رأس الذين افرجوا عن سعد !

غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها . دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية . لئن كان يعد ما يعهد عادة اليه — بالقياس الى غيره — من الأدوار الثانوية الا انه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو أسعد ما يحظى به في حياته غير أنه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها احد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جراة واقداما . أجل لم ينكص عن مظاهرة من

المظاهرات التى دعت اليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند اطلاق الرصاص وتساقط الضحايا .. فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه في قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان في الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات ؟! أين هو من اقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدروهم نياشين الرصاص ؟! أين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من ايدى الجنود في الأزهر ؟! اين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الانباء بآى بطولتهم واستشهادهم ؟!. كانت أعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى الاقدام والتأسي بالأبطال ، ولكن كانت تخذله اعصابه في اللحظة الحاسمة فما أن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة ان لم يكن مختبئا أو هاربا ، ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لا تحد ، متعزيا أحيانا بقوله «ما أنا الا محارب اعزل ، ولئن فاتنى الرائع من أعمال البطولة فحسبى أننى لم اتردد مرة واحدة عن الالقاء بنفسى في أتون المعركة » . في طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون ـ فيما بدا ـ وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ، تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه الى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر .. انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولا له.

ولا له ؟! ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو اصابة غير مميتة ! اليس من المحزن ان تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة .. أتنكر سرورك بالنجاة ؟. أكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ، اكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك في وسعك فلم نكصت ؟ لم تكن تضمن أن تقع الاصابة غير مميتة أو ان يكون السجن عابرا ، انت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو كان اصابك شيء دون أن يغير من هذه النهاية الجميلة ، ينبغى اذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب ! أمضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق ـ بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه في الموضع الذى حدد له !.. باب المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا أن شمس ابريل صبت على من تعرض لأشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمى في عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بساطة العمل الذى لم يعد ان يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها الا انه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وانه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم ولاحظ أعينا ترمقه باهتمام وشفاها تتهامس عليه كما سمع اسمه ـ مقرونا بصفته الشعبية ـ يجرى على بعض الألسن « فهمى احمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى أطبق شفتيه دون أن تند عنهما بسمة حياء أو ارتباك من «مهابته» اجل ينبغى أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا على الجد

والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كي ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفى وراءه من أعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة ـ التى عجز عن تحقيقها في الواقع ـ في أخيلتهم ، لن تفتر له رغبة في المزيد منها وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ، ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو ؟! لشد ما يحبونه بالاحترام والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه رأى مسموع ، والخطابة ؟. ليس من الضرورى أن تكون خطيبا .. اليس كذلك ؟ ليس محالا أن تكون عظيما وأنت غير خطيب ولكن أى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت . كلا لن ألوذ بالصمت . سوف أتكلم ، سأطلق لقلبى العنان أجاد أم لم يجد ، متى تقف بين يدى سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناى تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رباه !. امتلأ الميدان امتلأت الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة ، مائة ألف ، طرابيش عمائم ، طلبة .. عمال .. موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة .. من كان يتصور هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ، لم لم أدع بابا ؟ صدق ياسين .. الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلو على نفسه ، أين همومى الشخصية ؟.. لا شيء ، لشد ما يخفق قلبى ، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينة مرة أخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن ، أريد أن ألمس أثره في وجوه الشياطين ! ها هى ثكناتهم تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف ، هناك رءوس في

النوافذ .. فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، أم تقض رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد في هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ، سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة . بل رجلا وحدا ، بل هتافا واحدا . تتابعت طوابير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم أمام باب المحطة ، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى. وافتر ثغره عن ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظاهرته « الخاصة » ورفع يديه فسرت في الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرا . واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها ، دار على عقبيه مرة اخرى سائرا بوجهه ، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة اخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات . امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوة الى قوة وطمأنينة على طمأنينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد أن أعياها الطعان والهجوم . ان منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟!.. أليس هذا هو رسل بك .



بلى هو انه يعرفه حق المعرفة ، وهـذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة مترفعة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذى ملأ الأسماع في الأيام السود الدامية ؟! أوله جيم أليس كذلك ؟ جا .. جو .. جى .. يأبى أن يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا أن تلبى نداء الحماس والظفر مادام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة ، ألم تعاهد نفسك على النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم .. من هى ؟! ذلك التاريخ القديم ؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضى .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه ، عد الى الهتاف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرته » تقترب رويدا من حديقة الأزبكية التى لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميـدان الأوبرا من بعيـد رءوسا متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا . كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحديقة دوت ــ على حين بغتة ــ فرقعة حادة فشلت حنجرته وتلفت فيما حواليه متسائلا في انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما صك أذنيه في الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه في ذاكرته في هداة الليل بيد انه لم يستطع ان يألفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان ..

ــ رصاص ..؟!

ــ غير معقول ، ألم يصرحوا بالمظاهرة ؟..

ــ أسقطت من حسابك الغدر ؟

— ولكن لا أرى جنودا ..؟!

— حديقة الأزبكية معسكر هائل مكتظ بهم ..

— لعلها فرقعة عجلة سيارة ..

— لعلها ..!

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب الى السكينة ، وما هى الا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، أين يا ترى استقرت ؟ أليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها الى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعثين في كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد . تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم . ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شىء في طريقها ولا تذر . أهرب ، ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب أو بالتراجع أو حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع ؟! في خلاء أنت ، اهرب . صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما اشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات. ماذا تريد ؟ أن تهتف ؟ أى هتاف ؟ أو هو نداء فحسب .. من ؟ ما ؟ في باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشىء ، لاشىء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هوادة ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية . لاشىء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام.

- ٧١ -

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع اقدام على مدخل الدكان فرفع راسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون — السلام عليكم ورحمة الله ..

فنهض السيد قائلا بأدبه المعهود :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكراسى) تفضلوا ..

ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال أوسطهم :

— حضرتك السيد احمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسما وان لاح في عينيه التساؤل :

— نعم يا سيدى ..

ماذا يريدون ياترى ؟ الشراء مستبعد .. ما للشراء والمشية العسكرية التى جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التى يتكلمون بها ! ثم الساعة جاوزت السابعة مساء . الا يرون الحمزاوى وهو يرفع الزكائب الى الرفوف ايذانا باغلاق الدكان ؟ ايكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وأنا لم أعد صالحا الآن الا للسهرة ! يا هؤلاء اعلموا أنى لم اغسل رأسى ووجهى بالكولونيا وامشط شعرى وشاربى واحبك جبتى وقفطانى كى ألقى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه أن وجهه ليس غريبا عليه . رآه من قبل ؟ أين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه .. قال باسما وقد شاع الارتياح في وجهه :

— أليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا في الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا في مسجد الحسين رصى الله عنه؟

فقال الشاب بصوت خفيض :

— بلى يا سيدى ..

صدق ظنى ، يقول البلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الىهكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبىء عن خير ، اللهم اجعله خيرا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قلبى ينقبض لأمر ما ، جاءوا لأمر يتعلق بـ ..

— فهمى ؟!.. جئتم تريدونه .. لعلكم ؟!..

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

— مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر !..

مال السيد فجأة الى الأمام معتمدا على حافة المكتب وهتف:

— الصبر ؟. علام !.. فهمى ؟!..

قال الشاب بحزن بالغ :

— يؤسفنا أن ننعى اليك أخانا المجاهد فهمى احمد ..

صاح بلهجة منكرة وان لاحت في عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس :

— فهمى ؟..

— استشهد في مظاهرة اليوم ..

وقال الذى الى يمينه :

— انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلا وشهيدا كريما ..

تلقى كلماتهم بأذن اصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة . مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم اجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، اخيرا عاد الشاب يغمغم :

— لشد ما احزننا فقده ولكن ليس لنا الا ان نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك أول من يحسن القاء التعازى في مثل هذا الموقف !.. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟ لاشىء ! من اين للكلام أن يطفىء النار ؟ مهلا .. الم تخطر الرزية بقلبك قبل أن يتكلم قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ، الآن والموت حقيقة تلقى الى سمعك تأبى ان تصدق ، او تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف اصدق أن فهمى مات حقا ، كيف تصدق أن فهمى الذى كان يطلب رضاك من ساعات فتثاقلت عنه . فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية واملا وسرورا ، مات .. مات ! لن اراه بعد اليوم لا في البيت ولا في أى مكان من ظهر الأرض ؟.. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف أكون ابا بعده ؟ اين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا في الصبر .. الصبر ؟ آه .. هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا .. كنت تخدع أحيانا فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا ..

— سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..

رفع السيد راسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :

— ظننت عهد القتل قد انتهى ..

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

— كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد اذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت اول الأمر في أمان حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية ، وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب ، لم يتعرض احد للجنود لا بخير ولا بشر حتى الهتاف بالانجليزية إمتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز ، ولكن مسهم جنون القتل

فجأة فعمدوا الى بنادقهم وأطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان اللنبى سيعلن أسفه عما بدر من الجنود ..

قال السيد بنفس اللهجة المريضة :

— ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..

— وا أسفاه ..

قال السيد بتفجع :

— لم يشترك في المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم اليها !..

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس احدهم بكلمة .. وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :

— الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن ؟

قال الشاب :

— في قصر العينى « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء الغد ..

هتف السيد في جزع :

— الا يترك لى تشييع جنازته من بيته !..

فقال الشاب بقوة :

— بل تشييع جنازته مع اخوانه في احتفال شعبى ..

ثم برجاء :

— القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولا بأس من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لا يليق أن يشيع فهمى في جنازة عادية كمن قضوا في بيوتهم ..

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

— اصبر وما صبرك الا بالله ..

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا ..

أسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى أن يخرج من حيرته ، فانه لا يدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن أين ؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها .. متى يتهيأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟ يبدو هذا بعيدا .. ولكنه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء في راهنه .. أجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل ، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه ، ما أثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها ، حقا أن أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟. كيف يجزع والأيام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدماه .. ما عسى أن يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر ؟. الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور !. اتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟.. مقتل فهمى !.. أهذه هى نهايتك حقا يا بنى ؟.. يابنى العزيز التعيس !.. أمينة .. ابننا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أتأمر بمنع الصوات كما أمرت

بمنع الزغاريد من قبل ؟.. أم تصوت بنفسك ؟.. أم تدعو النائحات ؟!.. لعلها تتوسـط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أخر فهمى ، سوف يتأخر طويلا ، لن تريه أبدا .. ولا جثته ، ولا نعشه ، يا للقسوة ، سأراه انا في القصر أما انت فلن تريه ، لن أسـمح بهذا .. قسـوة أم رحمة ؟ ما الفائدة ؟.. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل .. ترامى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة :

زورونى كل سـنة مرة   حـرام الهجـر بالمرة

تمت

((نجيب محفوظ))

للمؤلف

((قصر الشوق))

((السـكرية))

وتصوران فترتين أخريين من حياة هذه الأسرة ..